مكتبة ياسمين

تيري براتشيت

3

عالم القرص
DISCWORLD

طقوس متساوية

عصير الكتب

ترجمة: منة التّلاوي

3 عالم القرص DISCWORLD

— طقوس متساوية —

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم نكبر ونستمر بكل جديد

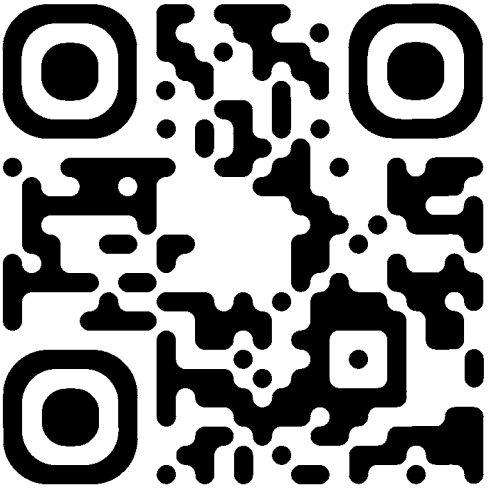

telegram @
yasmeenbook

● العنوان الأصلي: Equal Rites

● العنوان العربي: طقوس متساوية

● حقوق النشر:

Copyright © Terry Pratchett 1987
Discworld® is a trade mark registered by Terry Pratchett The right of Terry Pratchett to be identified as the author of this work has been asserted by him in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act 1988. First published in Great Britain in 1987 by Victor Gollancz Ltd, in association with Colin Smythe Ltd

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

● تأليف: تيري براتشيت

● ترجمة: منة التُّلاوي

● تحرير: أحمد حسين

● تدقيق لغوي: كارم أحمد

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● الطبعة الأولى: يناير/2025م

● رقم الإيداع: 26393/2024م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-444-1

تيـري براتـشيت

عالم القـرص
DISCWORLD

طقوس متساوية

ترجـمة: مـنة التّـلاوي

عصير الكتب

عالم القرص
أول خريطة رقمية للعالم.
نتيجة بحث علمي
من قبل فريقنا الخاص
من المتاحف.
مرممة براعة
من قبل خبرائه فحة
من الأقوام.
استنادًا إلى
بابان
عالم القبعة
تأليف
تيري براتشيت
محيط
عكس الدوران
محيط
الحافة
جبال راهتو
كلاتش
المدياس

طقوس متساوية

telegram @
yasmeenbook

هذه حكاية عن السحر؛ أين يذهب، وربما الأهم هو من أين ينبعث ولماذا، رغم أنها لا تدعي الإجابة عن كل هذه الأسئلة أو أيًّا منها.

ومع ذلك فقد تُعِين على تفسير سبب عدم زواج غاندالف[1] أبدًا وسبب كون مرلين[2] ذكرًا؛ فهي حكاية عن الجنس كذلك، رغم أنها لا تعني تناوله بتصور عنفواني أو بهلواني أو إباحي ما لم تخرج الشخصيات عن سيطرة المؤلف تمامًا، وقد يفعلون.

وذلك إضافة إلى أنها قصة عَالَم بالأساس، ها قد أتت الآن، فشاهد من كثب؛ فالمؤثرات الخاصة باهظة الثمن.

أصوات نغمة الباس، إنه وتر اهتزازي عميق يشير إلى احتمال اقتحام فرقة العزف على الآلات النُّحاسية للمشهد في أي لحظة مسببًا ضجة للكون؛ لأن المشهد هو ظلام الفضاء السحيق يتخلله بعض النجوم المتلألئة مثل قشرة فروة رأس متساقطة على أكتاف الإله.

ثم يظهر في المنظر العلوي: غيلم طوله عشرة آلاف ميل؛ أكبر من أكبر سفينة فضاء على شاكلة ستار كروزر مسلحة تسليحًا ثقيلًا في خيال صانع سلسلة أفلام ثلاثية الأجزاء. إنه آتوين العظيم؛ أحد

(1) شخصية ساحر ذُكِرَتْ في روايات جي آر آر توكلين حيث ظهرت في روايات الهوبيت وسيد الخواتم، وهو ساحر عاد من الموت. (المترجمة)

(2) شخصية خيالية من الأسطورة الآرثرية لساحر أبيض جبار، ارتبط بميلاد الملك آرثر، ونشأة كاميلوت. (المترجمة)

السلحفيات الفلكية النادرة من عالم تكون فيه الأشياء أقل على حالها، وأشبه بما يتخيله الناس، وهو يحمل على صدفته المرقَّعة بثقوب النيازك أربعة أفيال عملاقة تحمل على أكتافها الضخمة عجلة دوران عالم القرص الشاسعة.

وبالتفاف زاوية الرؤية، يمكن رؤية العالم بأكمله في ضوء شُميسه التي تدور حوله. فثمة قارات وأرخبيلات وبحار وصحارٍ وسلاسل جبال، بل حتى قلنسوة جليد مركزية صغيرة. ومن الواضح أن قاطني هذا المكان يرفضون أي تورط مع النظريات الكونية. فعالمهم الذي يحده محيط مطوَّق يسقط في الفضاء إلى الأبد في شلال واحد طويل، عالم مسطح مستدير مثل بيتزا جغرافية، رغم خلوها من سمك الأنشوجة.

وعالم كهذا؛ وُجِدَ انطلاقًا من تلذذ الآلهة بمزحة، لا بدَّ أن يكون مكانًا يمكن للسحر العيش فيه وكذلك الجنس قطعًا.

أتى ماشيًا خلال العاصفة الرعدية، وبوسعك معرفة أنه ساحر؛ ربما بسبب عباءته الطويلة وعصاه المنحوتة، لكن السبب الأساسي هو توقف زخات المطر على بعد عدة أقدام من رأسه وتبخرها.

لقد كان هذا بلد عواصف رعدية من الدرجة الأولى، هنا في جبال رامتوب، بلد القمم المسننة والغابات الكثيفة وأودية الأنهار الصغيرة بالغة العمق لدرجة أن ضوء النهار لا يكاد يمسُّ قاع النهر حتى يحين وقت رحيله من جديد. تعلقتْ بعض خيوط السحب الممزقة بالقمم الصغرى أسفل الممر الجبلي الذي انسلَّ فيه الساحر وانزلق، حيث راقبه عدد ضئيل من الماعز بأعين مفتوحة واهتمام طفيف، فالأمر لا يسترعي الكثير من اهتمام الماعز.

كان يتوقف أحيانًا ويقذف عصاه الثقيلة في الهواء، وكانت تهبط دائمًا مشيرة إلى الطريق نفسه، فيتنهد الساحر ويلتقطها ويواصل السير وهو يجر قدميه.

تجولتِ العاصفة حول التلال سيرًا على أرجل البرق والصراخ والتذمر.

اختفى الساحر خلف منعطف في الطريق، وعاد الماعز إلى مراعيه المبللة.

حتى استرعى شيء آخر النظر إليه؛ فتيبسوا واتسعت أعينهم وتوسعت مناخرهم.

وقد كان ذلك غريبًا، لأن ما من شيء على الطريق، لكنَّ الماعز ما زالت ترقب عبور شيء ما الطريق حتى أصبح بعيدًا عن النظر.

هناك؛ قرية مطوية في وادٍ ضيق بين غابات شاهقة، لم تكنْ قرية كبيرة ولم تكن لتظهر على خريطة الجبال، وبالكاد ظهرتْ على خريطة القرية.

لقد كانت في الواقع أحد تلك الأماكن الموجودة فقط كي يمكن للناس القول بأنهم منها، والعالم مليء بها مثل: قرى مخفية ومدن صغيرة تجتاحها الرياح تحت سماء واسعة وأكواخ معزولة فوق جبال باردة، بصماتها الوحيدةِ في التاريخ هي كونها مكانًا عاديًّا بشكل لا يصدق يبدأ فيه حدوث أمر استثنائي. وفي كثير من الأحيان لا يوجد أكثر من لوحة تذكارية تكشف عن مولد شخص مشهور جدًّا بمنتصف الطريق تمامًا بخلاف كل احتمالات الطب النسائي.

تجعد الضباب بين المنازل فيما كان الساحر يعبر جسرًا ضيقًا فوق جدول متخمٍ ويشق طريقه إلى قرية ورشة الحدادة، رغم أن هاتين

الحقيقيتين لا تجمعهما ببعض أي علاقة. فالضباب كان ليتجعد على أي حال؛ فقد كان ضبابًا محنكًا وكان يتجعد ليتحول إلى فن راقٍ.

قطعًا كانت ورشة الحدادة مزدحمة إلى حد ما، فهي مكان يمكن للمرء الاعتماد عليه في العثور على نار جيدة للتدفئة وشخص للتحدث معه. كان العديد من القرويين يستلقون في الظلال الدافئة، لكن حالما اقترب الساحر، اعتدلوا في جلستهم بترقب وحاولوا أن يبدوا نبيهين دون أي بوادر نجاح في العموم.

لم يشعر الحداد سميث بالحاجة إلى أن يكون غاية في الخنوع، أومأ برأسه للساحر، لكأنها كانت تحية بين نِدَّين أو هي كذلك بالنسبة إلى الحداد على الأقل. ففي النهاية، أي حداد شبه كُفء على معرفة طفيفة بالسحر أو على الأقل هذا ما يعتقده سميث.

انحنى الساحر، واستيقظتْ قطة بيضاء كانت نائمة بجوار الفرن وتطلعت إليه بإمعان، قال الساحر: «ما اسم هذا المكان سيدي؟».

هز سميث كتفيه قائلًا: «باد آس».

رد الساحر: «باد...».

كرر الحداد: «آس» بلهجة تتحدى أي شخص تُسوِّل له نفسه السخرية من الاسم، وقد أخذ الساحر ذلك بعين الاعتبار.

- قال سميث أخيرًا: «إنه اسم يحمل قصة وراءه».

رد الساحر: «لو كانت الظروف غير ذلك، لسعدتُ بسماعها، لكنني أود التحدث معك يا سميث عن ابنك».

- قال سميث: «أيهم؟».

- ضحك المتطفلون وابتسم الساحر.

- عندك سبعة أبناء، أليس كذلك؟ وأنت نفسك الابن الثامن لأبويك.

تيبس وجه سميث والتفت إلى القرويين الآخرين، وقال: «حسنًا، لقد توقف المطر، اغربوا عن وجهي، هناك الكثير منكم. أنا و...».

نظر إلى الساحر ورفع حاجبيه.

- قال الساحر: «درام بيليت».

- لديَّ أمور أناقشها مع السيد بيليت.

لوح بمطرقته على نحو غامض، فغادر الحضور واحدًا تلو الآخر مسترقين النظر حال فعل الساحر أي شيء مثير للاهتمام.

سحب سميث مقعدين من تحت المنضدة، وأخرج زجاجة من خزانة مجاورة لخزان المياه، وسكب كوبين صغيرين للغاية من سائل شفاف.

جلس الرجلان وشاهدا المطر والضباب المتقلب فوق الجسر، ثم قال سميث: «أعرف أيَّ ابن تقصد، العجوز جراني مع زوجتي الآن. الابن الثامن للابن الثامن، طبعًا. أتعرف لقد مرَّ ذلك بخاطري لكني لم أمعن في التفكير في الأمر قطُّ كي أصدقكَ القول. حسنًا حسنًا، ساحر في أسرتي، هه؟».

قال بيليت: «إنك سريع الفهم».

- قفزتِ القطة البيضاء من مكانها المرتفع إلى أسفل ومشت الهوينى على الأرض ثم قفزت إلى حِضن الساحر حيث تكورت هناك، داعبتها أصابعه الرفيعة وذهنه شارد.

قال سميث ثانية: «حسنًا، حسنًا، ساحر في باد آس، هه؟».

رد بيليت: «محتمل، محتمل، طبعًا عليه ارتياد الجامعة أولًا وأن ينجح بالتأكيد».

كان سميث يدرس الفكرة من جميع الزوايا، وقد قرر أنها قد أعجبته بشدة. حتى صدمته خاطرة.

فقال: «تمهل، أحاول تذكر ما قاله لي والدي عن أن بوسع الساحر الذي يعرف أنه سيموت تمرير بعض سحره إلى خليفته، أحقًّا ذلك؟».

قال الساحر: «لم أسمعها بهذا الإيجاز قطُّ، نعم».

- إذن، فأنت تقريبًا ستموت؟

- نعم

telegram @
yasmeenbook

خرخرتِ القطة إذ داعبتها الأصابع خلف أذنها.

بدا سميث محرجًا وقال: «متى؟».

فكر الساحر لوهلة ورد: «في غضون ست دقائق تقريبًا».

- أوه.

أضاف الساحر: «لا تقلق، ففي الحقيقة أنا أتطلع قدمًا إلى الموت، لقد سمعتُ أنه غير مؤلم أبدًا».

أثارت العبارة اهتمام الحداد، حتى سأل أخيرًا: «من أخبرك بهذا؟».

تظاهر الساحر بأنه لم يسمع ما قال، كان ينظر إلى الجسر يبحث في الضباب عن علامات منذرة بوقوع حدث ما.

قال سميث: «اسمعْ، من الأفضل أن تُحدِّثني عن كيفية تربية ساحر، فكما ترى لا يوجد أي ساحر في هذه الأنحاء و...».

قال بيليت بسرور: «ستنتظم الأمور من تلقاء نفسها؛ لقد دلَّني السحر عليكَ وسيتكفل السحر بكل شيء، وهو عادة ما يفعل ذلك. هل سمعت صوت صراخ؟».

نظر الحداد إلى السقف متجاوزًا زخات المطر، فاستطاع تمييز صوت صادر من رئتين جديدتين تعملان بأقصى طاقتهما.

ابتسم الساحر وقال: «هلا نزلتَ به إلى هنا».

انتصبتِ القطة ونظرت باهتمام إلى مدخل دكان الحدادة الواسع، كما نادى سميث بحماس من أعلى الدرج. قفزتِ القطة إلى أسفل وتمددت ببطء على الأرض وهي تخرخر بصوت كصوت المنشار الكهربائي.

ظهرتِ امرأة ذات شعر أبيض طويل عند أسفل الدرج وهي تمسك صُرة ملفوفة في بطانية، أسرع سميث بتوجيهها إلى حيث يجلس الساحر.

بدأت التحدث قائلة: «لكنْ...».

قال سميث شاعرًا بالأهمية: «هذا مهم للغاية، ماذا سنفعل الآن سيدي؟».

رفع الساحر عصاه التي يعادل طولها طول رجل ويعادل سُمكها سُمك معصمه تقريبًا، مغطاة بمنحوتات يبدو أنها تتغير كلما نظر سميث إليها، كما لو كانت حرفيًّا لا ترغب في أن يراها.

قال درام بيليت: «لا بدَّ أن يحملها الطفل».

أومأ سميث ودسَّ يده في البطانية حتى عثر على يد وردية صغيرة، فهداها إلى العصا برفق، فأمسكتها بإحكام.

قالت القابلة: «لكن...».

قال سميث: «كل الأمور على ما يرام يا جراني، أعرف ما أنا بصدده، إنها مشعوذة يا سيدي لا تأبه بها، ماذا الآن؟».

كان الساحر صامتًا.

بادر سميث بالحديث قائلًا: «ماذا سنفعل الآ...».

توقف وانحنى إلى أسفل للنظر إلى وجه الساحر. كان بيليت مبتسمًا، لكنْ بوسع أي شخص تخمين أين تكمن النكتة.

أعاد سميث الطفل إلى أذرع القابلة الهلعة، ثم بكل احترام ممكن، فك أصابع بيليت الشاحبة والرفيعة الممسكة بالعصا.

كان للعصا ملمس دهني غريب يشبه الكهرباء الساكنة، والخشب نفسه يكاد يكون أسودَ وكانت المنحوتات أنصع قليلًا وتؤذي الأعين إذا ما حاول المرء التدقيق في ما يفترض أن تكونه تلك المنحوتات.

قالت القابلة: «أمسرور بنفسك أنت؟».

- ماذا، نعم، في حقيقة الأمر نعم، لماذا؟

أزاحت ثنية البطانية، نظر سميث إلى أسفل وابتلع ريقه.

- ثم همس: «لا، لقد قال...».

قالت جراني باستهزاء: «ومن أين له أن يعرف ذلك؟».

- لكنه قال إنه سيكون ابنًا.

- لا يبدو لي ابنًا يا فتى.

خار سيميث على كرسيه واضعًا رأسه بين يديه.

تنهد قائلًا: «ماذا فعلتُ؟».

telegram @
yasmeenbook

قالت القابلة: «لقد منحتَ العالمَ أول ساحر أنثى، هوزا اتسي وتسي دن؟».

- ماذا؟

- كنت أحدث الطفلة.

خرختِ القطة البيضاء وحدبتْ ظهرها كأنها تفرك نفسها بقدمي صديق قديم، وهو ما كان غريبًا حيث لم يكن ثمة أحد هناك.

*

قال صوت بنبرة لا يمكن لأي بشر سماعها: «كنت أحمقَ، لقد افترضتُ أن السحر يعرف ما يفعله».

- ربما يعرف فعلًا.

- لو كان بإمكاني فعل أي شيء.

قال صوت عميق ثقيل يشبه صوت إغلاق القبو: «لا مجال للتراجع، لا مجال للتراجع».

شبح العدم الذي فكر فيه درام بيليت بعضَ الوقت.

- لكنها ستواجه الكثير من المشكلات.

- هذه ماهية الحياة، هذا ما قيل لي لم أكن أعلم طبعًا.

- ماذا عن تناسخ الأرواح؟

تردد الموت ثم قال: «لن تحبه، خذها مني».

- سمعتُ أن الناس يفعلونه طَوال الوقت.

- لا بدَّ أن تكون مُدرَّبًا على ذلك، لا بدَّ أن تبدأ صغيرًا وتجتهد، ليست عندك أدنى فكرة عن فظاعة أن تكون نملة.

- أهذا أمر سيئ؟

- لن تصدق مدى سوئه، وبعاقبة أخلاقية كعاقبتك فالنملة حلم بعيد المنال.

كانت الطفلة قد أعيدتْ إلى أمها وجلس الحداد يشاهد المطر بخيبة أمل.

فرك درام بيليت بأصابعه خلف أذن القطة وهو يفكر في حياته، لقد كانت حياة طويلة وتلك إحدى مزايا أن يكون المرء ساحرًا، وقد فعل الكثير من الأمور التي لا يشعر بالرضا حيالها دائمًا، لقد حان الوقت لأن...

قال الموت موبخًا: «أنا لا أملك اليوم بطوله، كما تعلم».

نظر الساحر إلى القطة بالأسفل وأدرك للمرة الأولى كم بدتْ غريبة الآن.

لا يقدِّر الأحياء مدى التعقيد الذي يبدو عليه العالم عندما يموت المرء، فبينما يحرر الموت العقل من قيد الأبعاد الثلاثية[1] فإنه يقطع علاقته بالزمن، وهو بعد آخر كذلك. لذا ففي حين كانت القطة التي تتمسح بقدميه غير المرئيتين هي نفسها تلك التي رآها قبل بضع دقائق دون شك، فقد كان من الواضح تمامًا أنها قطة صغيرة وسمينة وباتت عجوزًا نصف عمياء، ومرت بكل مرحلة بين المرحلتين. حدث كل ذلك دفعة واحدة، منذ كانت صغيرة كأنها جزرة بيضاء على شكل قطة، وهذا وصف يجب أن يكون كافيًا حتى يخترع الناس صفات مناسبة رباعية الأبعاد.

نقر الموت بيده العظمية كتفَ بيليت برفق وقال: «تعالَ معي يا بني».

- ألا يوجد شيء يمكنني فعله؟

- الحياة للأحياء. وأنت قد أعطيتَها عصاك على أي حال.

- نعم، هذا ما كان.

كان اسم القابلة جراني ويذرواكس، وهي مشعوذة تحظى بقبول تام في رامتوبس، ولم يكن لأحد التلفظ بأي لفظ سيئ عن المشعوذات، وذلك إن أراد الاستيقاظ صباحًا بالشكل نفسه الذي كان عليه عند الخلود للنوم على أقل تقدير.

---

(1) البعد الجسدي والبعد النفسي والبعد الروحي. (المترجمة)

كان سميث ما زال يحدق إلى المطر بكآبة، عندما نزلت جراني الدرج وربَّتت كتفه بيد تملؤها البثور.

نظر إليها لأعلى، وقال بنبرة لا تخلو من التوسل: «ماذا عليَّ أن أفعل يا جراني؟».

- ماذا فعلتَ بالساحر؟

- لقد وضعتُه في مخزن الوقود، أهذا صحيح؟

ردتْ سريعًا: «سيجدي ذلك نفعًا الآن، وعليك حرق العصا كذلك».

التفتَ كلاهما للتحديق إلى العصا الغليظة التي أسندها سميث في أحلك ركن في دكان الحدادة، وقد بدا كأنها تبادلهم النظر.

همس سميث: «ولكنها سحرية».

- حسنًا؟

- هل ستحترق؟

- لم أعرف قطُّ أن الخشب لا يحترق.

- لا يبدو ذلك فعلًا صائبًا.

ترنحتْ جراني ويذرواكس وهي تغلق الأبواب الكبيرة والتفتتْ إليه بغضب، وقالت: «الآن، اسمعني يا جوردو سميث، السحرة النساء لسن أمرًا صائبًا كذلك! إنه نوع السحر الخاطئ بالنسبة إلى النساء، إنه سحر السحرة الرجال، سحر مليء بالكتب والنجوم والقياس. لن تستوعبه ابنتك أبدًا، من سمع بساحر أنثى؟

قال سميث بتشكك: «هناك مشعوذات وعرافات كذلك، لقد سمعت بهم».

فقدت جراني ويزرواكس أعصابها قائلة: «سحر الساحرات أمر مختلف كليًّا».

وأضافت: «إنه سحر يخرج من الأرض، لا يهبط من السماء، ولم يستطع الرجال قطُّ كشف سره، وكذا الأمر بالنسبة إلى العرافات، ليس بالإمكان أفضل مما كان. خذها مني، احرقِ العصا وادفنِ الجثة ولا تدعْ ذلك يحدث أبدًا».

أومأ سميث برأسه على مضض، وقطع الساحة بعرض دكان الحدادة، ونفخ الكير حتى تطاير الشرر وعاد ليأخذ العصا.

أبت التحرك.

- إنها لا تريد التحرك!

تعرَّق جبينه وهو يجرُّ العصا التي ظلت بلا حَراك رافضة التعاون معه.

قالت جراني وقد تجاوزته: «دعني أجرب».

- كانت هناك طقطقة ورائحة صفيح محترق.

ركض سميث في الدكان متذمرًا قليلًا إلى حيث انقلبتْ جراني رأسًا على عقب على الجدار المواجه.

- هل أنتِ بخير؟

فتحت عينين غاضبتين مشعتين كالألماس وقالت: «فهمتُ، هكذا تجري الأمور إذن، أليس كذلك؟».

قال سميث ذاهلًا تمامًا: «ما الذي يجري؟».

- ساعدني على النهوض أيها الأحمق، وائتِ لي بساطور.

كانت نبرة صوتها تشي بأن طاعتها فكرة سديدة، نقَّب سميث باستماتة في الخردة التي تقع في آخر الدكان حتى وجد فأسًا قديمة مزدوجة الرأس.

- حسنًا، والآن اخلع مريلتك.

قال سميث الذي بدأ يفقد سيطرته على الأحداث: «لماذا؟ ما الذي تنوين فعله؟».

تنهدت جراني باستياء: «إنها من الجلد أيها الغبي، سألفها حول المقبض مرتين، لن توقع بي العصا مرتين بالطريقة نفسها».

عانى سميث للخروج من المريلة الجلدية الثقيلة وسلمها إياها بحذر شديد، لفَّتها حول المقبض ومرَّرت تمريرة أو اثنتين في الهواء، ثم بإصبع تشبه أصابع العنكبوت في ظل نور الفرن المتوهج قليلًا، طاردت العصا خلال الغرفة وبهمهمة الجهد والانتصار، أسقطتِ النصل الثقيل على منتصف العصا تمامًا.

كان هناك صوت نقرة، وكان هناك ضوضاء مثل ضوضاء طائر الحجل.

كان هناك صوت ارتطام.

كان هناك صمت.

وصل سميث ببطء شديد دون أن يحرك رأسه، ولمس نصل الفأس، لم يعد النصل على الفأس بعدها، لقد دفن نفسه من رأسه في الباب، وأخذ قطعة صغيرة من أذنه.

وقفتْ جراني مشوشةً قليلًا من ضرب هدف ثابت تمامًا، وحدقتْ إلى كعب الخشب التي تمسكه يديها.

تأتأت جراني: «ففففففييييييي هههههههذذذذذذذهههههههه اااااااللللللحححححاااااالة»

قال سميث بحزم وهو يفرك أذنيه: «لا، أيًّا ما كان ما ستقترحينه فلا، اتركيها. سأكوم بعض العصا حولها. لن يلاحظها أحد، اتركيها إنها مجرد عصا».

- مجرد عصا؟

- ألديكِ أي أفكار أفضل؟ أفكار لا تفصل رأسي عن جسدي؟

حملقتْ إلى العصا التي بدت غير ملحوظة وسلمتْ بقول: «ليس الآن، لكن أمهلني بعض الوقت...».

- حسنًا، حسنًا على أي حال فعندي أمور لأفعلها وسحرة لأدفنهم، أنتِ تعرفين الوضع.

أخذ سميث مجرفًا من جانب الباب الخلفي وتردد:

- جراني.

- ماذا؟

- أتعرفين كيف يحب السحرة أن يُدفَنوا؟

- نعم.

- حسنًا كيف؟

وقفتْ جراني أسفل الدرج وقالت: «يُدفنون مكرهين».

في ما بعد، حل الليل رويدًا بتسرب آخر شعاع ضوء كسلان في العالم من الوادي، وأضاء قمر باهت قد غسلته الأمطار في ليلة مرصعة بالنجوم. وفي بستان مظلم خلف دكان الحدادة، انبعث من حين إلى آخر صوت خشخشة لمجراف أو سباب مكتوم.

في الطابق العلوي، لم تكن أول ساحر أنثى في العالم تحلم بأي شيء في مهدها.

استلقتِ القطة البيضاء بين النوم واليقظة على عتبتها الخاصة بالقرب من الفرن. كان الصوت الوحيد في ظلام دكان الحدادة الدافئ هو صوت طقطقة الفحم حيث استقرَّ تحت الرماد.

كانت العصا تقف في الزاوية حيث أرادت أن تكون، متدثرةً بظلال أدكن قليلًا من الظلال العادية.

الوقت يمر، وهذه وظيفته بالأساس

- كانت هناك خشخشة خافتة وحفيف للهواء، وبعد هنيهة جلستِ القطة وراقبتْ باهتمام.

أقبل الفجر، لطالما كان الفجر هنا في رامتوبس مذهلًا خاصة عندما تنقي عاصفةٌ الجوَّ، يطلُّ الوادي الذي تشغله باد آس على مشهد بانورامي للجبال والتلال الصغيرة، باللونين الأرجواني والبرتقالي في ضوء الصباح الباكر الذي يفترش فوقهم برقة (لأن الضوء ينتقل بسرعة متلكئة في الحقل السحري الشاسع للقرص) فيما كانت السهول البعيدة الرائعة لا تزال بركة من الظلال. حتى إن المناطق البعيدة من البحر قد أومضتْ بريقًا بعيدًا من حين إلى آخر.

في الواقع، يمكنكَ من هنا رؤية حافة العالم مباشرة.

وهذا ليس خيالًا شعريًّا بل حقيقة جلية، لما كان العالم مسطحًا تمامًا دون ريب، وكان معروفًا كذلك أنه محمول في الفضاء على ظهر أربعة أفيال تقف بدورها على صَدَفة آتوين العظيم؛ الغيلم السماوي العظيم.

وبالعودة إلى باد آس، فقد استيقظتِ القرية. دخل سميث لتوه إلى ورشة الحدادة ليجدها أكثر ترتيبًا مما كانت عليه خلال المائة عام الماضية، إذ عادت جميع الأدوات إلى أماكنها الصحيحة، وكُنِسَتِ الأرض وأُشعِلتْ في الفرن جذوة نار جديدة. جلس على سندان الحداد الذي تحرك إلى يمين الغرفة، وأخذ يشاهد العصا ويحاول التفكير.

لم تحدثِ الكثير من الأمور في السنوات السبع التالية، عدا أن إحدى أشجار التفاح في بستان سميث قد استطالتْ عن نظيراتها بشكل

ملحوظ، وكثيرًا ما تسلقتْها فتاة صغيرة ذات شعر بني وفلجة بين أسنانها الأمامية وعدة سمات واعدة بأنها لو لم تصبح جميلة فستكون مثيرة للاهتمام بشكل جذاب على أقل تقدير.

سُمِّيَتْ إسكارينا لا لشيء إلا أن والدتها قد أحبتْ وقع الاسم، ورغم أن جراني ويذرواكس قد أبقت أعينها مفتوحة عليها، فقد أخفقتْ تمامًا في ملاحظة أي علامات للسحر. فصحيح أن الفتاة كانت تمضي وقتًا أطول في تسلق الأشجار والركض والصراخ أكثر مما تفعله الفتيات الصغيرات في العادة، لكنَّ فتاة عندها أربع إخوة ذكور يكبرونها ما زالوا في المنزل يمكن أن تُعذَر في الكثير من الأمور. في الواقع، بدأت المشعوذة بالاسترخاء والتفكير في أن السحر لم يحكمْ قبضته بعد.

لكنْ للسحر عادة التواري عن الأنظار مثل الإبرة في كومة القش.

حلَّ الشتاء مجددًا، وقد كان شتاءً سيئًا؛ حيث تعلقتِ الغيوم حول رامتوبس كخرفان سمينة، تملأ الأخاديد بالثلج وتُحوِّل الغابات إلى كهوف كئيبة صامتة. غُلِّقتِ الممرات المرتفعة ولن تعود القوافل من جديد حتى الربيع. أصبحتْ باد آس جزيرة صغير من الدفء والضوء.

على الإفطار قالت والدة إسك: «أنا قلقة على جراني ويذرواكس؛ لم تظهر بالجوار مؤخرًا».

نظر إليها سميث من فوق ملعقته وقال: «أنا لا أشكو، لكنها...».

قالت إسك: «تزجُّ أنفها في ما لا يعنيها».

حدق إليها والداها.

قالت والدتها بعبوس: «ما من داعٍ إلى التفوه بمثل هذا الكلام».

- لكنَّ أبي قال إنها دائمًا ما تدس...

- إسكارينا!

- لكنه قال...

- أنا قلت...

- نعم، لكنه قال إن لديها...

انحنى سميث إلى أسفل ولطمها، لم تكن اللطمة بالغة القوة وقد ندم على الفور. تلقى الأولاد اللطمات من يده المسطحة وأحيانًا ذاقوا طول حزامه كلما استحقوا ذلك. لم تكن مشكلته مع ابنته تكمن في سوء السلوك العادي، بل الطريقة المثيرة للغيظ التي تتبعها في متابعة خيط الجدل بلا هوادة بعد مدة طويلة من الوقت الذي كان عليها إنهاء الجدل فيه. وذلك ما كان يربكه دائمًا.

بكتْ، وقف سميث غاضبًا وخجلًا من نفسه وغادر إلى ورشة الحدادة.

كان هناك صوت فرقعة عالية وجلجلة.

وجدوه على الأرض باردَ الجسد، وبعدئذٍ أكد أنه خبط رأسه بمدخل الباب، وهو ما كان غريبًا، لأنه لم يكن طويل القامة ولطالما كان هناك متسع يفصل بين رأسه والمدخل في ما مضى، لكنه كان واثقًا أن ما حدث ليست له أدنى صلة بضبابية الحركة التي صدرت من أكثر ركن مظلم بورشته.

وضعتِ الأحداث ختمَها على اليوم، فأصبح يومًا شؤمًا؛ يتعثر فيه الناس ببعضهم ويعلوهم النكد. إذ أسقطت والدة إسك قِدْرًا فخاريةً من أواني جدتها واتضح أن صندوقًا كاملًا من التفاح قد تعفن في مخزن الغلال. وفي ورشة الحدادة، تجهم الفرن وأبى أن يوقد. وانزلق جيمس الأخ الأكبر على جليد مكدس في الطريق وأصاب ذراعه. ثم إن القطة البيضاء أو أحد نسلها ربما، إذ عاشت القطط حياة خاصة معقدة ومستقلة في غرفة القش بجوار دكان الحدادة، قد ذهبت إلى المدخنة

في حجرة الغسيل وتسلقتها ورفضت النزول. وحتى السماء ضغطتْ كمرتبة قديمة وشعر الهواء بالانخناق رغم الثلج.

سببتِ الأعصاب المضطربة والضجر والمزاج السيئ دويًّا في الهواء يشبه جو العواصف الرعدية.

صاحتْ والدة إسك: «حسنًا، طفح الكيل! يكفي هذا! سيرن لتذهب أنت وجولتا وإسك للاطمئنان على جراني و... أين إسك؟».

نظر الصبيان الصغيران إلى أعلى حيث كانا يتشاجران بفتور تحت المنضدة.

قال جولتا: «لقد ذهبتْ إلى البستان، ثانية».

- اذهب وأحضرها إذن، انطلق.

- لكنَّ الجو بارد.

- ستتساقط الثلوج من جديد!

- المسافة ليست سوى ميل واحد، والطريق خالٍ، ثم من كان متحمسًا جدًّا للخروج عندما تساقط الثلج لأول مرة؟ اذهب ولا تعُد حتى تصبح في مزاج أفضل.

وجدوا إسك جالسةً فوق فرع كبير من شجرة التفاح، لم يكنْ الولدان يحبان الشجرة كثيرًا لسبب واحد، فقد كانت مغطاة بالدبق الذي يبدو أخضرَ حتى بقلب الشتاء، وكانت ثمرته صغيرة تتحول من ثمرة تسبب حموضةً والتواءً بالمعدة إلى تعفن مليء بالدبابير بين عشية وضحاها. ورغم أن تسلق الشجرة يبدو سهلًا بما يكفي، فهي معتادة كسر الأغصان وزحزحة الأقدام في لحظات غير مناسبة. أقسم سيرن مرة إن غصنًا قد التوى ليسقطه ليس إلا. لكنها تسامحت مع إسك التي اعتادت الذَّهَاب والجلوس عليها إن انزعجت أو سئمت أو أرادت أن تخلو بنفسها فحسب،

وشعر الولدان أن حق كل أخ في تعذيب أخته بلطف ينتهي عند جذع هذه الشجرة، ومن ثَمَّ فقد ألقيا عليها كرة ثلجية. لكنها أخفقتْ.

- إننا ذاهبان لرؤية العجوز ويذرواكس.

- لكنْ ليس عليكِ أن تأتي.

- لأنكِ ستبطئين حركتنا وربما تبكين على أي حال.

نظرت إسك إلى أسفل باحتقار، لم تكن تبكي كثيرًا ولم يبدُ البكاء مجديًا أصلًا.

قالت: «إذا كنتما لا تريدان أن آتي، فسآتي».

مثل هذه الأشياء تبدو منطقية بين الأشقاء.

قال جولتا بسرعة: «أوه، نريدك أن تأتي معنا».

ردت إسك: «مسرورة جدًّا بسماع ذلك».

وهبطتْ متجهةً إلى الجليد المكدس.

كانت معهم سلة بها نقانق مدخَّنة وبيض محفوظ، ولأن والدتهم حكيمة وكريمة كذلك، فقد كان معهم جرة كبيرة بها خوخ مخلَّل لم يحبه أحد من أفراد الأسرة كثيرًا، ومع ذلك ما زالت تصنعه سنويًّا عندما ينضج الخوخ البري الصغير على أي حال.

لقد تعلَّم أهل باد آس التعايش مع ثلوج الشتاء الطويل، وأحاطوا الطرق خارج القرية بألواح لتقليل الانجراف، والأهم من ذلك حماية المسافرين من أن يضلوا الطريق. إذا كانوا سكانًا محليين، فلا يهم كثيرًا إن ضلوا الطريق، لأن عبقريًّا مجهولًا في مجلس القرية من عدة أجيال ماضية قد توصل إلى فكرة نحت علامات على كل شجرة من بين عشر شجرات في الغابة حول القرية، حتى مسافة تصل إلى ميلين تقريبًا. لقد استغرق الأمر عقودًا، وكان تنقيح العلامات عملَ مَن لا عمل له، لكن

في الأشتية التي يمكن فيها لعاصفة ثلجية ثقيلة أن تتيه رجلًا على بعد ياردات من بيته، أُنقِذت العديد من الأرواح بسبب ذلك النوع من الشقوق التي كوَّنها طرق الأصابع على الثلج المتكوِّم.

كان الثلج يتساقط ثانية عندما غادروا الطريق وبدأوا المسار الذي كان يحيط فيه منزل الساحرة صيفًا غاباتُ توت وفيرةٌ تنمو سحريًّا.

قال سيرن: «لا وجود لآثار أقدام».

قال جولتا: «إلا للثعالب، يقولون إنها تستطيع تحويل نفسها إلى ثعلب أو أي شيء، طائر حتى. أي شيء، فهذه هي الطريقة التي تعرف بها ما يحدث دائمًا».

نظروا حولهم باحتراس، وكان هناك غراب رثٌّ يراقبهم فعلًا من على جذع شجرة بعيد.

قال جولتا الذي لم يكن ليترك التحدث في موضوع واعد: «يقال إن هناك أسرة كاملة على طريق كراك بيك يستطيعون تحويل أنفسهم إلى ذئاب، إذ أطلق أحدهم سهمًا على ذئب في إحدي الليالي وفي اليوم التالي كانت خالته تعرج إثر جرح سهم لساقها و...».

قالت إسك برويَّة: «لا أعتقد أن بوسع الناس تحويل أنفسهم إلى حيوانات».

- أوه نعم، يا حضرة الذكية.
- جراني كبيرة جدًّا، فإذا حولتْ نفسها إلى ثعلب فما الذي سيحدث لكل الأشلاء التي لا تتناسب مع الثعلب؟

قال سيرن: «ستبعدهم بالسحر ببساطة».

قالت إسك: «لا أعتقد أن السحر يعمل بتلك الطريقة، لا يمكنك جعل الأمور تحدث هكذا فحسب، بل هناك نوع من الـ... مثل الأرجوحة إذا دفعتَ أحد الطرفين إلى أسفل فسيرتفع الآخر إلى أعلى».

نطقتْ بذلك وقد تهدج صوتها.

رمقوها بنظرة.

قال جولتا: «لا أستطيع تصور جراني على أرجوحة».

قهقه سيرن.

قالت إسك بلهجة متشككة: «لا، أقصد أن في كل مرة يحدث شيء ما، لا بدَّ لشيء آخر أن يحدث كذلك، أعتقد ذلك».

ثم وهي تشقُّ طريقها حول تكدس ثلجي أعمق من المعتاد أكملت: «فقط في... الاتجاه المعاكس».

قال جولتا: «هذا سخيف، لأن... اسمعي أتذكرين عندما جاء ذلك الكرنفال في الصيف الماضي وكان هناك ساحر معهم قد جعل كل الطيور والأشياء تظهر من اللاشيء؟ أعني أن ذلك حدث فحسب، لم تكن هناك أي أرجوحات».

قال سيرن: «كانت هناك أرجوحة، وذلك الشيء الذي يتعيَّن عليك أن تقذف أشياءَ على أشياءَ لتفوز بأشياءَ».

- ولم تصبْ أي شيء يا سيرن.
- ولا أنتَ أيضًا، لقد قلتَ إن الأشياء عالقة بأشياءَ ومن ثمَّ لم تتمكن من ضربهم. وقلت...

سرحتْ محادثتهم بعيدًا مثل جَروَين صغيرين، استمعتْ إسك لمحادثتهما بنصف أذن، أعرف ما أقصده، أخبرتْ نفسها بذلك. السحر سهل ما عليك سوى العثور على مكان يكون كل شيء فيه متوازنًا

ومحفزًا. بوسع أي شخص فعل ذلك، ما من شيء سحري في ذلك، كل الكلمات المضحكة والتلويح بالأيدي ما هو إلا... إنها فقط لـ...

توقفت متفاجئة من نفسها، إنها تعرف ما تقصده، الفكرة موجودة هناك في مقدمة رأسها، لكنها لا تعرف كيف تصيغها بالكلمات حتى لنفسها.

لقد كان شعورًا مروِّعًا أن تجد أشياءَ في رأسك ولا تعرف كيف تنسقها. إنه...

- هيا، سنظل طوال اليوم.

هزت رأسها وأسرعت خلف أخويها.

كان كوخ المشعوذة يتكون من العديد من الملحقات والدهاليز، ومن الصعب رؤية شكل المبنى الحقيقي أو أكان هناك شكل للمبنى بالأساس. في الصيف، تحيطه طبقات كثيفة مما أطلقت عليه جراني مجازًا اسم «الأعشاب»، وهي نباتات غريبة مكسوة بالشعر أو مقرفصة أو مجدولة مع زهور غريبة الأطوار أو فواكه مفعمة بالحيوية أو قرون منتفخة لا تسر الناظرين، وحدها جراني من تعرف استخداماتهم جميعًا، وأي حمامة جائعة بما يكفي للانقضاض على الأعشاب عمومًا، كانت تندمج في الضحك من نفسها والارتطام بالأشياء (وأحيانًا لم تظهر قطُّ).

الآن، كان كل شيء داكنًا تحت الثلج، رفرفتْ قطعة نسيج بائسة مخروطية الشكل موضوعة على عمود لتشير إلى اتجاه الرياح وقوتها، لم تتمسكْ جراني بالطيران، لكنَّ بعض صديقاتها ما زلن يستخدمن عِصي المقشات الطائرة.

قال سيرن: «يبدو بيتًا مهجورًا».

قال جولتا: «لا دخان».

فكرتْ إسك في أن النوافذ تشبه الأعين، لكنها احتفظتْ بذلك لنفسها.

قالت: «إنه منزل جراني ليس إلا، ما من شيء مخالف للمألوف».

الكوخ مشعٌّ بالخواء، يمكنهم الشعور بذلك. والنوافذ تشبه الأعينَ؛ سوداء تُهدد الثلج. لم يكنْ أي من سكان رامتوبس يدع ناره تنطفئ شتاءً؛ من باب التباهي.

أرادتْ إسك أن تقول: «لنعدْ إلى المنزل»، لكنها تعرف أنها لو قالت ذلك، فسيختبئ الأولاد بعيدًا. فقالت بدلًا من ذلك: «قالت أمي إن هناك مفتاحًا معلقًا على مسمار في المرحاض». وكان لذلك وقع أسوأ، فحتى المرحاض العادي المهجور له وقع رعب طفيف كأن يحتوي على أعشاش دبابير أو عناكب كبيرة وحفيف أشياء مبهمة في السقف، وفي شتاء بالغ السوء كهذا، تسبَّب سبات دب صغير بالإمساك العسير لكل أفراد الأسرة، حتى أقنعوه بالنوم بالأسفل في الحظيرة. فمن ثَمَّ يمكن لمرحاض المشعوذة أن يحتوي على أي شيء.

وأضافت: «سأذهب وأنظر، أليس عليَّ ذلك؟».

قال جولتا بخفة وقد نجح بالكاد في إخفاء ارتياحه: «إذا أردتِ».

في الواقع، فعندما تمكنت من فتح الباب في مواجهة الثلج المتراكم، كان المرحاض نظيفًا ومرتبًا ولا يحتوي على شيء أكثر شؤمًا من روزنامة قديمة، أو بالأحرى نصف روزنامة قديمة معلقة بعناية على مسمار. وقد كان لدى جراني اعتراض فلسفي على القراءة، لكنها ستكون آخر من يقول إن الكتب، وخاصة ذات الصفحات الرفيعة الأنيقة، ليس لها أي استخدام.

كانت هناك شرنقة وبقايا شمعة مشتركة بين المفتاح وحافة الباب. أخذتها إسك بحذر بالغ محاولة ألا تزعج الشرنقة وعادت إلى الأولاد.

لم يكنْ للأبواب الأمامية استخدام في باد آس، فلا تستخدم هذه الأبواب إلا لدخول العرائس أو خروج الأموات، ولطالما تفادت جراني أن تصبح هذا أو ذاك. كانت الثلوج مكدسةً في الجانب الخلفي أمام الباب الأمامي ولم يكسرْ أحد الجليد المحيط بصهريج الماء.

بدأ الضوء يتدفق من السماء بحلول الوقت الذي حفروا فيه داخل الباب وأقنعوا المفتاح بالاستدارة.

في الداخل، كان المطبخ الكبير مظلمًا وباردًا وليس فيه رائحة سوى رائحة الثلج. لقد كان مظلمًا دائمًا لكنهم اعتادوا رؤية نار واسعة في المستوقد الكبير، ورائحة الدخان الكثيف المنبعث من أيٍّ ما كان يغلي في ذلك الوقت، وهو ما قد يصيبك بالصداع أو يجعلك ترى أشياءَ.

لقد تجوَّلوا في كل أرجاء المكان وهم ينادون بتردد، حتى قررت إسك أنه لا يمكنهم إرجاء صعود الدور العلوي أكثر من ذلك، أصدر غلق مزلاج باب الدرج الضيق صوتًا مجلجلًا أعلى بكثير مما ينبغي.

كانت جراني على السرير وذراعاها مطويين فوق صدرها بإحكام، وقد فتحت النافذة الصغيرة على مصراعيها، وقد تساقط الثلج الناعم على الأرض وفوق السرير.

حدقت إسك إلى اللحاف المرقَّع الموضوع تحت العجوز، لأن ثمة أوقات يمكن فيها للتفاصيل الصغيرة التمدُّد حتى تملأ العالم بأسره. بالكاد سمعتْ سيرن وهو يهمُّ بالبكاء، ومن العجيب أنها تذكرت أباها يصنع اللحاف منذ شتائين ماضيين عندما ساء الثلج، ولم يكن هناك الكثير مما يشغله في دكان الحدادة، وكيف أنه استخدم كل أنواع الخرق التي وطأت باد آس من كل بقاع العالم، كالحرير والجلد المُشكَّل والقطن المائي وصوف الثارجا. وطبعًا لكونه لا يجيد الحياكة كذلك، كانت النتيجة شيئًا متكتلًا غريبًا إلى حد ما، أشبه بسلحفاة مسطَّحة مما هو

بلحاف. وقد قررت والدتها بسخاء منحه إلى جراني في آخر احتفال بليلة ترقُّب الخنازير[1]. و...

سأل جولتا كأن إسك خبيرة في هذه الشؤون: «هل ماتت؟».

حدقت إسك إلى وجه جراني ويذرواكس، إذ بدا وجه العجوز ممتقعًا ورماديًّا. أهكذا يكون شكل الموتى؟

استجمع جولتا نفسه وقال: «ألا يجدر أن يتحرك صدرها صعودًا وهبوطًا؟».

وقال بشكل قاطع: «لا بدَّ أن نذهب ونحضر شخصًا ما، وعلينا الذَّهَاب الآن لأن الظلام سيحل بعد دقيقة، لكنَّ سيرن سيبقى هنا».

نظر إليه شقيقه في رعب وقال: «لماذا؟».

قال جولتا: «على أحدهم البقاء مع المتوفاة، تذكر يوم توفي العم ديرجات الشيخ وكان على أبي الذَّهَاب والجلوس مع كل تلك الشموع والأشياء طول الليل؟ وإلا فسيأتي شيء شرير ويأخذ روحك إلى... إلى مكان ما».

أنهى كلامه بتلعثم ثم أكمل: «ثم يعود الناس ويطاردونك».

فتح سيرن فمه للبدء في البكاء من جديد، قالت إسك بسرعة: «أنا سأبقى، لا أمانع ذلك، إنها جراني ليس إلا».

نظر إليها جولتا بارتياح وقال: «أشعلي بعضَ الشموع أو شيئًا من هذا القبيل، أعتقد أن هذا ما يفترض بي عمله و...».

كان هناك صوت خدش قادم من النافذة، حيث هبط غراب ووقف يرمش بعين الريبة تجاههم، صرخ جولتا ورمى قبعته عليه، طار وهو

(1) احتفال ببداية العام الجديد ويحدث في يوم 32 ديسمبر، إذ ينتظر الأطفال قدوم القديس على عربة تجرها الخنازير لتحقيق الأماني ومنح الأطفال الهدايا . (المترجمة)

ينعق كأنه يوبخهم وأغلق جولتا النافذة، وقال: «لقد رأيته هنا من قبل، أعتقد أن جراني تطعمه، أقصد كانت تطعمه»، صحَّح كلامه لنفسه وأكمل: «على أي حال سنعود مع أناس، لن نأخذ وقتًا. تعال يا سيـ...».

اندفعا يهبطان الدرجَ المظلمَ، رأتهما إسك وهما يخرجان من المنزل وأغلقت الباب خلفهما.

كانت الشميسة كرة حمراء فوق الجبال، وقد بزغ فعلًا عدد قليل من النجوم المبكرة.

تجولت في أرجاء المطبخ المظلم حتى وجدت بقايا شمعة منصهرة وقداحة، وبعد جهد جهيد تمكنتْ من إشعال الشمعة ووضعها على منضدة، رغم أنها لم تنِر الغرفة حقًّا، فقد آنستِ الظلام بالظلال. ثم وجدتْ كرسي جراني الهزاز بجوار المدفأة الباردة. ومكثت تنتظر.

مرَّ الوقت ولم يحدث شيء.

ثم كان هناك نقر على النافذة، أخذتْ إسك بقايا الشمعة المنصهرة ودققت النظر خلال الزجاج المستدير الثقيل.

بادلتْها عين خرزية صفراء النظر.

تسمرت بلا حَراك وتنفست بصعوبة، بدأ النقر مجددًا ثم توقف. ساد صمت قصير ثم اهتزَّ مزلاج الباب.

لقد قال الأولاد إن شيئًا شريرًا سيأتي.

تحسستْ طريقها عائدةً خلال الغرفة حتى كادت تتعثر بالكرسي الهزاز، سحبته ووتدته بأقصى ما تستطيع أمام الباب. أصدر المزلاج الآخرُ صريرًا ثم سكت.

انتظرتْ إسك وأصغتْ حتى صمَّ الصمت أذنيها، ثم بدأ شيء في الاصطدام برفق لكنْ بوتيرة ثابتة بالنافذة الصغيرة في حجرة الغسيل،

وتوقف بعد هنيهة. وبعدها بلحظة، بدأ مجددًا في غرفة النوم التي فوقها. ضوضاء صادرة من خربشة خافتة كتلك التي تصدرها المخالب.

أحسَّتْ إسك أن الشجاعة مطلوبة في هذا الموضع، لكنْ في ليلة كتلك فستستمر الشجاعة ما دامت الشمعة ما زالت موقدة. تحسستْ طريق عودتها إلى المطبخ المظلم، وقد أغلقت عينيها بإحكام، حتى وصلت إلى الباب.

كان هناك دوي ارتطام من المدفأة، حيث سقطتْ كتلة كبيرة من السخام، وعندما سمعتْ صوت الخدوش المستميتة القادم من المستوقد، سحبتِ المزلاج ثم فتحتِ الباب وانطلقتْ إلى الخارج.

ضرب البرد القارس مثل سكين، كسا الصقيع الثلج بقشرة. لم تهتمَّ بوجهتها، لكنَّ الهدوء المرعب أعطاها عزمًا متقدًا للوصول إليها.

*

داخل الكوخ، هبط الغراب بشدة من المدفأة، محاطًا بالسخام ومتمتمًا لنفسه بانزعاج. قفز إلى الظلال، وبعد هنيهة سُمِعَ دوي مزلاج باب الدرج وصوت رفرفة على الدرج.

وصلتْ إسك إلى أعلى نقطة يمكنها الوصول إليها، وتحسستِ الأشجار بحثًا عن علامة، وقد كانت محظوظة هذه المرة، لكنَّ نقش النقاط والأخاديد أخبرها أنها على بعد ميل من القرية، وأنها كانت تجري في الاتجاه الخاطئ.

ثَمة قمر يشبه قطعة الجبن السميكة ورشَّة من النجوم الصغيرة المشرقة معدومة الرحمة. وكانت الغابة المحيطة بها ظلالًا سوداءَ وثلجًا شاحبًا، وكانت إسك تدرك أن الظلال ليست كلها ثابتة.

من المعلوم للجميع وجود ذئاب في الجبال، حيث يتردد صدى عوائها في بعض الليالي من أعلى قمم الجبال، لكنهم نادرًا ما اقتربوا من القرية، فقد كانت الذئاب المعاصرة سليلة أسلاف نجوْا بفضل معرفتهم أن للحوم البشرية مذاقًا مرًّا.

لكنَّ الجو كان عصيبًا، وكانت هذه المجموعة جائعةً إلى الحد الذي أنساها كل شيء عن الانتخاب الطبيعي.

تذكرتْ إسك كل ما قيل لكل الأطفال، تسلقْ شجرة وأشعِل ضوءًا. وإذا أخفق كل شيء آخر، اعثرْ على عصا واضربهم على الأقل، ولا تحاول تجاوزهم أبدًا.

كانتِ الشجرة التي خلفها شجرةَ خشب زان من النوع الناعم الذي لا يمكن تسلقه، شاهدتْ إسك ظلًّا طويلًا يفصل نفسه عن بركة من الظلام ويتحرك نحوها قليلًا. جثتْ إسك على ركبيتها متعبةً وخائفةً وغير قادرة على التفكير ونبشت في الثلج البارد برودة حارقة بحثًا عن عصا.

فتحتْ جراني ويذرواكس عينيها، وحدقتْ إلى السقف الذي تشقَّق وانتفخ كخيمة.

ركزتْ على تذكر أن لديها ذراعين لا جناحين وأنها ليست بحاجة إلى الوثب. من الحكمة دائمًا الاستلقاء في الفراش قليلًا بعد استعارة الجسد، للسماح لعقل المرء باعتياد جسده، لكنها تعرف أنها لا تملك وقتًا لذلك.

همهمت قائلة: «سحقًا للطفلة».

وحاولتِ الطيران إلى حاجز الفراش. الغراب الذي مرَّ بكل هذا عشرات المرات من قبل والذي فكر، مثلما يمكن للطيور التفكير في أي شيء، وهو ما يستغرق مدة قصيرة للغاية، في أن غذاءً منتظمًا من قشور لحم الخنزير المقددة وفضلات المطبخ المختارة والبيات الدافئ

طيلة الليل يستحقون تحمله الإزعاج أحيانًا بسماحه لجراني بمشاركتها له في رأسه، وقد شاهدها باهتمام طفيف.

عثرتْ جراني على حذائها، وهبطتْ على الدَّرج وهي تقاوم بضراوة الرغبة في الانزلاق. كان الباب مفتوحًا على مصراعيه وقد كان هناك فعلًا ركام من الثلج الناعم على الأرض.

قالت: «اللعنة».

وتساءلت أكانت محاولة العثور على عقل إسك أمرًا يستحق العناء، غير أن عقول البشر لم تكن قطُّ باتقاد عقول الحيوانات وصفائها، وعلى أي حال فعقل الغابة نفسها الخارق سيجعل البحث المرتجل بمثل صعوبة الاستماع لصوت شلال في وجود عاصفة رعدية. وحتى دونما تنظر، فقد شعرت بمجموعة الذئاب، وهو شعور حاد ونَتِن يملأ الفم بطعم الدم.

كان بإمكانها تحديد آثار أقدام الصغيرة في قشرة الثلج، وقد كانت نصف تلك الآثار مملوءة بالثلج الطري. سبَّت جراني ويذرواكس وتمتمتْ، ثم لفت شالها حولها وانطلقتْ.

نهضت القطة البيضاء من على عتبتها بورشة الحدادة عندما سمعت أصواتًا قادمة من الركن الأحلك ظلامًا. كان سميث قد أغلق الباب خلفه بعناية عندما ذهب يرافقه الأولاد في حالة شبه هيسترية. وراقبتِ القطة باهتمام ظلًّا نحيلًا يلكز القفل ويختبر المفصلات.

كانت الأبواب من خشب البلوط، وقد أكسبتها الحرارة والزمن صلابة، لكنَّ ذلك لم يحلْ دون انفجارها على قارعة الطريق.

سمع سميث صوتًا في السماء وهو يسارع ويهرول في الطريق، وكذا سمعتْ جراني. لقد كان صوت أزيز دؤوب مثل صوت طيران الإوز، غلتِ الغيوم الثلجية وتشابكت في أثناء مرورها.

سمعته الذئاب كذلك وهي تدور حول قمم الأشجار بسرعة خفيضة وتدحرج إلى أسفل نحو الأرض الخاوية، لكنها قد سمعته بعد فوات الأوان.

لم يكن على جراني ويذرواكس اتباع آثار الأقدام بعد الآن، إذ وجهت نفسها نحو الومضات البعيدة الناتجة عن ضوء عجيب، ونفخ ودق غريبين وعواء الألم والرعب. اندفع ذئبان أمامها وقد اشرأبت أذناهما بتصميم شرس على إبعادها بمخالبهما بصرف النظر عما قد يقف في طريقهما.

كان هناك صوت فرقعة تكسر فروع الأشجار، أسقطتْ جراني شيئًا ثقيلًا وكبيرًا على شجرة التنوب فتهشم في الثلج متذمرًا، تجاوزها الذئب الآخر في مسار مستوٍ على ارتفاع الرأس تقريبًا وارتطم بجذع شجرة.

حل صمت.

شقَّت جراني طريقها بين الأغصان المغطاة بالثلوج.

استطاعت رؤية الثلج مستويًا في دائرة بيضاء، كان هناك القليل من الذئاب على أطرافها وقد بدوْا أمواتًا، أو بحكمة آثروا عدم الحركة.

وقفتِ العصا منتصبةً في الثلج، وشعرت جراني أنها تستدير لمواجهتها، وهي تمشي بحذر حذاءها.

وقد كان هناك كذلك كومة صغيرة في مركز الدائرة، متكومة حول نفسها بإحكام. ركعتْ جراني على ركبتيها ببعض الجهد، ومدتْ لها يدها برفق.

- تحركت العصا؛ حركةً أكثر قليلًا من ارتعاشة صغيرة، لكنَّ يد جراني توقفتْ قبل أن تمسَّ كتف إسك، حدقتْ جراني إلى المنحوتات الخشبية وتجرأتْ على التحرك ثانية.

تثاقل الهواء وبدتِ العصا كأنها ترجع إلى الوراء رغم أنها لا تتحرك. وفي الوقت ذاته بدا شيء غامض للغاية يتضح بجلاء للساحرة العجوز وهو أن بالنسبة إلى العصا لا يعد ما حدث هزيمة، بل مجرد اعتبار تكتيكي، وأنها لا تريد أن تحسب المشعوذة نفسها قد انتصرت بأي شكل، لأنها لم تنتصر.

ارتجفتْ إسك وربتتْ جراني على كتفها على نحو غامض.

- إنها أنا يا صغيرتي، لستُ سوى العجوز جراني.

لم تنفكِّ الحدبة.

عضتْ جراني شفتها، لم تكوِّن قناعةً تامةً عن الأطفال قطُّ، فبالتفكير فيهم، هذا إن فكرت فيهم أساسًا، تضعهم بمنزلة وسط بين البشر والحيوانات. لقد فهمتِ الرضَّع، فأنت تضع الحليب في جهة وتبقي الجهة الأخرى نظيفة قدر المستطاع. كما كان البالغون أسهل، لأنهم يطعمون وينظفون أنفسهم بأنفسهم. لكنْ في الوسط كان هناك عالم من الخبرة لم تستفسر عنه قطُّ. بقدر ما كانت تدرك أن على المرء محاولة منعهم من التقاط أي شيء قاتل، وتمني أن تكون كل الأمور على ما يرام.

في حقيقة الأمر، كانت جراني في حيرة من أمرها، لكنها عرفت بأن عليها فعلَ شيء.

خاطرت قائلة: «سئبة وحسة سريرة أخافتنا؟»[1]

ولأسباب خاطئة كليًّا، بدا أن ذلك قد نجح إذ قال صوت مكتوم صدر من أعوام الكومة الملتفة على نفسها: «أنا في الثامنة من عمري كما تعرفين».

---

(1) «ذئبة سيئة شريرة أخافتنا»، لكنها تتكلم كما يتكلم البعض مع الرضع.

قالت جراني وهي تشق طريقًا خلال تشابكات المحادثة بين بالغ وطفل: «البالغون من العمر ثمانية أعوام لا يتكورون على أنفسهم وسط الجليد».

لم تجبِ الكرة.

غامرتْ جراني قائلة: «ربما لديَّ بعض الحليب والبسكويت في المنزل».

لم يكنْ لكلامها أثر ملموس.

- إسكارينا سميث إن لم تتأدبي في الحال، فترقَّبي مني صفعة!

أظهرتْ إسك رأسها بحذر وقالت: «لا داعي إلى أن يكون الأمر هكذا».

عندما وصل سميث إلى الكوخ، كانت جراني قد وصلتْ لتوها، ووجهت إسك بيدها، حملق الولدان إليها من خلف والدهما.

قال سميث: «مم»، غير مدرك تمامًا لكيفية بدء محادثة مع شخص من المفترض أنه ميت.

- إنهم، مم قالوا لي إنك، مريضة.

استدار وحملق إلى ولديه.

- كنت أستريح فحسب فغفوت، وأنا أنام نومًا عميقًا للغاية.

قال سميث بتشكك: «نعم، حسنًا، كل شيء على ما يرام، فما خطب إسك إذن؟».

قالت جراني وهي تضغط يد البنت: «لقد خافتْ قليلًا؛ الظلال وما شابه، إنها بحاجة إلى تدفئة جيدة، كنت سأضعها في فراشي إن لم يكن عندك مانع، إنها منزعجة بعض الشيء».

لم يكنْ سميث على تمام اليقين من أن لا مانع لديه، لكنه كان متيقنًا تمامًا من أن امرأته شأنها شأن أي امرأة في القرية أولت

جراني ويذرواكس خصوصيةً مقدسةً، إلى حد الرهبة ربما، وأنه إن بدأ بالاعتراض فستخرج أحشاءه بسرعة.

قال: «حسنًا حسنًا، إن لم تكن هناك مشكلة فسأرسل في طلبها صباحًا، أيمكنني ذلك؟».

قالت جراني: «هذا صحيح، كنت سأدعوك إلى الدخول لكني هنا وحدي دون نار...».

قال سميث على عجل: «لا، لا، كل شيء على ما يرام، عشائي ينتظرني، وقد كاد يبرد».

قالها وهو ينظر إلى أسفل إلى جولتا الذي فتح فمه ليقول شيئًا، لكنه فكر فيه بتعقل أكبر.

عندما غادروا، وبابتعاد دوي صوت شجار الولدين بين الأشجار، فتحت جراني الباب، ودفعتْ إسك إلى الداخل وأوصدته خلفهما. أخذت شمعتين من صندوق مُؤن فوق الخزانة وأشعلتهما، ثم سحبت من صندوق قديم بعض بطانيات صوفية قديمة لكنها صالحة للاستخدام وما زالت تنبعث منها رائحة الأعشاب المضادة للعثة، ولفَّت إسك بداخلها وأجلستها على الكرسي الهزاز.

نزلت على ركبتيها مصدرةً صوت نقرات وهمهمات وبدأت بإشعال النار، وقد كان عملًا معقدًا يحوي فطريات جافة ونشارة خشب وأجزاءً من غصن منقسم والكثير من النفخ والشتائم.

قالت إسك: «ليس عليكِ أن تشعلي النار بهذه الطريقة يا جراني».

تصلبتْ جراني ونظرتْ إلى جدار المدفأة المزيَّن بالنقوش، لقد كان لطيفًا نوعًا ما وقد صنعه لها سميث منذ سنوات بزخرفة لبومة وخفاش، لكنْ في الوقت الحالي لم تكنْ معجبة بالتصميم.

قالت بصوت كصوت الموتى: «أوه، نعم، تعرفين طريقة أخرى، أليس كذلك؟».

- يمكنك أن توقديها بسحرك.

أولت جراني اهتمامًا بالغًا لترتيب أجزاء الغصين فوق اللهب المتردد.

قالت جراني موجهة ملاحظاتها إلى الجدار الخلفي للمدفأة على ما يبدو: «كيف يمكنني فعل ذلك، بالتضرع؟».

قالت إسك: «آه.. أنا.. أنا لا أستطيع التذكر. لكنْ لا بدَّ أنكِ تعرفين ما أعنيه على أي حال، أليس كذلك؟ الجميع يعرف أن بوسعك ممارسة السحر».

قالت جراني: «ثمة سحر».

ثم كررتها ثانية: «ثمة سحر، المهم يا فتاتي هو معرفة في ما يستخدم السحر وفي ما لا يستخدم، ويمكنكِ أن تأخذيها مني، لم يهدف السحر مطلقًا إلى إشعال النار. يمكنكِ أن تكوني على يقين تام بذلك، فإن كان الخالق قد أراد منا استعمال السحر في إشعال النار، فلمَ منحنا... إيه! أعوادَ الثقاب».

قالت إسك: «لكنْ أيمكنكِ إشعال النار بالسحر؟».

فيما كانت جراني تعلق غلاية قديمة سوداء في خطاف.

وأكملت إسك: «أعني إن أردتِ، لو كان ذلك مسموحًا».

قالت جراني التي لا يمكنها فعل ذلك: «ربما».

لم يكن للنار عقل ولم تكن حيَّة، وكان ذلكما سببين من ثلاثة أسباب تجعل السحر ليس بإمكانه إشعال النيران.

- يمكنكِ إشعالها على نحو أفضل بكثير.

قالت جراني وهي تهرب إلى الأقوال المأثورة، الملاذ الأخير للشخص البالغ تحت الحصار: «نصف العمى ولا العمى كله».

- نعم لكن...

- لا تجادليني.

فتشتْ جراني في صندوق خشبي داكن موضوع على الخزانة، كانت تفتخر بنفسها لمعرفتها التي لا تضاهَى بخصائص أعشاب رامتوبس، فلا أحد يعرف أحسن منها الاستخدامات العدَّة لحشيشة الأذن أو حلم العذراء أو نزيف الحب الكاذب، إلا أن هناك أوقاتًا اضطُرَّت فيها إلى الذَّهَاب إلى مخزونها الصغير من العقاقير المتداولة بحرص شديد والمخزَّنة بعناية في أرجاء فورن -وهي مناطق تستغرق رحلة الوصول إليها ما يزيد على يوم واحد وفق منظور جراني- لتحقيق التأثير المطلوب.

مزَّقت بعض الأوراق الحمراء الجافة في كوز، وغطتْه بالعسل والماء الساخن من الغلاية ودفعتْه داخل يد إسك. ثم وضعتْ حجرًا دائريًّا كبيرًا تحت الموقد، وبعد ذلك لفَّتها في خرقة من بطانية، لتدفئة السرير، وبأمر شديد اللهجة للفتاة بعدم التحرك من المقعد، خرجتْ جراني متجهةً إلى غرفة الغسيل.

دبدبتْ إسك بعقبيها على أرجل المقعد وارتشفتِ المشروب، كان له طعم حار غريب. تساءلتْ عن ماهيته، لقد تذوقت مشروبات جراني من قبل، وهي تعلم أن كمية العسل المحلاة بها تزيد وتنقص وفقَ ما أحدثه شاربها من صخب وضجة. وعرفتْ إسك بشهرة جراني في جميع ربوع الجبال بجرعات خاصة لتلك الأمراض -التي ألمحت إليها والدتها وبعض السيدات الشابات الأخريات من حين إلى آخر- بحواجب مرفوعة وأصوات خفيضة...

عندما عادتْ جراني، كانت إسك قد غطَّتْ في النوم، لم تتذكرْ أنها قد وُضِعَتْ في الفراش أو أن جراني قد أغلقتِ النوافذ.

عادت جراني ويذرواكس إلى الطابق السفلي، سحبتْ كرسيها الهزاز وقرَّبته من النار.

حدثتْ نفسها بأن ثمة شيئًا ما كامنًا يترصد في عقل الطفلة. ولم تكن لتحبَّ التفكير في ماهية ذلك الشيء، لكنها تذكرت ما حدث للذئاب. وكل ما قيل عن إشعال النار بالسحر: فالسحرة يفعلون ذلك، إنه أحد أول تلك الأمور التي يتعلمونها.

تنهدت جراني، لم تكن هناك سوى طريقة واحدة للتأكد، وكانتْ تتقدم في العمر إلى حد ما بسبب مثل هذه الأمور.

التقطتِ الشمعة وخرجتْ من حجرة الغسيل متجهة إلى المكان الذي يؤوي ماعزها، راقبنها دون خوف، كانت كل منهنَّ جالسة في خِنها الذي يشبه الفقاعة الفروية، ثلاثة أفواه تعمل إيقاعيًّا في أكل تبن اليوم، كانت رائحة الهواء دافئة ومشبعة بالغازات إلى حد ما.

بالأعلى، في العوارض الخشبية، كان هناك بومة صغيرة وهي إحدى تلك المخلوقات التي وجدتْ أن العيش مع جراني يستحق تحمل الإزعاج العابر. بكلمة واحدة، وصلتْ إلى يدها، مسدتْ جراني رأسها بعمق وبحثتْ عن مكان مريح للاستلقاء عليه، مثل كومة من التبن مثلًا.

أطفأتِ الشمعة واستلقتْ والبومة واقفة على إصبعها.

كان الماعز يمضغ ويبتلع ويتجشأ خلال ليلته الدافئة، فأحدثوا الصوت الوحيد في المبنى.

ما زالت جراني في جسدها، شعرتِ البومة بها وهي تدخل عقلها، وفسَحتْ لها المجال بلطف. تعرف جراني أنها ستندم على ذلك،

فاستعارة جسدين في يوم واحد سيجعلها لا تقوى على شيء في الصباح، كما سيسفر عن رغبة عارمة في أكل الفئران. قطعًا، لم تكن تعير الأمر أي أهمية عندما كانت أصغر، وهي تركض مع الأيائل وتصطاد مع الثعالب وتتعلم الطرق المظلمة الغريبة للخِلدان، وبالكاد تقضي ليلة في جسدها. لكنَّ الأمر يزداد صعوبة الآن، وخاصة العودة. ربما قد يحين وقت ألا تعود ثانية، ربما يعود الجسد إلى البيت؛ الكثير من اللحم الميت، وربما لن تكون هذه طريقة سيئة للموت في ذلك الوقت.

كان مثل هذا النوع من الأمور التي لا يمكن للسحرة معرفتها أبدًا، فإذا حدث لهم ودخلوا إلى عقل كائن ما، فسيفعلون ذلك مثل اللصوص، ليس بدافع الشر؛ لكنْ لأنه لن يخطر ببالهم فعله بأي طريقة أخرى سوى التلاعب السخيف. وما فائدة الاستحواذ على جسد بومة؟ لا يمكنك الطيران، كنتَ بحاجة إلى عمر كامل للتعلم. لكنَّ الطريقة اللطيفة هي ركوب عقل الكائن، وتوجيهه بلطف كما يحرك النسيم ورقة شجر.

تحركتِ البومة ورفرفت على حافة النافذة الصغيرة، وتسللت بصمت في سكون الليل.

تلاشت الغيوم وألقى القمر الهزيل بنور خفيض على الجبال، حدقتْ جراني من خلال أعينِ البومة وهي تنطلق مسرعة بصمت بين صفوف الأشجار، كانت تلك هي الطريقة الوحيدة للسفر، حالما يمتلك الجسد طريقه! لقد أحببتِ استعارة أجساد الطيور أكثر من أي شيء آخر واستغلالها في اكتشاف الأودية العالية المخفية التي لم يذهب إليها أحد، والبحيرات السرية بين المنحدرات السوداء والحقول الصغيرة المسوَّرة على بقايا أراضٍ مسطحة، والمطوية في الوجوه الصخرية المطلقة التي كانت من ممتلكات كائنات سرية مخفية. ذات مرة، ركبتْ جسد الإوز

الذي يمر فوق الجبال كل ربيع وخريف، وصُدِمَتْ صدمة حياتها، عندما كادت تتخطى مجال العودة.

خرجتِ البومة من الغابة وحلقتْ بين أسطح القرية وهبطتْ في وابل من الثلوج على أكبر شجرة تفاح في بستان سميث، وقد كانت مثقلةً بالدبق.

عرفتْ أنها على حق حالما لامست مخالبها اللحاء، استاءت منها الشجرة حتى إنها شعرت برغبة الشجرة في دفعها بعيدًا عن نفسها.

فكرت قائلة بداخلها: «لن أغادر».

وفي صمت الليل قالت الشجرة: «إذن، أنتِ تتنمرين عليَّ، لمجرد أنني شجرة، امرأة كما يقول الكتاب».

تكلمتْ جراني داخل البومة: «على الأقل، لكِ نفع الآن، أليس شجرة أجدى من ساحر، هه؟».

ردتِ الشجرة بحديث داخلي: «إنها ليست حياة سيئة، شمس وهواء نقي ووقت للتفكير، ونحل كذلك في الربيع».

كان ثمة شيء شبق في الطريقة التي قالت بها الشجرة «نحل»، جعل جراني التي لديها خلايا نحل، تنفر من العسل. كان الأمر أشبه بتذكر أن البيض هو دجاج لم يولد بعد.

همست: «لقد أتيت في أمر يخص الفتاة إسك».

ردت الشجرة بصوت داخلي: «طفلة واعدة، أراقبها باهتمام، وهي تحب التفاح كذلك».

قالت جراني مصدومة: «أنت وغد».

- ماذا قلتِ؟ اعذريني على عدم التنفس، أنا متيقن.

تمشتْ جراني بتؤدة مقتربة من الجذع، وفكرت: «لا بد أن تتركها وشأنها، لقد بدأ السحر في الظهور».

قالت الشجرة: «أحقًّا؟ أنا مبهور».

صرخت جراني: «إنه النوع الخاطئ من السحر، إنه سحر السحرة الرجال، وليس سحر النساء! هي لا تعرف ما بها إلى الآن، لكنها قتلت عشرات الذئاب الليلة!».

قالت الشجرة: «عظيم».

صاحت جراني بغضب: «عظيم! لنفترض أنها تشاجرت مع أخويها وفقدتْ أعصابها، هه؟».

هزت الشجرة كتفيها، فتساقطت ندفات الثلج من بين فروعها وقالت: «إذن فعليكِ تدريبها».

- أدربها؟ وما الذي أعرفه أنا عن تدريب السحرة!

- فلترسليها إلى الجامعة إذن.

صاحت وهي تثب إلى أعلى وأسفل على الأغصان: «إنها أنثى!».

- حسنًا، من قال إن النساء لا يمكن أن يكنَّ سحرة!

تحيرت جراني، فربما تسأل الشجرة كذلك لماذا لا يمكن للأسماك أن تكون طيورًا. أخذتْ نفسًا عميقًا وشرعتْ في الكلام ثم توقفتْ. كانت تعرف أن ثمة إجابة قاطعة وثاقبة وصاعقة، وقبل كل ذلك فهي إجابة بديهية. وقد سبب ذلك انزعاجها الشديد إذ لم تستطع استحضارها في ذهنها تمامًا.

- لم تكن النساء سحرة قطُّ، إنه أمر ضد الطبيعة. قد تقول كذلك إن الرجال يمكن أن يكونوا مشعوذات.

بدأتِ الشجرة وواصلت الحديثَ دقائقَ، إذا أردتَ تعريف المشعوذة على أنها تلك التي تعبد الرغبة الإبداعية وتبجل الأساسيات. استمعتْ جراني بانزعاج ونفاد صبر لعبارات مثل الآلهة الأم وعبادة القمر البدائية وأخبرتْ نفسها أنها كانت تدرك جيدًا ما يعنيه كونها مشعوذة، وهو أمر يتعلق بالأعشاب والتعويذات والطيران في الليالي وبشكل عام الحفاظ على العرف، وطبعًا لا ينطوي ذلك على الاختلاط بالآلهة أو الأمهات أو ما شابه تلك الأمور التي تفضي بوضوح إلى حِيل مشكوك فيها. وعندما بدأت الشجرة في التحدث عن الرقص عاريًا، حاولتْ ألا تستمتع لما تقوله، لأنها رغم معرفتها بوجود جلد تحت طبقات ستراتها وتنانيرها، فهذا لا يعني أنها توافق على موضوع التعري ذاك.

أنهت الشجرة مونولوجها.

انتظرتْ جراني حتى التأكد تمامًا من أن الشجرة لن تضيف أي شيء آخر، وقالت: «هذه هي الشعوذة، أليس كذلك؟».

- من الناحية النظرية، نعم.

- أنتم السحرة، تنتابكم بالتأكيد بعض الأفكار المضحكة.

قالت الشجرة: «لم أعدْ ساحرًا بعد الآن، أنا مجرد شجرة».

نفشتْ جراني ريشها.

- حسنًا، اسمعني فحسب سيد شجرة الملقب بصاحب الأساس النظري، إذا كان من المقدر للسيدات أن يَكُنَّ سحرة، لكنْ قادرات على إطلاق لحى طويلة بيضاء، وحينها لن يكونَنَّ ساحراتٍ كذلك. أهذا واضح تمامًا، سحر السحرة ليس سبيلًا لاستعمال السحر، أتسمع، إنه ليس سوى أضواء ونار وتداخل مع القوى، ولن يكون لها أي دور في ذلك، وليلتك سعيدة.

طارت البومة بعيدًا عن الفرع، ولم تكنْ تنتفض من الغضب، ليس لشيء إلا أن ذلك كان سيتعارض مع الطيران. سحرة! إنهم يتكلمون كثيرًا وينكبون على التعويذات في الكتب مثل الفراشات، بل هم أسوأ، والأسوأ من هذا كله هو اعتقادهم أن سحرهم هو السحر الوحيد الذي يستحق التمرن عليه.

كانت جراني على يقين تام بشيء واحد، لم يسبق قطُّ أن كانت النساء سحرةً، ولسنَ على وشك البدء في ذلك الآن.

عادتْ إلى الكوخ في جنح الليل الشاحب، على الأقل كان جسدها مستريحًا بعد غفوته في القش، وتمنتْ جراني قضاء بضع ساعات في كرسيها الهزاز لترتيب أفكارها. لقد كان هذا الوقت الذي لم يكن الليل قد انتهى فيه تمامًا، لكنَّ النهار لم يكنْ قد بدأ تمامًا. عندما برزتْ أفكارها بوضوح وصفاء ودون تمويه. هي...

كانت العصا مستندة إلى الجدار، بجوار الخزانة. وقفتْ جراني دون حَراك تمامًا، وقالتْ أخيرًا: «لقد فهمتُ، إذن هذه هي طريقة التعامل، أليس كذلك؟ وفي منزلي؟».

تحركتْ ببطء بالغ، وسارتْ حتى زاوية المدفأة الصغيرة وألقتْ ببضع حطب مقطَّع على جمر النار، ونفختِ الكير حتى أشعلتْ ألسنة اللهب في المدفأة.

وعندما رضيتْ عن اشتعال النار، استدارتْ وتمتمتْ ببعض التعويذات الاحترازية الوقائية من تحت ضرسها، وأمسكتِ العصا. لم تقاومها العصا، كادت جراني تسقط، لكنها الآن في قبضة يدها، وشعرت بارتعاشتها والفرقعة الرعدية المميزة للسحر الكامن فيها، وضحكت.

كان الأمر بهذه البساطة إذن، لم يكن فيها قتال الآن، وبعد استحضار لعنة على السحرة وجميع أعمالهم، رفعتِ العصا فوق رأسها وأسقطتها على النار بضربات، فوق الجزء الأسخن من النار.

صرختْ إسك، وارتدَّ الصوت خلال ألواح أرضية غرفة النوم، وانتشر خلال الكوخ المظلم.

كانت جراني عجوزًا ومتعبةً ولم تكن رؤيتها للأمور واضحةً عقب يوم طويل، لكنَّ البقاء حيَّة بالنسبة إلى مشعوذة يستلزم القدرة على استباق الأحداث، وبينما تحدق إلى العصا وهي بداخل ألسنة اللهب، وحالما سمعت صرخة إسك، وصلت يداها فعلًا إلى الغلاية الكبيرة السوداء، وقلبتها على النار وسحبت العصا من سحابة البخار وهُرِعَتْ إلى أعلى خائفة مما قد تراه.

كانت إسك جالسة في السرير الضيق، لم تحترقْ لكنها تصرخ، حملت جراني الطفلة بين ذراعيها وهي تحاول تهدئتها، لم تكن متأكدةً من الكيفية التي تسير بها الأمور، لكنْ بدا أن التربيت المشتت على الظهر وأصوات الطمأنة المبهمة قد نجحا في المهمة وتحول الصراخ إلى عويل، ثم شهقات في النهاية. ومن حين إلى آخر، كان بوسع جراني التقاط كلمات مثل «نار» و«ساخن» وارتسم فمها كخيط واهن مرتعش.

وأخيرًا سكنتِ الطفلة وهدأتْ، ووضعتها داخل الفراش، وتسللتْ بهدوء إلى الطابق السفلي.

كانت العصا قد عادت إلى الاستناد إلى الحائط، ولم تُدهَشْ لرؤية أن النار لم تُحدِثْ بها أي أثر على الإطلاق.

أدراتْ جراني كرسيها الهزاز لتواجهها، وجلستْ وهي تمسك ذقنها بيدها تعبيرًا عن عزم صارم.

وتوًّا بدأ الكرسي في الاهتزاز من تلقاء نفسه، مصدرًا الصوت الوحيد في الصمت الذي ثقل وانتشر وملأ الغرفة مثل ضباب قاتم رهيب.

وفي صباح اليوم التالي، وقبل أن تستيقظ إسك، خبأتْ جراني العصا في القش، بعيدًا عن طريق الأذى.

تناولتْ إسك فطورَها وشربتْ نصف لتر من لبن الماعز دون أدنى إشارة إلى أحداث الأربع وعشرين ساعة الماضية. كانتْ هذه أول مرة تدخل فيها كوخ جراني لأكثر من زيارة وجيزة، وبينما كانت العجوز تغسل الأطباق وتحلب الماعز، استفادت إسك بالحد الأقصى من الإذن الضمني لها في الاستكشاف.

وجدتْ أن الحياة في الكوخ لم تكنْ مكتملة تمامًا، مثل ما يتعلق بمسألة تسمية الماعز مثلًا.

قالت: «لكنْ لا بدَّ أن يكون لهم أسماء! فلكل شيء اسم».

نظرتْ جراني إليها من جانب رأس المعزة ذي الشكل الكمثري، بينما يتدفق الحليب في السطل المنخفض.

قالت بغموض: «أجرؤ على قول أن للماعز أسماء».

- فيمَ يحتاجون إلى الأسماء؟

قالت إسك: «حسنًا»، ثم توقفت وفكرتْ قليلًا: «فكيف تجعلينهم يفعلون ما تريدين إذن؟».

- إنهم يفعلونه فحسب، وإذا أرادوا مني شيئًا فإنهم يثغون.

وضعتْ إسك خصلة من القش على رأس الماعز وراقبتها جراني بتأمل، كان للماعز أسماءٌ لأنفسهم، كانت تعرف جيدًا: كان هناك «ماعز الذي هو طفلي» و«ماعز الذي هو أمي» و«ماعز الذي هو رئيس القطيع». ونصف دزينة من الأسماء الأخرى ليس أقلها هو: «ماعز من هذا الماعز».

كان لديهم نظام رعي معقد وأربع مَعِدات وجهاز هضمي بدا مشغولًا للغاية في الليالي الساكنة، ولطالما شعرتْ جراني أن تسمية أسماء على شاكلة باتركاب كان بمنزلة إهانة لحيوان نبيل.

قالت وقد حسمت أمرها: «إسك؟».

- نعم.

- ماذا تريدين أن تصبحي عندما تكبرين؟

نظرتْ إسك نظرة خاوية وقالت: «لا أعرف».

قالت جراني وما زالت يداها تحلبان: «حسنًا، ماذا تعتقدين أنك ستفعلين حين تكبرين؟».

- لا أعرف، أعتقد أنني سأتزوج.

- أترغبين في ذلك؟

بدأت شفاه إسك في تشكيل نفسها كأنهما سينطقان بشيء ما، لكنها لفتت انتباه جراني، فتوقفت وفكرت.

وقالت أخيرًا: «كل البالغين الذين أعرفهم متزوجون»، وفكرتْ بعض الشيء، ثم أضافت بحذر: «إلا أنتِ».

قالت جراني: «هذا صحيح».

- أترغبين في الزواج؟

كان دور جراني في التفكير.

ثم قالت في النهاية: «لمْ ألتفت إلى الأمر مطلقًا، فهناك الكثير جدًّا من الأمور الأخرى لفعلها كما ترين».

قالت إسك وهي تهز ذراعيها: «يقول أبي إنك مشعوذة».

- أنا كذلك.

أومأتْ إسك، فقد حظيتِ المشعوذات في رامتوبس بوضع أشبه بما منحته الثقافات الأخرى للراهبات أو محصلي الضرائب أو منظفي بالوعات المجاري. وهو ما يعني أنهنَّ يتلقين الاحترام والإعجاب أحيانًا والتصفيق لهم بشكل عام لاضطلاعهم بعمل يحتاج منطقيًّا إلى من ينجزه، لكنْ لم يشعر الناس قطُّ بالراحة التامة لوجودهم معهم في الغرفة ذاتها.

قالت جراني: «أترغبين في تعلم الشعوذة؟».

قالت إسك وقد اتقدتْ عيناها: «أتقصدين السحر؟».

- نعم السحر، لكنه ليس سحر الألعاب النارية، بل سحر حقيقي.

- هل تستطيعين الطيران؟

- هناك أمور أفضل من الطيران.

- وهل أستطيع تعلمها؟

- إذا وافق والداكِ.

telegram @
yasmeenbook

تنهدت إسك قائلة: «أبي لن يوافق».

قالت جراني: «إذن، فعليَّ التحدث معه».

*

- الآن، استمع إليَّ فحسب يا جوردو سميث.

تقهقر سميث خلال ورشة حدادته ويداه نصف مرفوعتين لدرء غضب العجوز. تقدمتْ عليه بإصبع مشهرة باستقامة في الهواء.

- أتيتُ بك إلى العالم أيها الغبي، ولا تمتلك من العقل أكثر مما امتلكتَه حينها.

حاول سميث التحدث وهو يراوغ حول السندان قائلًا: «لكنْ...».

- لقد وجدها السحر! سحر السحرة الرجال! السحر الخاطئ! أتفهم؟ لم يكنْ مرادًا لها قطُّ!

- نعم لكنْ...

- ألديك أي فكرة عمَّا يسعها فعله؟

تبلد سميث قائلًا: «لا».

تسمرتْ جراني وانكمشتْ بعض الشيء، وكررتْ برفق أكثر: «لا، ولن تستطيع أن تعرف».

جلستْ على السندان وحاولتِ التفكير بهدوء.

- أنصتْ، السحر له نوع من حياة خاصة به، وهذا لا يهم. لأنه على أي حال، فسحر السحرة...

نظرتْ إلى وجهه الخالي من التعبير، وحاولتْ مرة أخرى، قائلة: «حسنًا، أتعرف عصير التفاح؟».

أومأ سميث برأسه، لقد شعر أنه على أرض أصلب الآن، لكنه لم يكن متأكدًا من المكان الذي سيفضي إليه ذلك الحديث.

قالت المشعوذة: «ثم هناك اللاعق، خمر التفاح».

أومأ سميث، فكل أهالي باد آس يصنعون خمرَ التفاح في الشتاء من خلال أحواض عصير التفاح إلى الخارج طَوال الليل، ثم تفريغ الثلج حتى تتبقى خلاصة صغيرة من الكحول.

- حسنًا، يمكنكَ شرب كميات كبيرة من عصير التفاح وتشعر بتحسن فحسب، وهذا كل شيء، أليس كذلك؟

أومأ سميث ثانية.

- لكنَّ خمر التفاح، تشربه في أكواب صغيرة ولا تشرب كثيرًا ولا تشربه باستمرار، لأنه يعبث برأسك مباشرة؟

أومأ سميث مجددًا، وأدرك أنه لا يُسهم في هذه المحادثة بدور كبير، فأضاف: «هذا صحيح».

قالت جراني: «فهذا هو الفرق».

- الفرق بين ماذا؟

تنهدتْ جراني وقالت: «الفرق بين سحر المشعوذات وسحر السحرة، وقد وجدها السحر، وإن لم تتحكم هي فيه، فهناك من سيتحكمون فيها. يمكن أن يكون السحر كالباب، وهناك أشياء قبيحة على الجانب الآخر، أتفهم؟».

أومأ سميث برأسه، لم يكن يفهم، لكنْ راوده حدس صادق أنه إن كشف هذه الحقيقة فستبدأ جراني في الخوض في تفاصيل مروعة.

قالت جراني: «ذهنها قوي، قد يستغرق الأمر بعض الوقت، لكنْ عاجلًا أو آجلًا سيغيرونها».

رفع سميث مطرقةً من مقعده ونظر إليها كأنَّه لم يرَها من قبل، ثم وضعها بالأسفل ثانية، وقال: «لكن، إن كانت قد تلقتْ سحر السحرة، فتعليمها الشعوذة لن يجدي نفعًا، أليس كذلك؟ قلتِ إنهما مختلفان».

- كلاهما سحر، فإذا كنتَ لا تستطيع تعلم ركوب الفيل، فعلى الأقل يمكنك تعلم ركوب الحصان.

- ما الفيل؟

قالت جراني: «نوع من الغرير».

لم تحافظْ على مصداقيتها عن الغابات من خلال الاعتراف بالجهل ولو مرة خلال أربعين سنة.

تنهَّد الحداد، كان يعرف أنه هُزِمَ أمامها، وقد أوضحتْ زوجته تفضيلها الفكرةَ تمامًا، والآن حان دوره للتفكير فيها، فهناك بعض

المزايا. فبعد كل شيء، لن تدوم جراني إلى الأبد، وكونه الأب للمشعوذة الوحيدة في المِنْطَقة قد لا يكون بالغ السوء كذلك.

قال: «لا بأس».

وهكذا عندما تبدَّل الشتاء بدخول متردد للربيع، بدأتْ إسك في قضاء أيام مع جراني لتعلم الشعوذة.

يبدو أن ثمة أمورًا من الواجب تذكرها بشكل أساسي.

فقد كانت الدروس عملية للغاية، كان هناك تنظيف لمنضدة المطبخ والأعشاب الأساسية، وهناك إزالة روث الماعز واستخدامات الفطريات. كما كان هناك غسيل واستحضار للآلهة الصغيرة. وهناك الاعتناء بالمرجل الكبير الذي ما زال موجودًا في حجرة الغسيل، ونظرية التقطير وممارستها. وبحلول الوقت الذي هبت فيه رياح دافئة من اتجاه الحافة، وكان ما تبقى من الثلج هو ثلوج مذابة تنسدل على جانب محور الأشجار، أصبحتْ إسك تعرف كيف تحضر مجموعة من المراهم، والعديد من خمر البراندي الطبي، ومجموعة من الحقن الخاصة، وعدد من الجرعات الغامضة التي قالت جراني إنها قد تتعلم استخدامها في الوقت المناسب.

ما لم تفعلْه على الإطلاق هو كل الأمور التي تتعلق بالسحر.

كانت جراني تردد على نحو مبهم: «كل شيء في الوقت المناسب».

- لكنْ من المفترض أن أكون مشعوذة!

- لكنكِ لستِ مشعوذة بعد، اذكري لي اسمَ ثلاث أعشاب مفيدة للأمعاء إذن!

وضعتْ إسك يديها خلف ظهرها وأغمضتْ عينيها وقالت: «أزهار قمم بيهان العظمى، وجذر لب ثمرة سروايل العجوز، وسيقان زنابق الماء الدموي وبذور...».

- حسنًا، أين يمكن العثور على القثاء المائي؟

- مستنقعات الخث والبرك الراكدة، في أشهر...

- حسنًا، أنتِ تتعلمين.

- لكنَّ هذا ليس سحرًا!

جلستْ جراني على منضدة المطبخ، وقالت: «ليس معظم السحر كذلك، إنه ليس سوى معرفة بالأعشاب الصحيحة وتعلم مراقبة الجو واكتشاف طرق الحيوانات والناس كذلك».

قالت إسك مرعوبة: «أهذا كل ما في الأمر!».

- كل؟ إنها كلمة كبيرة جدًّا، لكنْ لا، هذا ليس كل شيء. توجد أمور أخرى.

- ألا يمكنكِ تعليمي إياها؟

- كل شيء في الوقت المناسب، ليس هناك نداء لإظهار نفسك بعد.

- إظهار نفسي؟ لمن؟

صوبتْ جراني عينيها تجاه الظلال في زوايا الحجرة وقالت: «لا تهتمي».

وبعد ذلك، اختفتْ حتى ذيول الثلج العالقة وحامت عواصف الربيع حول الجبال، بدأت تُشَم في هواء الغابة رائحة عفن الأوراق وزيت التربنتين. تُحدِث بعض الأزهار المبكرة الصقيعَ الليليَّ وبدأ النحل في الطيران.

قالت جراني ويذرواكس: «النحل الآن هو السحر الحقيقي».

رفعتْ بعناية غطاءَ الخلية الأولى، ومَضَتْ قائلةً: «نحلكم هو خمركم وشمعكم وعلكة نحلكم وعسلكم». وأضافت بلمحة من الموافقة: «الرائع هو نحلكم الذي تحكمه الملكة كذلك».

- قالت إسك وهي تتراجع قليلًا: «ألا يلدغونك؟».

اندفع النحل من قرص العسل وغمروا الجوانب الخشبية الخشنة للصندوق.

قالت جراني: «نادرًا ما فعلوا، تريدين السحر، راقبي إذن».

وضعتْ يدها وسط كتلة الحشرات التي تكافح، وأحدثت ضجيج صفارة خافتة حادة من مؤخرة حلقها، فكانت هناك حركة من الكتلة وزحفت نحلة كبيرة أطول وأنحف من الأخريات على يد جراني، وتبعها عدد قليل من الشغَّالات ورحن يمسدْنها ويراعينها بشكل عام.

قالت إسك: «كيف فعلتِ ذلك؟».

- آه، ألا تريدين أن تعرفي؟

قالت إسك بصرامة: «بلى أود، ولهذا أسأل يا جراني».

- أتعتقدين أنني استعنتُ بالسحر؟

نظرتْ إسك إلى أسفل إلى ملكة النحل، ثم إلى أعلى إلى المشعوذة وقالت: «لا، أعتقد أنكِ تعرفين الكثير عن النحل فحسب».

- صحيح جدًّا، وهذا أحد أشكال السحر بلا شك.

- ماذا؟ مجرد معرفة الأشياء؟

- معرفة الأشياء التي لا يعرفها أحد.

وأسقطتْ ملكة النحل بحرص بين رعاياها وأغلقت غطاء الخلية: «أعتقد أن الوقت قد حان لتتعلمي بعض الأسرار».

أخيرًا، فكرت إسك.

قالت جراني: «لكنْ أولًا، علينا أن نظهر إجلالنا للخلية».

وقد تمكنتْ من إظهار صوت حرف الخاء في كلمة خلية.

ودون تفكير تمايلت إسك بانحناءة إلى الأمام.

قصتْ يد جراني بعض الشعر من مؤخرة رأسها، وقالت: «انحناءة، قلتُ لكِ، انحناءة المشعوذات».

اشتكتْ إسك: «لكنْ لماذا؟».

قالت جراني: «لأن المشعوذات لا بدَّ أن يَكُنَّ مختلفات، وهذا جزء من السر».

جلستا على مقعد أبيض أمام جدار الكوخ في اتجاه الحافة، وأمامهما كانت الأعشاب على ارتفاع قدم فعلًا، وهي مجموعة مشؤومة من أوراق خضراء باهتة.

قالت جراني وهي تستقر في جلستها: «حسنًا، أتعرفين القبعة الموضوعة في الصالة على الباب، اذهبي وأحضريها».

ذهبتْ إسك إلى الداخل بإذعان وأحضرتِ القبعة من على الخطاف، كانت قبعةً طويلةً وحادةً وطبعًا سوداء.

قلَّبتها جراني بين يديها ونظرتْ إليها باهتمام، وقالتْ بمهابة: «داخل هذه القبعة أحد أسرار الشعوذة، إن لم تخبريني بسرها فربما لن يكون بوسعي تعليمكِ المزيد، لأنَّ متى تعلمتِ سر القبعة، فلن يكون هناك مجال للعودة، قولي لي ما تعرفينه عن القبعة».

- هل أستطيع حملها؟

- تفضلي.

حدقت إسك إلى داخل القبعة، هناك بضعة أسلاك متصلبة لإعطائها شكلها، وزوجان من الدبابيس. كان هذا كل شيء. لم يكن هناك أي شيء

غريب بشكل خاص فيها، باستثناء أن لا أحد في القرية يملك مثلها. لكنَّ هذا لا يجعلها سحرية، عضتْ إسك شفتيها، كانت تراودها رؤية لنفسها وقد أُعيدت إلى المنزل في حالة من الخزي.

لم يكنِ الأمر غريبًا، ولم تكنْ هناك جيوب مخفية، بل كانت مجرد قبعة مشعوذة كما يجب أن تكون. كانت جراني ترتديها دائمًا عندما تنزل إلى القرية، لكنها كانت ترتدي قلنسوة جلدية في الغابة.

حاولتْ تذكُّر شيء من الدروس التي تصدقت بها جراني عليها على مضض، إنه ليس ما تعرفين، إنه ما لا يعرفه الآخرون، يمكن أن يكون السحر الشيء الصحيح في المكان الخاطئ أو الشيء الخاطئ في المكان الصحيح. يمكن أن يكون...

كانت جراني ترتديها دائمًا في القرية، والعباءة السوداء الكبيرة التي لم تكن سحرية بلا شك، لأنها كانت بطانية ماعز في معظم الشتاء، وغسلتها جراني في الربيع.

بدأتْ إسك تحس بشكل الإجابة، ولم ترُقها كثيرًا، كشأن الكثير من إجابات جراني، مجرد تلاعب بالكلمات، فهي لا تقول سوى أمور يعرفها المرء طول الوقت لكنْ بطريقة مختلفة، ومن ثَمَّ يصبح لها وقع هام.

- قالت إسك أخيرًا: «أعتقد أنني أعرف ما هو».
- أخبريني به إذن.
- إنه مكون من جزءين.
- حسنًا؟
- إنها قبعة مشعوذة لأنكِ ترتدينها، وأنت مشعوذة لأنكِ ترتدين القبعة، امم...

تحفزتْ جراني قائلة: «ثم...».

قالت إسك: «ومن ثَمَّ يراكِ الناس قادمةً ترتدين القبعة والعباءة ويعرفون أنكِ مشعوذة، وهذا سبب نجاح سحركِ، أليس كذلك؟».

- هذا صحيح، إنه يسمى علم التحكم بالدماغ.

وربَّتتْ شعرها الرمادي المرفوع في كعكة مشدودة يمكنها تكسير الصخور.

اعترضتْ إسك: «لكنَّ هذا ليس حقيقيًّا، إنه ليس سحرًا، إنه، إنه...».

- اسمعي، إن أعطيتِ شخصًا زجاجةَ بوظةٍ حمراءَ لعلاج ريح البطن، فقد ينجح ذلك، صحيح، لكنْ إن أردتِ أن ينجح ذلك بالتأكيد، فعليكِ إقناع عقولهم بجدوى ذلك لهم، فتخبريهم أنها أشعة القمر معبأةٌ في زجاجة نبيذ جني أو شيء من هذا القبيل، وغمغمي عليها قليلًا؛ إنها الشيء نفسه لكنْ مع لعنة.

قالت إسك بوهن: «لعن».

- نعم، اللعن يا فتاتي، ولا داعي إلى أن تبدي مصدومة جدًّا! ستلعنين عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، عندما تكونين بمفردكِ وما من يد تمتد بالمساعدة و...

ترددتْ وهي تدرك بانزعاج نظرات أعين إسك المتسائلة، وأنهت كلامها برعونة قائلة: «وعندما لا يبدي الناس لكِ احترامًا، فلتلعنيهم لعنًا مدويًّا وصعب الفهم وطويل الصيغة، بل اختلقيه إن اضطرتِ إلى ذلك، لكنْ كل شيء سيكون على ما يرام. وفي اليوم التالي، عندما يخبطون إبهامهم أو يسقطون من على سلم أو تسقط كلابهم ميتة، فسيتذكرونكِ. وسيتصرفون على نحو أفضل في المرة القادمة».

قالت إسك وهي تتشاجر بقدميها مع التراب: «لكنْ ما زال ذلك لا يبدو سحرًا».

قالت جراني: «لقد أنقذتُ حياة رجل ذات يوم، بدواء خاص يتناوله مرتين يوميًّا، ماء مغلي مع النذر البسيط من عصير التوت، وقلتُ له إنني اشتريته من الأقزام. إنه الجزء الأكبر من العلاج، حقًّا. سيتغلب معظم الناس على معظم الأمور إذا وضعوها في أذهانهم، وما عليكِ سوى توجيه اهتمامهم إليها».

ربتت يدَ إسك بأقصى ما استطاعت من لطف وقالت: «إنكِ صغيرة بعض الشيء على ذلك».

وأضافتْ بلهجة العارف: «لكنْ بتقدمك في العمر، ستكتشفين أن معظم الناس لا تطأ أقدامهم خارج حيز دماغهم كثيرًا، وأنتِ كذلك».

- لا أفهم

قالت جراني بخفَّة: «كنتُ سأتفاجأ كثيرًا إن فعلتِ، ولكنكِ يمكنكِ أن تخبريني بأسماء خمس أعشاب مناسبة للسعال الجاف».

بدأ الربيع يحل بجدية، وبدأتْ جراني تصطحب إسك في جولات طويلة تستغرق اليوم كله إلى البرك المخفية، أو إلى حصوات أعلى قمم الجبال لجمع نباتات نادرة. استمتعتْ إسك بذلك، في أعالى التلال حيث تضرب الشمس بأشعتها بقوة، ومع ذلك كان الهواء باردًا برودة قارسة. نَمَتِ النباتات بكثافة وعانقتِ الأرض، من بعض أعالي القمم، تمكنتْ من رؤية الطريق كاملًا حتى محيط الحافة الذي يُطوِّق حافة العالم. وفي الاتجاه الآخر، زحفتْ رامتوبس في مساحة مدثرة بشتاء أبدي. لقد سلكوا كل الطريق إلى مركز العالم، حيث كان من المتفق عليه أن الآلهة تعيش في جبل ارتفاعه عشرة أميال من صخر وجليد.

- قالت جراني: «الآلهة معها كل الحق، فهم يتناولون غداءهم ويطلون على هذا المنظر، فلا أنتِ تزعجين الآلهة ولا هم يزعجونك».

- أتعرفين الكثير من الآلهة؟

- لقد رأيتُ آلهة الرعد عدة مرات، وهوكي طبعًا.

- هوكي؟

مضغتْ جراني شطيرةً بلا أطراف وقالت: «أوه، هوكي؛ إنه إله الطبيعة، يتجلى أحيانًا في شجرة بلوط أو نصف رجل ونصف عنزة، لكنني أراه أساسًا في مظهره الدموي المزعج. ولا تجدينه إلا في أعماق الغابات طبعًا، إنه يعزف على الفلوت، وعزفه مزرٍ للغاية إن كان عليكِ أن تعرفي ذلك».

استلقتْ إسك على بطنها، ونظرتْ إلى الأراضي الواقعة أسفلهما، فيما حلق العديد من النحل الطنان الذي يعمل خارج القفير على عناقيد أغصان الزعتر. كانتِ الشمس دافئة على ظهرها، وما زال الثلج ينجرف على الحواف المحورية للصخور ها هنا.

قالت بتكاسل: «حدثيني عن تلك الأراضي الواقعة هناك».

حدقتْ جراني باستنكار إلى عشرة آلاف ميل من الأرض المنبسطة وقالت: «ليست سوى أماكن أخرى، مثل هنا تمامًا لكنها هناك فقط، وهذا هو الفارق».

- هل هناك مدن وأشياء كهذه؟

- على ما أعتقد.

- ألم تذهبي قطُّ لإلقاء النظر؟

تراجعتْ جراني في جلستها، وهي ترتب تنورتها بحذر شديد لتعرض بضع بوصات من نسيج الفلانيل للشمس، تاركة الحرارة تداعب عظامها العجوز. وقالت: «لا، هناك ما يكفي من المشكلات هنا دون البحث عنها في أنحاء الفورن».

قالت إسك: «لقد حلمتُ بمدينة ذات يوم، وكان بها مئات الأشخاص، وهناك تلك الأبنية ذات البوابات الكبيرة وكان هناك بوابات سحرية».

قَدِمَ صوت كصوت تمزق النسيج من خلفها، لقد غطتْ جراني في النوم.

- جراني!

- مهنف.

فكرتْ إسك لوهلة، وقالت بدهاء: «هل تستمتعين بوقتك؟».

- مهنف.

- لقد قلتِ إنكِ ستريننني بعض السحر الحقيقي، وأن كل شيء في الوقت المناسب، وها قد أتى الوقت المناسب.

- مهنف.

فتحت جراني ويذرواكس عينيها ونظرتْ إلى السماء مباشرة: حيث كانت هناك نقطة أدكن من الباقي هناك، أميل إلى الأرجواني أكثر مما هي إلى الأزرق، وفكرتْ: لمَ لا، إنها سريعة التعلم، وهي تعرفُ أعشابًا أكثر مما أعرف. وحين كنتُ في مثل عمرها، علَّمتني العجوز جامر تيمولت الاستعارة والتحول والإرسال طول ساعات اليوم، ربما أنا حذرة للغاية».

قالت إسك متوسلة: «القليل فحسب».

قلَّبتْ جراني المسألة في عقلها، لم تستطعِ التفكير في أي أعذار أخرى. قالت لنفسها سأندم على ذلك قطعًا، مظهرةً تبصرًا كبيرًا، وقالت باقتضاب: «حسنًا».

قالت إسك: «سحر حقيقي؟ لا مزيد من الأعشاب أو علم التحكم بالدماغ؟».

- نعم، سحر حقيقي كما تسمينه.

- تعويذة؟

- لا، بل استعارة.

كان وجه إسك لوحةً من الترقب، بدتْ أكثر حيوية، وأشبه بجراني أكثر من أي وقت مضى.

أمعنتْ جراني في الأودية الممتدةِ أمامهما حتى وجدت ما كانت تبحث عنه؛ نسرًا رماديًّا يطوف بتكاسل حول رقعة بعيدة من الغابة زرقاء اللون، كان عقله الآن مستريحًا، سيكون أداؤه رائعًا.

دعتْه بلطف، وبدأ في الطواف حولهما.

قالت جراني بلطف: «أول شيء يجب تذكره عن الاستعارة، عليكِ أن تكوني مرتاحة وآمنةً في مكان ما»، وأضافت وهي تمسد العشب: «العشب أفضل هكذا».

- لكنْ ما الاستعارة؟

- اضطجعي وأمسكي بيدي، أترين ذلك النسر هناك؟

حدقتْ إسك إلى السماء الحارة القاتمة.

- كان هناك.. فزاعتان على العشب بالأسفل وهي تدور تجاه الريح...

كان بإمكانها الإحساس بخفق الهواء وتحوله خلال ريشها، لأن النسر لم يكنْ يصطاد، بل كان يستمتع ببساطة بشعور الشمس على جناحيه، وكانت الأرض أدناه مجرد شكل لا أهمية له. لكنَّ الهواء، الهواء كان شيئًا ثلاثي الأبعاد متداخلًا ومتغيرًا؛ نمطًا متشابكًا من الحلزونات والمنحنيات التي تمتد إلى مسافة بعيدة. وتمحورتِ التيارات المتعرجة حول الدعائم الحرارية. وهي... شعرت بضغط لطيف يكبح جماحها.

قال صوت جراني عن قرب وثيق: «وثاني شيء يجب تذكره، هو ألا تزعجي مالك الجسد، فإذا تركتِه يعرف بوجودك هنا، فهو إما سيقاتلك

وإما سيفزع، ولن تكون لديك فرصة في الحالتين، فقد كان هو نسرًا طَوال عمره وأنتِ لستِ مثله».

لم تنطقْ إسك ببنت شفة.

قالت جراني: «أنتِ لستِ خائفة، أليس كذلك؟ يمكن أن تُؤخَذي بهذه الطريقة في المرة الأولى و...».

قالت إسك: «أنا لست خائفة، كيف يمكنني التحكم فيه؟».

- لن تفعلي، ليس الآن، على أي حال فالتحكم في مخلوق بري ليس سهل التعلم. عليكِ أن توحي إليه بشكل ما بأنه من يسير الأمور. أما مع حيوان مروَّض، فالأمر مختلف كليًّا بالتأكيد. لكنْ لا يمكنكِ حمل أي كائن على فعل أي شيء يخالف طبيعته تمامًا. والآن حاولي العثور على عقل النسر».

تمكنتْ إسك من الإحساس بجراني مثل غيمة فضية منتشرة في مؤخرة عقلها. وبعد بعض البحث وجدتْ عقلَ النسر، وقد كادتْ تفوته، فقد كان عقله صغيرًا وحادًّا وأرجوانيًّا، كرأس السهم. كان يركز على الطيران بالكلية ولم يكن منتبهًا إليها.

قالت جراني باستحسان: «جيد، لن نذهب بعيدًا، إذا أردتِه أن ينعطف، فعليك...».

قالت إسك: «نعم، نعم».

وثنتْ أصابعها أينما كانوا، انحنى الطائر عكس اتجاه الهواء واستدار.

قالت جراني بذهول: «جيد جدًّا، كيف فعلتِ ذلك؟».

- لا أعرف، بدا الأمر واضحًا فحسب.

قالت جراني وهي تختبر عقل النسر الصغير بلطف: «همف»

ما زال غافلًا تمامًا عن ركابه. وكانت جراني مبهورةً حقًّا وهو أمر نادر الحدوث.

طافتا فوق الجبل، بينما اكتشفتْ إسك حواسَ النسر بحماس، دوَّى صوت جراني خلال وعيها معطيًا إياها التعليمات والإرشادات والتحذيرات. استمعتْ بنصف تركيز، بدا الأمر معقدًا للغاية. لماذا لا تستطيع السيطرة على عقل النسر؟ فذلك لن يضره.

كان بوسعها معرفة كيفية فعل ذلك، لقد كان ذلك مجرد مَلكة؛ مثل الفرقعة بالأصابع -وهو ما لم تنجح في فعله في الواقع- وبعدها تصبح قادرة على تَجْرِبة الطيران الحقيقي لا الطيران بوسيط.

قالت جراني بهدوء: «لا تفعلي، لن تجني خيرًا من ذلك».

- ماذا؟

- أتظنين حقًّا يا فتاتي أنكِ أول من فكر في ذلك؟ أتظنين أننا جميعًا لم نفكر في مدى روعة أن نحتل جسدًا آخر فنطأ الهواء أو نتفس الماء؟ وهل تعتقدين حقًّا أن الأمر سيكون بهذه السهولة؟

رمقتها إسك بسخط.

قالت جراني: «لا داعي إلى تلك النظرة، ستشكرينني يومًا ما، ألا تبدئين اللعب قبل معرفة ما أنت بصدده، هه؟ فقبل اللجوء إلى الحيل، عليكِ تعلم ما عليكِ فعله إن ساءت الأمور. لا تحاولي المشي ما لم تتمكني من الجري».

- أستطيع الشعور بكيفية فعل ذلك يا جراني.

- هذا افتراض، الأمر أصعب مما يبدو عليه، إنها استعارة، رغم أنني أسلم بامتلاككِ المَلكة. هذا كافٍ اليوم، سنعود إلى أنفسنا وسأعلمكِ كيفية العودة».

ضرب النسر الهواء فوق الجسدين الراقدين ورأتْ إسك بعينيْ عقلها مساريْن يفتحان لهما، فيما اختفى شكل عقل جراني.

- الآن.

كانت جراني مخطئة، بالكاد قاتل عقل النسر ولم يكن لديه وقت للفزع، حملتْه إسك ملفوفًا في عقلها، تلوَّى لحظة ثم ذاب فيها تمامًا.

فتحتْ جراني عينيها في الوقت المناسب لترى الطائر يصرخ صرخة انتصار، وينحني إلى أسفل فوق الركام الصخري الموجود على الحشائش النامية، ويكشط بعيدًا أسفل سفح الجبل. لوهلة كان نقطةً متلاشيةً ثم اختفى، ولم يتبقَّ سوى صرخة أخرى يتردد صداها.

نظرتْ جراني إلى أسفل إلى صورة إسك الصامتة، كانت الفتاة خفيفة بما فيه الكفاية، لكنَّ الطريق إلى البيت طويل ووقت ما بعد الظهيرة ينحسر.

قالت دون تأثر يذكر: «سحقًا».

وقفتْ وانحنتْ إلى أسفل وبجهد جهيد، حملتْ جسد إسك الخامل على كتفها.

في الأعلى، في هواء غروب الشمس الصافي فوق الجبال، سعى النسر - إسك إلى مزيد من الارتفاع، ثملًا بحيوية الطيران المطلقة.

في طريق العودة إلى المنزل، وجدتْ جراني دبًّا جائعًا وقد أتعبها ظهرها، ولم تكن في مزاج جيد لتزمجر فيه، فتمتمت ببضع كلمات بصوت خفيض، وسار الدب بخطى مثقلة ودهشة موجزة إلى الشجرة ولم يستعدْ وعيه عدةَ ساعات.

عندما وصلتْ إلى الكوخ، وضعتْ جراني جسد إسك على الفراش وأشعلتْ نار التدفئة، وأحضرتِ الماعز وحلبتهم وأنهتْ أعمال المنزل الليلية.

تأكدتْ من أن جميع النوافذ مفتوحة، وعندما بدأ الظلام يحل، أضاءت مصباحًا ووضعته على عتبة النافذة.

وعمومًا، لم تنمْ جراني ويذرواكس أكثر من ساعات محدودة في الليلة، واستيقظتْ ثانية في منتصف الليل. لم تتغيرِ الحجرة، رغم أن المصباح كان له نظام شمسي صغير خاص به من العثث الغبي جدًّا.

وعندما استيقظتْ مرة أخرى في الفجر، كانت الشمعة قد احترقتْ مدةً طويلة، وإسك ما زالت نائمة نومَ المستعير الضحل الذي لا أمل في استيقاظه.

وعندما أخذتِ الماعز إلى حظيرتهم، نظرتْ إلى السماء بإمعان.

حلَّت الظهيرة، وكان الضوء يمتصُّ تدريجيًّا من يوم آخر، كانت تسير على أرض المطبخ بلا هدى، وتلقي بنفسها في نوبات محمومة من الأشغال المنزلية بين فينة وأخرى؛ فحفرتْ بفظاظة لتخرج أديم الأرض العتيق المحشور في شقوق البلاط، وكشطتِ الجدار الخلفي للمدفأة بصرامة شديدة مخلصة إياها من السخام الشَّتْوِي والقراد الأسود، وطردتْ جحر فئران من الجزء الخلفي للخزانة بلطف، لكن بحزم، وقذفت به في حظيرة الماعز.

حل الغروب.

كان ضوء عالم القرص طاعنًا في السن وبطيئًا وثقيلًا، شاهدتْه جراني من باب الكوخ وهو ينحدر من الجبال ويتدفق إلى الأنهار الذهبية في الغابة، وقد صبَّ في تجاويف هنا وهناك حتى تلاشى واختفى.

نقرتْ بأصابعها بحدة عِضادة الباب وهي تدندن بلحن قصير مرير. جاء الفجر، وكان الكوخ فارغًا إلا من جسد إسك الصامت والمسجى دون حَراك على الفراش.

لكن بينما كان الضوء الذهبي يتدفق ببطء خلال عالم القرص كأول تجديد للمد والجزر فوق السهول الطينية، حلَّق النسر أعلى قبة السماء وضرب الهواء إلى أسفل بضربات أجنحة بطيئة وقوية.

كان العالم بأسره ممتدًّا أسفل إسك؛ كل القارات وجميع الجزر والأنهار كافة، وخاصة الحلقة العظيمة لمحيط الحافة.

لم يكن هناك بالأعلى أي شيء آخر ولا حتى صوت.

تعالتْ إسك في شعورها، راغبةً في بذل عضلاتها الواهنة لجهد أكبر. لكنْ كان هناك شيء ما خاطئ؛ بدت أفكارها كأنها تتجول خارجةً عن سيطرتها، وتختفي. انصبَّ الألم والابتهاج والإرهاق في ذهنها، وبدا كأنَّ هناك أشياءَ أخرى تنسكب إلى الخارج في الوقت نفسه. طارتِ الذكريات في مهب الريح، وبأقصى ما يمكنها التشبث بفكرة، تبخرتِ الفكرة ولم تترك شيئًا وراءها.

كانت تخسر أجزاءً كبيرة من نفسها ولم تستطعْ تذكر ما كانت تخسره. هلعتْ وعادتْ إلى الأشياء التي كانت واثقة منها...

أنا إسك، وقد سرقتُ جسدَ النسر وإحساسَ الريح في الريش والجوع والبحث عن مكان بلا سماء بالأسفل...

حاولتْ ثانية؛ أنا إسك ألتمس مسار الريح وألم العضلات وشق الهواء وبرده...

أنا إسك أطير عاليًا فوق هواء أبيض رطب مبلل، فوق كل شيء، السماء رقيقة...

أنا أنا.

كانت جراني في الحديقة، بين خلايا النحل. ضربتْ رياح الصباح الباكر تنورتها، انتقلت من خلية إلى أخرى وهي تنقر أسطحها. وقفت في أدغال نبات لسان الثور ورحيق النحلة التي زرعتهم حولهم ومدَّت يديها أمامها وغنَّت شيئًا ما بنبرات عالية، لدرجة أن لا يمكن لأي شخص عادي سماعها.

إلا أن طنين النحل قد تصاعد من الخلية، ثم أصبح الهواء كثيفًا فجأة وفيه أشكال ثقيلة كبيرة الأعين وعميقة الأصوات من ذكور النحل. حلقوا فوق رأسها مضيفين صوتَ طنينهم الجهير إلى ترنيمها.

ثم ذهبوا، محلقين في النور المتزايد فوق الأحراج وجروْا بعيدًا تجاه الشجرة.

من المعروف جيدًا، على الأقل بالنسبة إلى المشعوذات، أن جميع مستعمرات النحل مجرد جزء واحد من المخلوق المسمى الطرد[1] بالطريقة نفسها التي يعتبر بها النحل المنفرد خلايا مكونة لعقل الخلية، لم تخلطْ جراني أفكارها بالنحل كثيرًا، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى أن عقل الحشرات غريب، وأشياء غريبة لها طعم كطعم القصدير، ولكنَّ السبب الرئيسي هو اعتقادها بأن الطرد أكثر ذكاء منها.

كانت تعلم أن ذكور النحل سيصلون قريبًا إلى مستعمرات النحل البري في عمق الغابة، وفي غضون ساعات، سيخضع كل ركن في المروج الجبلية لفحص دقيق فعلًا. وكل ما يجدر بها فعله هو الانتظار.

---

(1) طرود النحل هي خلايا منشقَّة عن الخلية الأصلية لارتفاع عدد النحل في الخلية، وتتكون من ملكة قديمة تغادر الخلية لتضع البيض الجديد، مصطحبة بعض الشغالات وعددًا قليلًا من الذكور. (المترجمة)

في الظهيرة، عادت ذكور النحل وقد قرأتْ جراني في الأفكار الحمضية الحادة لعقل الخلية أن ليس هناك إشارة تدل على وجود إسك.

عادت إلى برودة الكوخ وجلست على الكرسي الهزاز محدقة إلى المدخل.

لقد كانت تعرف ما الخطوة التالية. وقد كرهتِ الفكرة للغاية، لكنها جلبت سلمًا قصيرًا وتسلقته وهو يصدر صريرًا حتى صعدت إلى السطح. وسحبتِ العصا من مخبأها في القش.

كانتِ العصا باردة كالثلج، ومدخَّنة.

قالت جراني: «إنها فوق مناطق الثلوج إذن».

تسلقتْ هابطة الدرج، وأقحمتِ العصا في حوض الأزهار وحدقتْ إليها وقد ساورها شعور بغيض بأن العصا تصرخ بها.

انفجرتْ جراني فيها قائلة: «لا تحسبي أنكِ فزتِ، لأن هذا لم يحدث، كل الأمر أنني لا أملك وقتًا للبحث في الأرجاء، ولا بُدَّ أنكِ تعرفين مكانها، فأنا آمركِ أن تأخذيني إليها!».

نظرتْ إليها العصا بطريقة جامدة.

قالت جراني: «آمرك بقوة...».

ثم توقفتْ، لقد كانت توسلاتها واهنة قليلًا، أكملت: «آمرك بقوة الصخر والحصا!».

النشاط أو الحركة أو الحيوية ليست أوصافًا دقيقة تمامًا لوصف استجابة العصا.

حكَّتْ جراني ذقنها وتذكرتِ الدرس الصغير الذي يتعلمه جميع الأطفال: ما الكلمة السحرية؟

- اقترحتها قائلة: «من فضلك!».

ارتجفتِ العصا وارتفعتْ قليلًا عن الأرض، واستدارتْ في الهواء بحيث تعلقتْ بشكل مغرٍ على ارتفاع الخصر، لقد سمعتْ جراني بأن عِصي المقشات أصبحتْ من جديد صيحةً كاسحةً بين المشعوذات الأحدث سنًّا، لكنها لم تتماشَ معها. لم يكنْ هناك سبيل لأن يبدو الجسد بمظهر محترم وهو يتقدم بسرعة الريح على متن إحدى الأدوات المنزلية. إضافة إلى أن الأمر قد بدا قاسيًا بلا ريب.

لكنَّ هذا لم يكن وقتَ التفكير في الاحترام، توقفتْ فقط لخلع قبعتها من الخطاف المعلق خلف الباب، سارعت صعودًا على العصا وجلست بأفضل نحو تستطيعه، في وضعية الجلوس الجانبي طبعًا، وسيطرت على تنورتها بحزم وحشرتها بين ركبتيها.

قالت: «حسنًا، الآن واااااااااا...».

خلال الغابة، تحطمتِ الحيواناتُ وتناثرتْ بمرور الظل فوقها في سماء المِنْطَقة، وهي تبكي وتشتم. أعلى قمم الأشجار، تشبثتْ جراني بمفاصل بيضاء وساقاها النحيلتان ترفسان بطريقة عشوائية إذ تعلمت دروسًا هامة عن مراكز الجاذبية والاضطرابات الجوية. انطلقتِ العصا إلى الأمام غير مكترثة بصراخها.

وبحلول الوقت الذي ظهرتْ فيه المروج المرتفعة، تعايشتْ معها إلى حد ما، وهو ما يعني أنها تشبثتْ بركبتيها ويديها شريطة ألا تمانع أن تنقلب رأسًا على عقب، فعلى الأقل كانت قبعتها مفيدةً حيث شكَّلتْها ديناميكية الهواء.

غاصتِ العصا بين المنحدرات المظلمة وعلى طول الأودية الجرداء حيث قيل إن أنهار الثلوج تدفقتْ فيها يومًا ما في عصر عمالقة الجليد. أصبحَ الهواء رقيقًا وحادًّا في الحلق.

توقفوا فجأةً فوق جرف ثلجي، سقطتْ جراني واستلقت تلتقط أنفاسها على الثلج، وهي تحاول تذكر لما كان عليها أن تخوض كل ذلك.

كانت هناك حُزْمة من الريش تحت ركام على بعد أمتار قليلة. وعندما اقتربتْ جراني منها، رفع النسر رأسه بقلق بالغ وحدق إليها بعينين شرستين مذعورتين. حاول الطيران وانقلب، وعندما مدتْ يدها لتلمسه، أخذ من يدها مثلثًا نظيفًا من اللحم.

قالت الجدة بهدوء دون أن توجِّه كلامها لأحد بعينه: «أفهم».

نظرتْ حولها ورأتْ جلمودًا ذا حجم مناسب، اختفتْ خلفه من باب الاحتشام وعاودت الظهور وفي يدها تنورة داخلية. تقلب الطائر فيها مفسدًا عدة أسابيع من التطريز الدقيق الرقيق، لكنها تمكنتْ من شد الوثاق حوله وحمله حتى تتمكن من تفادي هجماته المتفرقة.

التفَّتْ جراني إلى العصا التي كانت منتصبة فوق الجليد الآن.

قالت ببرود: «عليَّ العودة».

وقد تبيَّن أنهم في وادٍ منحدر يشرف على منخفض يبلغ عدة مئات من الأقدام من الصخور السوداء الحادة.

قالت بإذعان: «حسنًا إذن، لكنكِ ستطيرين ببطء أتفهمين؟ ولن تصعدي عاليًا».

في الواقع، ولأنها أصبحتْ متمرسةً أكثر، وربما لأن العصا أولتِ الأمر المزيد من الاهتمام كذلك، فقد كان طريق العودة هادئًا تقريبًا. كانت جراني مقتنعة بأنها قد تكره الطيران بمرور الوقت، بدلًا من مجرد الاشمئزاز منه. كان كل ما تحتاج إليه هو طريقة ما لمنع نفسها من الاضطرار إلى النظر إلى الأرض.

تمدَّد النسر على خرقة من السجاد مفروشة أمام الموقد الخالي، وشرب بعض الماء الذي غمغمتْ عليه جراني ببعض التعاويذ التي اعتادت قول إنها تُبهر المرضى، لكنكَ لن تعرف أبدًا، فقد يكون بها بعض القوة، كما ابتلع النسر بعض شرائح اللحم النيئ كذلك.

ما لم تفعله هو إظهار أدنى علامة تدل على الذكاء، تساءلت أكانت قد حصلتْ على الطائر الصحيح، لقد غامرت.

نقرة أخرى وحدقتْ بقوة إلى عينيه البرتقاليتين الشريرتين، وحاولت إقناع نفسها بهذه الطريقة في أعماقها بوجود وميض صغير غريب كامن خلف تلك النظرة.

بحثتْ جراني داخل دماغ النسر، كان عقله ما زال هناك بالدرجة الكافية حادًّا ويقظًا، لكنْ كان هناك شيء آخر كذلك. العقل لا لون له بالتأكيد، لكنْ مع ذلك فقد بدتْ أوتار عقل النسر كأنها أرجوانية، وكان بينها متداخل معها أوتار فضية باهتة.

لقد تعلمتْ إسك بعد فوات الآوان أن العقل يشكل الجسد، وأن الاستعارة شيء لكنَّ حلم الاستيلاء الحقيقي على جسد آخر له عقاب منه فيه.

جلستْ جراني واهتزتْ، لقد كانت في حيرة، فقد عرفت ذلك. كان تفكيك العقول المتشابكة يفوق قدرتها، بل يفوق قدرة أي قوة في رامتوبس وتفوق حتى...

لم يكنْ هناك صوت، لكنْ ربما حدث تغيُّر في تركيبة الهواء، نظرت إلى العصا التي عانت في سبيل العودة إلى الكوخ، وقالت بحزم: «لا».

ثم فكرتْ: من المستفيد مما قلتُه؟ لمصلحتي؟ هناك قوة هنا، لكنها ليست نوعي من القوة.

لا يوجد حولي غيرها، ورغم ذلك. فحتى الآن قد أكون متأخرة جدًّا. ربما لم أكن مبكرة بما فيه الكفاية قطُّ.

- مدَّت يدها مرة أخرى إلى رأس الطائر لتهدئة مخاوفه وتبديد فزعه، سمح لها بحمله وجلس على معصمها على نحو مربك، ومخالبه مشدودة بما يكفي لسحب الدم.

أخذتْ جراني العصا وصعدتْ بها إلى الطابق العلوي حيث ترقد إسك على الفراش الضيق في غرفة النوم المنخفضة بسقفها المعرَّج القديم. وضعتِ الطائر على حافة السرير وحوَّلت انتباهها إلى العصا. ومرة أخرى تحولتِ المنحوتات تحت مرآها ومسمعها ولم تكشفْ قطُّ عن شكلها الحقيقي.

لم تكنْ جراني غريبة عن استخدامات القوة، لكنها اعتمدتْ على الضغط اللطيف بمكر لتوجيه مجرى الأمور. لكنها لم تضطلع بالأمر على هذا النحو، طبعًا كانت ستقول إذا كنتَ تعرف أين تبحث، فهناك دومًا وسيلة للضغط. كانت القوة الكامنة في العصا قاسية وشعواء؛ إنها المادة الخام للسحر مستخلصة من القوى التي تحرك الكون نفسه.

سيكون هناك ثمن، وجراني تعرف ما يكفي عن السحر ليجعلها على يقين بأن الثمن سيكون فادحًا، لكنْ إن خفتَ دفع الثمن فلماذا ارتدتَ المتجر؟

تنحنحتْ وتساءلتْ عما يفترض بها فعله بعد ذلك، ربما إذا...

ضربتْها القوة كأنها قُذِفَتْ بنصف طوبة، كان بوسعها الشعور بها تأخذها وترفعها، ولذا دُهِشَتْ حين نظرتْ إلى الأرض ورأتْ قدميها ما زالتا ثابتتين على ألواح الأرضية. حاولتْ أن تخطو إلى الأمام واندفعتِ الشِّحنات السحرية في الهواء حولها. مدتْ يدها لتثبيت نفسها بالاستناد إلى الحائط؛ فخفقتِ العارضة الخشبية القديمة تحت يدها وبدأتْ تنبت

الأوراق. اجتاح إعصار من السحر الغرفة، ملتقطًا الغبار مشكلًا به أشكالًا في غاية الإزعاج لمدة وجيزة، وانكسر الطَّست والإبريق الموضوعان على المغسلة والمزينان بنقشة بكرات ورد مذهلة، متحولين إلى شظايا. وتحت السرير، تحوَّل الفرد الثالث من تمثال الثلاثي الصيني التقليدي إلى شيء مروِّع وتسلل هاربًا.

فتحتْ جراني فمها لتسبَّ، وأمعنتِ في التفكيرَ في الأمر عندما رأت كلماتها تزدهر في سحب لها حواف من قوس قزح.

نظرت إلى الأسفل إلى إسك والنسر الذي بدا غافلًا عن كل ذلك، وحاولت التركيز وتركت نفسها تنزلق في دماغه واستطاعتْ رؤية أوتار العقل من جديد، نُسِجَتِ الألياف الفضية عن قرب وثيق بالأرجوانية حتى إنهما قد اتخذتا الشكل نفسه. لكنِ الآن بات بوسعها رؤية أين تنتهي الأوتار ومن أين يمكن لشد أو جذب حكيم تفكيكهما عن بعضهما. لقد كان جليًّا بلا مراء أنها سمعت نفسها تضحك، وأن صوت ضحكتها انعطف بعيدًا في صورة ظلال برتقالية وحمراء وتلاشى في السقف.

مرَّ الوقت، وحتى مع خفقان القوة داخل رأسها، فقد كانت مهمة مضنية للغاية، مثل إدخال الخيط في عين الإبرة على ضوء القمر. لكنْ في نهاية المطاف، كان في حوزتها حَفنة فضية. في العالم البطيء الثقيل الذي بدتْ فيه الآن، أخذتْ عقدة الأوتار الفضية وقذفتها على إسك بتمهل. أصبحتْ مثل سحابة ودارت كدُوَّامة ثم تلاشت.

كانت على علم بالضوضاء الحادة الصاخبة والظلال على حافة البصر. حسنًا، فقد حدث ذلك للجميع عاجلًا أو آجلًا، فهم قادمون مرسمون بشِحنات السحر كالعادة، ما عليك سوى تعلم كيفية تجاهلهم.

استيقظتْ جراني وضوء الشمس الساطع يقذف عينيها، كانتْ ملقاةً أمام الباب، وشعرتْ كأن جسدها كله يعاني وجعَ الأسنان.

مدتْ يدًا واحدةً على نحو أعمى، ووجدتْ حافة المغسلة، وسحبتْ نفسها إلى وضعية الجلوس. لم تتفاجأْ حقًّا حين رأتِ الطَّست والإبريق يبدوان تمامًا كما كانا دائمًا، وفي الواقع تغلَّب الفضول المطلق على آلامها وألقت نظرة خاطفة تحت السرير للتحقق من أن الأشياء كانت على حالها الطبيعي فعلًا.

- كان النسر ما زال منحنيًا على حافة السرير. وعلى السرير، كانت إسك نائمةً ورأتْ جراني أنه نوم حقيقي وليس سكونَ الجسد الشاغر.

كان كل ما يشغلها الآن هو تمني ألا تستيقظ إسك برغبة لا تقاوم في الانقضاض على الأرانب.

حملتِ الطائر الذي لا حول له إلى الطابق السفلي وأطلقت سراحه ليخرج من الباب الخلفي. طار بتثاقل وحطَّ على أقرب شجرة واستقرَّ ليرتاح. ساوره شعور أنه لا بدَّ أن يحمل ضغينة لشخص ما من أجل حياته ولكنه لا يتذكر لماذا.

*

فتحتْ إسك عينيها وحدقت إلى السقف مدة طويلة. فعلى مدار الأشهر، أصبحتْ على دراية بكل نتوء وصدع على جص السقف، وهو ما خلق مشهدًا خلَّابًا مقلوبًا رأسًا على عقب كانت تُعمِّره بسكان حضارات خاصة ومركَّبة.

ازدحم عقلها بالأحلام، سحبتْ ذراعها من تحت الملاءات وحدقت إليها، متسائلةً لمَ لم تكن مغطاة بالريش، كان كل شيء محيرًا للغاية.

دفعتِ الأغطية إلى الوراء وأرجحتْ ساقيها إلى حافة السرير وبسطتْ جناحيها في اتجاه الريح وانطلقتْ إلى العالم...

صوت الارتطام على أرضية غرفة النوم دفع جراني إلى الهرولة على الدرج، لتأخذها بين ذراعيها وتضمها بقوة وكان الفزع يضربها. كانت تتأرجح على عقبيها ذَهَابًا وإيابًا، مصدرةً أصواتَ تهدئة لا معنى لها.

نظرت إسك إليها وقناع الرعب يكسو وجهها.

- يمكنني الشعور بنفسي تتلاشى!

همهمتْ جراني: «نعم، نعم، أنتِ أفضل الآن».

صرختْ إسك: «أنتِ لا تفهمين! عجزتُ عن تذكر اسمي حتى!».

- لكن يمكنكِ التذكر الآن.

ترددتْ إسك وهي تعيد النظر فيما ستقول: «نعم، نعم الآن، طبعًا».

- لذلك فلا ضرر.

- لكن...

تنهدتْ جراني قائلة: « لقد تعلمتِ شيئًا».

وظنتْ أنه من المأمون إقحام لمسة من الصرامة في صوتها، وأكملت قائلة: «يقولون إن المعرفة القليلة خطِرة، لكنها ليست بنصف سوء الكثير من الجهل».

- لكن ماذا حدث؟

- لقد ظننتِ أن الاستعارة ليست كافية، فاعتقدتِ أن من الجميل سرقة جسد آخر. لكنْ لا بدَّ أن تعلمي أن الجسد مثل... مثل قالب هلامي؛ إنه يضفي شكلًا على محتوياته، أفهمتِ؟ لا يمكنكِ أن تكوني بعقل فتاة في جسد نسر، ليس وقتًا طويلًا بأي حال.

- أأصبحتُ نسرًا؟

- بلى.

- لم أكنْ أنا على الإطلاق؟

فكرتْ جراني قليلًا، فقد كان عليها التوقف دائمًا عندما قادتها المحادثات مع إسك إلى تجاوز مفردات الشخص المهذب.

وقالت أخيرًا: «لا، ليس بالطريقة التي تقصدينها، مجرد نسر ربما مع بعض الأحلام الغريبة أحيانًا، مثلما حلمتِ بأنك تطيرين، ربما قد يتذكر النسر المشي والكلام».

- أوه.

قالتْ جراني وهي تبتسم لها ابتسامة رقيقة: «وقد انتهى كل ذلك الآن، فأنتِ ذاتكِ الحقيقية مجددًا، وقد استعاد النسر عقله. إنه يجلس على شجرة خشب الزان الكبيرة بجانب المرحاض، أودُّ منكِ أن تضعي له الطعام».

قرفصت إسك محدقة إلى نقطة ما وراء رأس جراني وقالت وهي تتابع حديثها: «لقد كانت ثمة أمور غريبة».

دارت جراني حولها.

قالت إسك: «أقصد أني رأيتُ أشياءَ تشبه الحلم».

كانت صدمة العجوز واضحةً كالشمس إلى حد جعل إسك تتردد وتخاف من أن تكون قد قالتْ شيئًا خاطئًا.

قالت جراني بثبات: «أي نوع من الأشياء؟».

- من قبيل المخلوقات الكبرى، وكل أنواع الأشياء جالسين حولي.

- أكانت مظلمة؟ أعني تلك الأشياء، أكانت مظلمة؟

- بل كانتْ نجومًا على ما أعتقد، جراني؟

كانت جراني ويذرواكس تحدق إلى الحائط.

أعادت إسك نداءها: «جراني؟».

هزت جراني نفسها وقالت: «هووف؟ نعم؟ أوه. نعم، أفهم، والآن أريدك أن تنزلي إلى الطابق السفلي وتحضري لحم الخنزير المقدد من حجرة المؤن وتضعيه للطائر، أتفهمين؟ سيكون من الجيد شكره كذلك، وما يدريكِ».

عندما عادتْ إسك، كانت جراني تدهن الخبز بالزبدة، سحبتْ إسك مقعدها إلى المنضدة، لكنَّ العجوز لوحتْ لها بسكين الخبز وقالت: «الأمور المهمة أولًا، قفي، واجهيني».

فعلتْ إسك ما قالته وهي متحيرةً، وضعتْ جراني السكين على لوح الخبز وهزت رأسها.

ثم قالت للعالم بأسره: «سحقًا، لا أعلم ما طريقتهم لفعلهم ذلك، لا بدَّ أن هناك نوعًا من الطقوس، لو كنتُ أعرف سحرةً، عليهم دائمًا تعقيد الأمور...».

- ماذا تقصدين؟

بدا أن جراني تتجاهلها، لكنها توجهت إلى الزاوية المظلمة بجوار الخزانة، وقالت: «ربما عليكِ وضع قدم واحدة في دلو من العصيدة الباردة وقفاز واحد وكل هذه الأمور، لا أودُّ فعل ذلك، لكنهم يلوون ذراعي».

- ما الذي تتحدثين عنه يا جراني؟

استلتِ المشعوذة العجوز العصا من ظلها ولوَّحت بها بغموض إلى إسك وقالت: «ها هي، إنها لكِ، خذيها. آمل فقط أن يكون ذلك هو الفعل الصائب».

في الواقع، عادة ما كان تقديم العصا إلى ساحر مبتدئ طقسًا مؤثرًا للغاية، وخاصة إن كانت العصا موروثة من ساحر أكبر عمرًا. فوفق

تقاليد الأجداد، فقد كان هناك ابتلاء طويل ومخيف ينطوي على أقنعة وقلانس وسيوف، وحلف أيمان مهيبة بشأن قطع ألسنة الناس وتمزيق أحشائهم على يد طيور برية، وتناثر رماد جثامينهم في الرياح الثمانية وما إلى ذلك. وعقب عدة ساعات من مثل هذه الأمور، يمكن قبول المبتدئ في أخوية الحكماء والمستنيرين.

كما كان هناك خطاب طويل كذلك، حصلتْ جراني على جوهره باختصار وبمحض المصادفة.

أخذتْ إسك العصا وحدَّقت إليها، وقالت وهي في حيرة من أمرها: «إنها في غاية الجمال. المنحوتات جميلة، ما فائدتها؟».

- اجلسي الآن، وأنصتي كما ينبغي مرةً واحدةً، في اليوم الذي ولدتِ فيه...

... وهذا هو شكلها.

أمعنت إسك في النظر إليها، ثم إلى جراني وقالت: «أيجب أن أكون ساحرًا؟».

- نعم، لا، لا أعرف.

قالت إسك بنبرة تأنيب: «هذه ليست إجابة يا جراني، أأنا أم لا؟».

قالت جراني بفظاظة: «لا يمكن للنساء أن يكنَّ سحرة، إنه أمر ضد الطبيعة. فقد تكونين حدادةً كذلك».

- في الواقع، لقد شاهدتُ أبي يعمل ولا أفهم لماذا...

قالت جراني على عجالة: «اسمعي، لا يمكن أن تكون إحداهنَّ ساحرًا أنثى مثلما لا يمكن أن يكون أحدهم مشعوذًا ذكرًا، لأن...».

قالت إسك بخنوع: «لقد سمعتُ بمشعوذين ذكور».

- المشعوذين!

- أظن ذلك.

قالت جراني محتدمة: «أعني لا يوجد مشعوذون ذكور، بل مجرد رجال سخفاء. إذا كان الرجال مشعوذين، فسيكونون سحرة، الأمر كله يرجع إلى...».

نقرت رأسها وأكملت: «...علم الدماغ؛ كيفية عمل أدمغتهم، إن أدمغتهم تعمل على نحو يختلف عن أدمغتنا، افهمي. إن سحرهم كله أرقام وزوايا وحواف وما تفعله النجوم، كما لو كان ذلك مهمًّا حقًّا. والأمر كله هو القوة».

توقفتْ جراني ونقَّبت عن كلمتها المفضلة لوصف كل ما احتقرتْه في سحر السحرة: «...الهندسة الرياضية».

قالت إسك بارتياح: «كل شيء على ما يرام إذن، سأبقى هنا وسأتعلم الشعوذة».

قالت جراني بكآبة: «من الجيد جدًّا أنك قلتِ ذلك، لكنني لاأعتقد أن الأمر سيسير بهذه السهولة».

- لكنكِ قلتِ إن الرجال يمكن أن يكونوا سحرة، وأن النساء يمكن أن يَكُنَّ مشعوذات، ولا يمكنْ للعكس أن يكون.

- صحيح

قالت إسك وهي يغمرها شعور بالانتصار: «حسنًا، إذن، فكل شيء قد حُلَّ، أليس كذلك؟ لا يسعني إلا أن أكون مشعوذة».

أشارت جراني إلى العصا، هزتْ إسك كتفيها وقالت: «إنها مجرد عصا قديمة».

هزت جراني رأسها، ورمشت إسك.

- لا؟

- لا.

- ولا يمكنني أن أكون مشعوذة؟

- لا أعرف ما يمكنكِ أن تكونيه، احملي العصا.

- ماذا؟

- أمسكي العصا الآن، لقد أخمدتُ نار الموقد، أشعليها.

بدأتْ إسك في قول: «والقداحة...».

- لقد قلتِ لي يومًا بأن هناك طرقًا أفضل لإشعال النيران، أريني.

وقفتْ جراني، وقد بدأتْ تكبر في عَتَمة المطبخ حتى ملأتْ كل العَتَمة بظلال مراوغة شعثاء تنذر بالخطر. وحدقتْ عيناها إلى عيني إسك.

أمرتها وفي صوتها برودة الثلج: «أريني».

قالت إسك بقلة حيلة: «لكن...».

أمسكتها العصا الثقيلة وضربتْ كرسيها ليرجع وهي في عجلة من أمرها.

- أريني.

وبصرخة إسك التي دارت في الأرجاء، اندلعتِ النيران من أطراف أصابعها وانطلقتْ خلال الغرفة، انفجرتِ النيران بقوة دفعتِ الأثاث في جميع أنحاء الغرفة، وتدحرجتْ كرة من الضوء الأخضر العنيف في المدفأة.

تسارعتْ نقوش متغيرة خلال المدفأة وهي تدور محدثةً أزيزًا على الأحجار التي تصدعت ثم انهارت، قاوم الجدار الحديدي الخلفي للمدفأة ببسالة ثوانيَ قبل أن يذوب كالشمع، ثم تركتِ النيران مظهرًا نهائيًّا يتمثل في لطخة حمراء لكرة نارية ثم اختفت. وبعد لحظة، بدأتِ الغلاية تمر بما حدث للمدفأة نفسه.

فقط عندما بدا أن المدخنة ستحذو حذوهما، استسلم حجر الموقد، وببقبقة أخيرة اختفتْ كرة النار عن الأنظار تمامًا.

أشارتِ الخشخشة العرضية أو نفث البخار إلى مروره خلال الأرض. ما عدا ذلك، فقد كان هناك صمت، الصمت الصاخب الذي يعقب الضوضاء التي شوَّشت السمع. وبعد السطوع الشعاعي، أصبحتِ الغرفة ظلامًا دامسًا.

في النهاية، زحفتْ جراني من خلف المنضدة وتسللتْ مقتربة من الحفرة بكل ما امتلكتْه من جرأة والتي كانت لا تزال محاطةً بقشرة من الحُمَم. قفزتْ متراجعة فيما انتشرت سحابة أخرى من البخار فائق السخونة.

قالت على نحو لا يبدو عليه الأهمية: «إنهم يقولون إن ثمة منجمَ أقزام تحت رامتوبس، يا إلهي لكنهم التافهون الصغار يشاركون في مفاجأة».

لكزتْ بِركةَ الحديد المنصهر المبرَّد الصغيرة التي استحالت إليها الغلاية، وأضافت: «عار على ما حصل لجدار المدفأة الخلفي، لقد كان عليه بُوم كما تعرفين».

ربتتْ شعراتها المحروقة بحذر شديد بيد ترتجف.

- أعتقد أن هذا يستدعي كوبًا جميلًا من... كوبًا جميلًا من الماء البارد.

جلست إسك تنظر إلى يدها في عجب، وقالت في النهاية: «كان هذا سحرًا حقيقيًّا، وقد فعلتُ ذلك».

صححتْ جراني قائلة: «نوع من السحر الحقيقي، لا تنسي ذلك ولا تفعليه طَوال الوقت كذلك. فإذا كان ذلك بداخلك، فعليكِ تعلم التحكم فيه».

- هل يمكنكِ تعليمي؟

- أنا؟ لا!

- كيف سأتعلم إن لم يعلمني أحد؟

- عليكِ الذَّهَاب حيثما أمكنهم التعلم. مدرسة السحرة!

- لكنكِ قلتِ...

توقفتْ جراني عن ملء إبريق من دلو الماء.

تكلمتْ جراني بسرعة: «لا، لا تأبهي بما قلتُه أو بالرأي العام أو أي شيء. في بعض الأحيان، ما عليكِ سوى الذَّهَاب في المسارات التي تأخذك بها الأمور، وأنا أراهن على أنكِ ستذهبين إلى مدرسة السحرة بطريقة أو بأخرى».

وضعتْ إسك قولها بعين الاعتبار، وقالت أخيرًا: «أتقصدين أن هذا قدري؟».

هزت جراني كتفيها وقالت: «شيء من هذا القبيل، ربما، من يدري؟».

في تلك الليلة، وبعدما ذهبت إلى الفراش بوقت طويل، ارتدتْ جراني قبعتَها وأشعلتْ شمعةً جديدةً، وأفرغتِ المنضدة وسحبتْ صندوقًا خشبيًّا صغيرًا من مخبأه السري في الخزانة، وكانت فيه زجاجة حبر وريشة أكل عليه الدهر وشرب وبضع أوراق.

لم تكنْ جراني في غاية السعادة وهي تواجه عالم الأحرف؛ جحظت عيناها وعلق لسانها وتشكلت حبات صغيرة من العرق على جبينها، لكنَّ

القلم قد شقَّ طريقه على الصفحة مصاحبًا ببعض «سحقًا» الصامتة بين الفينة والأخرى أو «تبًّا لهذا الشيء».

تقرأ الرسالة على النحو التالي، رغم افتقار هذا الإصدار إلى الختم الشمعي واللطخات والشطب والبقع الرطبة التي تكون في الخطابات الأصلية.

إلى الساير رأيس السحرة، بالجمعة الخافية، أتمن أن تكون بيخير، ارسل إليك المنتصرة إسكارينا سميث، إينها زات قودرات ساحرية لكينها قد تاحتاج لأبعاد مما أعرفاه، إنها ماهيرة ونضيفة وموتمكنة من فنون منزليا موتنوعة، سأرسل نوقود معها ارجو ان تعيش طويل وتنهى ايامك في سالام وهيدوء السيدا ازميريلدر ويذرواكس الموشعوزا.

رفعتْ جراني الرسالة إلى ضوء الشمعة ودققتْ النظر إليها، لقد كانت رسالة جيدة. وقد عرفتْ كلمة «موتنوعة» من الروزنامة التي كانت تقرأها كل ليلة، كان تتوقع قدومها في تركيبات مثل «أوبئة متنوعة» أو «سوء حظ متنوع» لم تكن جراني متيقنة تمامًا مما تعنيه، لكنها بدتْ كلمة وجيهة مع ذلك.

أغلقته بالشمع المذاب ووضعتْه في الخزانة، حيث يمكنها أن تتركه لساعي البريد ليأخذه عندما تذهب إلى القرية للنظر في أمر غلاية جديدة.

في صباح اليوم التالي، عانتْ جراني قليلًا في اختيار ردائها، اختارت فستانًا أسودَ مزخرفًا بضفدعة وخفاش وعباءة مخملية كبيرة، أو على الأقل عباءة مصنوعة من نوع من المخمل بعد ثلاثين عامًا من الارتداء المتكرر، وقبعة العمل الحادة المعذبة بدبابيس القبعات.

كانت زيارتهم الأولى إلى نحات الحجارة لاستبدال حجر الموقد، ثم توجهوا إلى سميث.

لقد كان اجتماعًا طويلًا عاصفًا. تجولتْ إسك في البستان وتسلقتْ إلى مكانها القديم على شجرة التفاح، فيما هبتْ من المنزل صرخات والدها وعويل والدتها، ووقفات صامتة تعني أن جراني ويذرواكس كانت تتكلم بهدوء، فيما اعتبرته إسك «مجرد» صوتها، كان للعجوز أحيانًا أسلوب منبسط ومدروس. لقد كان نمط الصوت الذي يستخدمه الخالق على الأرجح، سواء أكان فيه سحر أم علم الأدمغة فقد استبعد أي احتمالية للجدل. لقد أوضحتْ تمامًا أن ما تتحدث عنه هو ما يجب أن يسير عليه الأمر تمامًا.

هزَّ النسيم الشجرة برقَّة، جلست إسك على فرع شجرة مكتوفة الأيدي تأرجح ساقيها.

فكرتْ في السحرة، فهم لم يأتوا إلى باد آس في أغلب الأحيان، ورغم ذلك فهناك عدد لا بأس به من القصص عنهم. تذكرتْ أنهم كانوا حكماء وطاعنين في السن عادة، وكانوا يمارسون أسحارًا جبارة ومعقدة وغامضة، وكان لديهم جميعًا تقريبًا لِحى، فقد كانوا كلهم رجالًا دون استثناء كذلك.

لقد كانت على أرض أكثر صلابة مع المشعوذات، لأنها اعتادت الذَّهَاب مع جراني في زيارة اثنين من قرى المشعوذات على امتداد التلال، وعلى أي حال فقد احتلتِ المشعوذات مكانةً بارزة في فلكلور

رامتوبس. تذكرت أن المشعوذات كنَّ ماكرات وطاعنات في السن عادةً، أو على الأقل يحاولن أن يبدين كذلك، ويمارسن بعض الأسحار الأساسية المريبة قليلًا منزلية الصنع، ولبعضهم لِحى، وقد كنَّ نساءً دون استثناء كذلك.

كانت هناك مشكلة أساسية لا تستطيع حلها في كل ذلك، لماذا لا...

اندفع سيرن وجولتا بسرعة وعنف في الطريق ووصلا بالدفع والتدافع إلى الوقوف تحت الشجرة، حدقا النظر إلى أعلى إلى أختيهما بمزيج من الافتتان والازدراء. فقد كان للسحرة والمشعوذات موضع رهبة، لكنَّ الأخوات لسنَ كذلك. وبطريقة ما، فمعرفة أن أختك تتعلم أن تصبح ساحرة بشكل ما، يقلل من قيمة المهنة بأكملها.

قال سيرن: «لا يمكنكِ إلقاء التعاويذ، أيمكنكِ؟».

قال جولتا: «طبعًا لا يمكنكِ، ما هذه العصا؟».

تركتْ إسك العصا مستندة إلى الشجرة، نخزها سيرن بحذر.

قالت إسك بسرعة: «لا أريدكَ أن تلمسها، من فضلكَ إنها ملكي».

عادة ما يكون سيرن سريع في ردود أفعاله، لكنَّ يده توقفتْ في منتصف المسافة، وهذا ما أثار دهشته.

تمتم ليخفي ارتباكه: «لم أكنْ أرغب فيها على أي حال، فهي ليستْ سوى عصا قديمة».

سأل جولتا: «أصحيح أنه بإمكانكِ إلقاء التعاويذ؟ سمعنا جراني تقول إنك تستطيعين».

وأضاف سيرن: «لقد استرقنا السمع من خلف الباب».

قالت إسك بأريحية: «لكنكَ قلت إنني لا أستطيع».

قال جولتا وقد احمرَّ وجهه: «حسنًا، أيمكنكِ أم لا؟».

- ربما.

- لا يمكنكِ.

نظرت إسك إلى وجهه بالأسفل، إنها تحب أخويها عندما تذكر نفسها بذلك بحكم الواجب، رغم أنها تتذكرهم في المطلق بأنهما ضوضاء صاخبة ترتدي السراويل. لكنْ كان هناك شيء شبيه بالخنازير على نحو مروِّع وكريه في الطريقة التي حدق بها جولتا إليها، كأنَّها أهانته شخصيًّا.

شعرت بجسدها يبدأ بالارتعاش، وبدا العالم فجأة حادًّا وصافيًا للغاية، وقالت: «بلى، أستطيع».

نظرتْ إسك إلى العصا، وضاقت عيناها.

ركلها بوحشية قائلًا: «عصا قديمة!».

اعتقدتْ أنه يبدو تمامًا مثل خنزير صغير غاضب.

أحضرتْ صرخات سيرن جراني ووالديه أولًا إلى الباب الخلفي، ثم ركضوا في مسار الجمرة.

جلستْ إسك في مفترق طرق على شجرة التفاح، وعلى وجهها تعبير عن التأمل الحالم، كان سيرن مختبئًا خلف الشجرة ووجهه مجرد حافة تطوق صرخة حمراء تهزُّ اللوزتين.

كان جولتا جالسًا في حيرة من أمره في كومة من الملابس التي لم تعدْ تناسبه حتى تجعَّد أنفه.

سارت جراني حتى أصبح أنفها المعقوف في ذات مستوى أنف إسك.

قالت بصوت خافت: «تحويل الناس إلى خنازير أمر غير مسموح به، حتى الأشقاء».

قالت إسك بذات النبرة: «لم أفعلْ ذلك، لقد حدث من تلقاء نفسه فحسب. على أي حال، عليكِ الاعتراف بأن هذا شكل أفضل له».

قال سميث: «ما الذي يحدث، أين جولتا؟ ما الذي يفعله هذا الخنزير هنا؟».

قالت جراني ويذرواكس: «هذا الخنزير هو ابنك».

صدرتْ تنهيدة عن والدة إسك وهي تتهاوى إلى الوراء برفق، فيما كان سميث غير مستعدٍّ بعض الشيء. نظر سميث بشدة إلى جولتا الذي تمكن من فك نفسه من ملابسه، وأصبح الآن متحمسًا للغاية إلى ابنته وفق المكاسب المبكرة غير المتوقعة.

- أهي من فعل ذلك؟

قالت جراني: «نعم».

وأضافتْ وهي تنظر إلى العصا بارتياب: «أو قد حدث ذلك من خلالها».

قال سميث وهو ينظر إلى سادس أبنائه: «أوه».

كان عليه الاعتراف بأن هذا الشكل يناسبه. مدَّ يده دون أن ينظر، واستدعي صراخ سيرن ضربةً على مؤخرة رأسه.

سألها: «أيمكنكِ إرجاعه ثانية؟».

لفَّت جراني حول إسك وشاركته السؤال، هزتْ إسك كتفيها وقالت بهدوء: «لم يصدقْ أن بإمكاني ممارسة السحر».

قالت جراني: «نعم، حسنًا، أعتقد أنكِ أوضحتْ وجهة نظركِ والآن سوف تعيدينه يا آنستي، على الفور، أتسمعين؟».

- لا أريد، لقد كان وقحًا.

- أفهم.

نظرتْ إسك إلى أسفل بتحدٍّ، ونظرتْ جراني إلى أعلى بحزم.

كانت مشيئتهما تقعقعان مثل الصنوج، وثقل الهواء بينهما. لكنَّ جراني التي أمضت حياتها وهي تثني المخلوقات المتمردة عن عزمها، ورغم أن إسك كانت خَصْمًا عنيدًا بشكل مدهش، فقد كان من الواضح أنها ستستسلم قبل نهاية الفقرة.

تذمرتْ قائلةً: «أوه، حسنًا، لا أعرف لماذا قد يزعج أي شخص تحويله إلى خنزير رغم أنه يبلي حسنًا».

لم تكنْ تعرف من أين أتى السحر، لقد واجهتْ عقليًّا بهذه الطريقة وقدمتْ اقتراحًا، ظهر جولتا مرة أخرى عاريًا وبتفاحة في فمه.

وقال: «أحدث شيء؟».

دارت جراني حول سميث.

زمجرتْ جراني قائلة: «والآن، هل ستصدقني؟ والآن أتعتقد حقًّا أن من المفترض أن تستقر هنا وتنسى كل شيء عن السحر؟ أبوسعك تخيل زوجها المسكين إذا تزوجت؟».

قال سميث: «لكنكِ قلتِ دائمًا إن من المستحيل أن تصبح النساء سحرة».

لقد كان مبهورًا إلى حد ما فعلًا، فلم يُعرَف عن جراني ويذوراكس أنها تُحوِّل أي شخص إلى أي شيء.

قالت جراني وهي تهدأ قليلًا: «لا تأبه بذلك الآن، إنها بحاجة إلى تدريب، بحاجة إلى معرفة كيفية السيطرة عليه، من باب الشفقة، ضعي بعض الملابس على هذا الطفل».

قال والده: «جولتا ارتدِ بعض الملابس وكفَّ عن العواء».

ثم عاد إلى جراني، وغامر بقوله: «لقد قلتِ إن هناك ما يشبه مكان تدريس؟».

- نعم، الجامعة الخفية لتدريب السحرة.

- وأنت تعرفين مكانها؟

كذبتْ جراني التي كان فهمها للجغرافيا أسوأ قليلًا من معرفتها بالفيزياء دون الذرية وقالت: «نعم».

نظر سميث منها إلى ابنته التي كانت عابسة وقال: «وسيجعلونها ساحرًا؟».

تنهدت جراني وقالت: «لا أعرف ما سيجعلونها».

وهكذا، بعد أسبوع أغلقتْ جراني باب الكوخ وعلقتِ المفتاح على مسماره في المرحاض. وأرسلتِ الماعز للبقاء مع أخت مشعوذة على طول التلال، والتي وعدت بالاعتناء بالكوخ كذلك. على باد آس إدارة شؤونها دون مشعوذة بعضَ الوقت.

كانت جراني تدرك بشكل غامض أنها لن تعثر على الجامعة الخفية إلا إذا أرادت الجامعة ذلك، والمكان الوحيد للبدء به هو مدينة أوهولان كوتاش، وهي امتداد مائة منزل أو نحو ذلك على بعد نحو خمسة عشر ميلًا. كانت المكان الذي تذهب إليه مرة أو اثنتين إذا كنتَ مواطنًا باد آسيًّا أصيلًا: لم تذهب جراني إليها من قبل سوى مرة واحدة في حياتها، ولم ترضَ عنها قطُّ. كان ريحها كله سيئًا، لقد تاهت ولم تثقْ بأهل المدينة بطرقهم المبهرجة.

لقد حظيتا بركوبة على عربة كارو تخرج بصورة دورية بالمعدن إلى دكان الحدادة. لقد كانتْ قاسيةً لكنها أفضل من المشي، خاصة

أن جراني قد حزمتْ أمتعتهما القليلة في كيس كبير، وقد جلستْ عليه حفاظًا على السلامة.

احتضنتْ إسك العصا وهي تشاهد الغابات تمرُّ، وعندما كانوا على بعد أميال من القرية قالت: «أعتقد أنك أخبرتني أن النباتات مغايرة في أنحاء الفورن».

- وهي كذلك.

- هذه الأشجار تبدو كتلك التي نعرفها تمامًا.

نظرت إليهم جراني بازدراء وقالت: «لا شيء يضاهي جودتها».

في الواقع، لقد شعرتْ جراني ببعض الذعر؛ فقد جاء وعدها باصطحاب إسك إلى الجامعة الخفية دون تفكير، وجراني التي جمعت معرفتها القليلة ببقية عالم القرص من إشاعات وصفحات الروزنامة التي تمتلكها، كانت مقتنعة بأنهم يتوجهون إلى الزلازل وموجات مدية عارمة وأوبئة ومذابح بل أسوأ، لكنها كانت مصممة على رؤية الأمر من هذا المنظور، عولت المشعوذة على كلمات كثيرة للرجوع إليها.

كانت ترتدي السواد المحايد، وأخفتْ شخصيتها بعدد من القبعات وسكاكين الخبز، كما أخفت نقودهما القليلة التي قدمها سميث على مضض في الطبقات الخفية من ملابسها الداخلية. كانت جيوب تنورتها تجلجل مع تعويذات الحظ وحدوة حصان حديثة الصنع، وهو حصن منيع في وقت المشكلات، كل ذلك قد أثقل حقيبة يدها. شعرت بأنها مستعدة لمواجهة العالم كما لم تكن في أي وقت مضى.

كان الطريق يشق الجبال، ولأول مرة كانت السماء صافية وبدتْ رامتوبس المرتفعة نضرةً ومتشحةً بالبياض كعرائس السماء (بملابسها المحشوة بالعواصف الرعدية) وببطء تدفقتِ العديد من الجداول

الصغيرة التي تحد الطريق أو تقطعه خلال شرائط من عشبة ملكة المروج وجذور سريعة النمو.

وبحلول وقت الغداء، كانوا قد وصلوا إلى ضاحية أوهولان (وقد كانت صغيرة على أن يكون بها أكثر من نزل واحد وحَفنة من الأكواخ لأشخاص لم يتحملوا ضغوط الحياة الحضرية). وبعد بضع دقائق أودعتهم عربة الكارو ميدان البلدة الرئيسي والوحيد في الواقع.

- اتضح أنه يوم السوق.

وقفت جراني ويذرواكس بارتياب على الحصى، ممسكةً بكتف إسك بإحكام والحشود تمور من حولهم. وكانت قد سمعتْ بأن أمورًا بذيئة قد تحدث لنساء القرى اللاتي وصلن حديثًا إلى المدن الكبرى، وأمسكت بحقيبة يدها حتى ابيضت مفاصل أصابعها، بحيث إذا صدر من أي رجل غريب حتى مجرد إيماءة لها فسيكون حسابه عسيرًا.

تلألأت عينا إسك، فقد كان الميدان بانوراما من الضوضاء واللون والرائحة، على جانبيه معابد الآلهة الأكثر طلبًا في عالم القرص، وقد هبَّتْ عطور غريبة للانضمام إلى نتانة التجارة مشكلين معًا مزيجًا معقدًا من الروائح، وكانت هناك أكشاك مليئة بعجائب مغرية تشوَّقتْ إلى فحصها.

سمحتْ جراني لكليهما بالانجراف مع الحشد، فقد حيرتها الأكشاك كذلك. أطالتِ النظر إليهم رغم أنها لم تخفف حذرها من النشالين والزلازل والمتاجرين في الجنس ولو ثانية واحدة، حتى تجسستْ على شيء مألوف على نحو غامض.

كان هناك كشك مغطًّى مكسو بالأسود ومتعفن، وكان محشورًا في مساحة ضيقة بين منزلين. ورغم أنه لا يبدو واضحًا للعيان، فقد بدا مزدحمًا للغاية بالتجارة، كان مرتادوه من النساء بشكل عام ومن جميع

الأعمار، رغم أنها لاحظت بعض الرجال. وقد كان يجمعهم جميعًا أمر واحد، إذ لم يتوجه إليه أي شخص مباشرة، فقد تجولوا جميعًا تقريبًا ثم انحنوا فجأة تحت مظلته الغامضة. وبعدها بلحظة، سيعودون للظهور مجددًا ويدهم تندفع بعيدًا عن الحقيبة أو الجيب، ويمشون متنافسين على لقب صاحب أكثر مشية لا مبالية في العالم لدرجة تدفع الرائي إلى الشك في ما رآه للتو.

كان مدهشًا للغاية أن الكشك الذي لا يعرف الكثير من الناس بوجوده يجدر به أن يحظى بشعبية كاسحة.

قالت إسك: «ما الموجود بالداخل؟ ما الذي يشتريه الجميع».

قالت جراني بحزم: « أدوية».

قالت إسك بجدية: «لا بد أن هناك الكثير من الأشخاص المرضى للغاية في المدن».

بالداخل، كان الكشك كتلة من الظلال المخملية ورائحة الأعشاب كثيفة بما يكفي لتعبئتها في زجاجة. وخزتْ جراني بعض حزم الأعشاب بإصبع خبيرة، ابتعدتْ إسك عنها وحاولتْ قراءة الملصقات المخربشة على الزجاجات التي أمامها، كانت إسك خبيرة في معظم مستحضرات جراني، لكنها لم تتعرَّف أي شيء هنا، فقد كانت الأسماء ظريفة للغاية هنا مثل زيت النمر ودعاء العذراء ومعاون الزوج، وقد بدتْ رائحة سدادة أو اثنتين شبيهة برائحة غرفة الغسيل عند جراني بعد أن تجري تقطيرها السري.

تحركت شبحية في التجاويف القاتمة للكشك، وحطتْ يد بنية مجعدة على يدها برفق.

قال صوت متصدع بنبرة مستعارة: «أيمكنني مساعدتكِ سيدتي؟ أهو طالعكِ ما ترغبين في معرفته أم مستقبلك هو ما تودين تغييره، لعله...؟».

قاطعتْها جراني وهي تدور حولها: «إنها معي، وعيناكِ تخوناكِ يا هيلتا جوتفاوندر إن كنتِ لا تستطيعين معرفة عمرها».

انحنتِ الشبحية أمام إسك إلى الأمام. وسألت: «أأنتِ إيزمي ويذوراكي؟».

قالت جراني: «بعينها، أما زلتِ تبيعين قطرات الرعد وأمنيات الفلس الواحد يا هلتا؟ كيف يسير العمل؟».

قالت الشبحية: «بأحسن حال برؤيتكِ. ما الذي أنزلكِ من الجبال يا إيزمي؟ وتلك الطفلة.. لعلها مساعدتكِ؟».

سألت إسك: «ما الذي تبيعينه، من فضلكِ؟».

ضحكتِ الشبحية وقالت: «أوه، أشياء تمنع حدوث الأشياء التي لا ينبغي أن تكون، وتساعد الأشياء التي عليها أن تكون، الحب، اسمحوا لي أن أغلق يا أعزائي، وسأكون معكم على الفور».

أسرعتِ الشبحية مارةً بإسك في روائح محيرة للأنف وهي ترتب الستائر في مقدمة الكشك. ثم أسدلتِ الستائر في الخلف سامحةً لشمس الظهيرة بالدخول.

قالت هيلتا جوتفاوندر: «لا يمكنني تحمل الظلام، وتبًّا لي، لكنَّ الزبائن يتوقعون ذلك، أنتِ تعرفين كيف تسير الأمور».

أطرقتْ إسك مؤكدةً كلامها وقالت: «نعم، علم التحكم بالدماغ».

هيلتا هي سيدة بدينة صغيرة تعتمر قبعة عملاقة عليها فاكهة، حوَّلت نظرها من إسك إلى جراني وابتسمتْ.

أيدتْ ما قالته: «هذه الطريقة التي يسير بها الأمر، أترغبين في بعض الشاي؟».

جلستْ على رزم أعشاب غير معلومة في ركن خاص صنعه الكشك بين جدران المنازل المائلة وشربن شيئًا عبقًا وأخضرَ في أكواب رقيقة بشكل مدهش. وعلى عكس جراني التي كانت ترتدي مثل غراب أسود محتشم، كانت هيلتا جوتفاوندر دانتيلًا وشيلانًا وألوانًا وأقراطًا والعديد من الأساور لدرجة أن أي حركة بسيطة من ذراعيها بدتْ ذات صوت إيقاعي يشبه السقوط في منحدر، لكنْ بوسع إسك رؤية التشابهات بينهما.

كان من الصعب وصفهما، لا يمكن للمرء تخيلهما ينحنيان لأي شخص كان.

قالت جراني: «إذن، كيف تسير الحياة؟».

هزت المشعوذة الأخرى كتفيها كأنما تسقط حملًا من فوقهما، في الوقت نفسه الذي كانوا فيه على وشك الصعود مجددًا. وبدأتْ كلامها قائلة: «مثل العاشق المستعجل يأتي ويمضي...».

توقفت بسبب نظرة جراني ذات المعنى إلى إسك.

عدلتْ كلامها على عجالة: «ليستْ سيئة، ليستْ سيئة، حاول المجلس طردي مرة أو اثنتين، لكنْ كما تعلمين، فعندهم زوجات وبطريقة ما لم يتمكنوا مما أرادوا بي قطُّ. إنهم يقولون إنني لست من الطراز المناسب، لكنني أقول إنه كان ليوجد في هذه المدينة العديد من الأُسَر الأكبر والأفقر لو لم يكن هناك العلاج الوقائي بالنعناع البري الذي تصنعه مدام جوتفاوندر. فأنا أعرف من يأتي إلى متجري، حقًّا أعرف وأتذكر من يشتري قطرات راعي البقر ومرهم شونوف، حقًّا أفعل. الحياة ليست سيئة، وكيف الحال في قريتك ذات الاسم المضحك؟».

قالت إسك بتعاون: «باد آس».

والتقطتْ بوتقة فخارية صغيرة من على المنضدة وشمت محتوياتها.

أقرت جراني: «جيدة بما يكفي، فالطلب دائم على خادمات الطبيعة».

شمتْ إسك المسحوق مجددًا الذي بدا كأنه نعناع بري مع قاعدة لا تستطيع تعرُّفها تمامًا، واستبدلتِ الغطاء بحذر. وتبادلت المرأتان النميمة بنوع من الشفرة النِّسْوِيَّة مليئة بالتواصل البصري ونعوت غير معلنة. فحصتْ بعض الجرعات الغريبة المعروضة، أو بالأحرى غير المعروضة. فقد بدت كأنها شبه مخفية بطريقة غريبة، كما لو كانتْ هيلتا غير حريصة تمامًا على بيعها.

قالت وهي تحدث نفسها بصوت خفيض: «لا أعرف أيًّا من هؤلاء، ماذا يمنحون الناس؟».

قالت هيلتا التي تتمتع بسمع جيد: «الحرية».

واستدارت عائدة إلى جراني سائلة: «إلى أي مدى قد علمتها؟».

ردت جراني: «ليس إلى هذا الحد، هناك قوة هنا لكنني لست متأكدة من نوع تلك القوى، ربما هي قوة الساحر».

استدارتْ هيلتا ببطء شديد ونظرت إلى إسك من فوق إلى تحت وقالت: «آه، هذا يفسر وجود العصا، تساءلتُ عما يتحدث عنه النحل. حسنًا حسنًا، أعطني يدكِ أيتها الطفلة».

مدتْ إسك يدها، كانت أصابع هيلتا ثقيلة جدًّا بالخواتم كأنها تغطس في كيس من الجوز.

جلست جراني منتصبةً، يشع منها الرفض حيث بدأت هيلتا في فحص كف إسك.

وقالت بصرامة: «لا أعتقد أن هذا ضروري، ليس بيننا».

قالت إسك: «أنتِ قد فعلتِ ذلك يا جراني في القرية، لقد رأيتكِ ورأيتُ أكوابَ الشاي والبطاقات».

تحركتْ جراني بمشقة وقالت: «نعم، حسنًا فالأمر يعتمد على أن تمسك بأيدي الناس وهم يتكهنون بطالعهم بأنفسهم. لكنْ لا داعي إلى تصديقنا في ذلك، سنكون في ورطة إن صدقنا كل شيء».

قالت هيلتا بوقار وهي تتجاهل إسك: «إن قوة الوجود لها العديد من الخصال الغريبة والمحيرة والمتنوعة، وهي طرقهم في إفشاء رغباتهم في دائرة ضوء النار التي نسميها العالم المادي».

قاطعتها جراني قائلة: «حسنًا، حسنًا فعلًا».

قالت هيلتا: «لا، استقيمي إنها حقيقة».

- همف.

قالت هيلتا: «أرى أنك ستذهبين في رحلة طويلة».

قالت إسك وهي تفحص راحة يدها: «هل سألتقي غريبًا طويلَ القامة أسودَ؟ دائمًا ما تخبر جراني النساء بذلك».

قالت هيلتا: «لا».

تذمرت جراني.

أكملتْ هيلتا: «لكنها ستكون رحلة في غاية الغرابة، ستقطعين شوطًا طويلًا وأنتِ في المكان نفسه، وسيكون الاتجاه غريبًا، سيكون استكشافًا».

- أيمكنكِ معرفة كل ذلك من يدي؟

- حسنًا، إنني أخمن فحسب.

استلقتْ هيلتا ومدتْ يدها لتناول إبريق الشاي (عازف الطبول الأساسي الذي صعد إلى منتصف الطريق، سقط على عازفي الصنوج الكادحين).

تطلعتْ مليًّا إلى إسك وقالت: «ساحر أنثى، أحقًّا؟».

قالت إسك: «جراني ستأخذني إلى الجامعة الخفية».

رفعت هيلتا حاجبيها وقالت: «أتعرفين مكانها؟».

قطَّبتْ جراني حاجبيها واعترفت: «ليس حرفيًّا، كنتُ آملُ لو أن بوسعكِ إعطائي اتجاهات أوضح، فأنتِ أدرى بالأحجار وتلك الأمور».

قالت هيلتا: «يقولون إن لها أبوابًا عدَّة، لكنَّ أبوابها الموجودة في هذا العالم تقع في مدينة عنخ-موربورك».

حدقتْ جراني بصمت.

أضافت هيلتا: «في البحر الدائري».

استمرتْ جراني محتفظةً بنظرة الاستفسار المهذب.

أكملت هيلتا: «على بعد خمسمائة ميل».

قالت جراني: «أوه»، وقفزتْ ونفضتْ عن فستانها ذرات غبار خيالية: «من الأفضل أن نذهب إذن».

ضحكتْ هيلتا وأحبتْ إسك الصوت للغاية، لم تضحكْ جراني قطُّ، بل بالكاد تركت زوايا فمها ترتفع إلى أعلى قليلًا فحسب، لكنَّ هيلتا ضحكت ضحكة شخص فكر في الحياة مليًّا ورأى المزحة.

وقالت: «ابدآ غدًا، لديَّ غرفة في البيت بوسعكما البقاء معي والصباح رباح».

قالت جراني: «لا نريد التجرؤ».

- كلام فارغ، لماذا لا تلقيان نظرةً بالخارج حتى أحزم أمتعة الكشك؟

كانتْ أوهولان مدينة السوق لريف مترامي الأطراف ولم ينتهِ يوم السوق بغروب الشمس، وعوضًا عن ذلك فقد أشعلتِ المصابيح في كل حجيرة وكشك واندلع الضوء من المداخل المفتوحة للنزل. وحتى المعابد، وضعتْ مصابيحَ ملونةً لجذب المصلين الليليين.

تحركت هيلتا بين الحشود مثلما يفعل ثعبان رفيع على العشب الجاف، فقد تقلص كشكها ومخزونها بأكمله إلى حُزْمة صغيرة على نحو مدهش على ظهرها، وجواهرها تجلجل مثل سرب من راقصي الفلامنجو. مشتْ جراني متثاقلة خلفها وقدماها تتألمان من الضغط غير المعتاد فوق الحصى.

تاهت إسك.

لقد استغرق ذلك بعض الجهد، لكنها تمكنت منه. انطوى الأمر على التملص بين كشكين ثم الهرولة في زقاق جانبي، لقد حذَّرتها جراني مطولًا من أمور لا توصف تهددها في المدن، وهو ما أظهر أن العجوز كان ينقصها الفهم التام لعلم التحكم بالدماغ، فقد جعلت إسك مصممةً على معاينة أمرٍ أو اثنين من تلك الأمور بنفسها.

في الواقع، لما كانت أوهولان بلدة بربرية وغير متحضرة، فالأمور الوحيدة التي حدثت فيها بعد حلول الظلام إلى أي درجة كانت بعض السرقات البسيطة، وبعض تجار الهوى الهواة والسُّكْر حتى السقوط من أثره أو بدء الغناء أو كليهما.

وَفْقَ التعليمات الشعرية القياسية، فعلى المرء أن يتحرك في السوق كما يتحرك الإوز العراقي الأبيض في الليالي في خليج سوان الأبيض،

لكنْ بسبب بعض الصِّعاب العملية، اكتفت إسك بالتنقل بين الحشود مثل سيارة مفتوحة صغيرة، ترتطم من جسد إلى جسد مع طرف العصا وهو يلوح فوق رأسها بمسافة ياردة. تسبب ذلك في التفاف بعض الرؤوس، ليس بسبب أنها ضربتهم فحسب، كان السحرة يمرون بالمدينة بين الفينة والأخرى لكنْ هذه كانت أول مرة يُشاهد فيها أيُّ شخصٍ واحدًا منهم بطول أربع أقدام وشعر طويل للغاية.

وقد لاحظ أي شخص راقب من كثب حدوث أمور غريبة في أثناء مرورها.

فقد كان هناك على سبيل المثال، ذلك الرجل الذي معه ثلاثة أكواب مقلوبة وهو يدعو حشدًا صغيرًا إلى استكشاف عالم الفرصة والاحتمال المثير معه، وذلك من خلال تحديد موضع حبة بازلاء صغيرة. كان يدرك بنحو مبهم أن هناك شخصًا صغيرًا يراقبه بجدية بضعَ لحظات، ثم خرج ملءُ كيس من حبات البازلاء من كل كوب يلتقطه. وفي غضون ثوانٍ أصبح غارقًا في البقوليات، لقد تعمق في المشكلات أكثر، إذ أصبح فجأة مدينًا للجميع بالكثير من المال.

وكان ثمة قرد بائس صغير يتنقل لسنوات بغموض في نهاية سلسلة فيما يعزف صاحبه شيئًا مروِّعًا على آلة الأرغن. وقد استدار فجأة وضيق عينيه الحمراوين الصغيرين وعضَّ صاحبه بشراسة في ساقه وقطع سلسلته ليبتعد فوق أسطح المنازل آخذًا معه إيرادات الليل في كوب صفيح. وقد صمت التاريخ في ما يخص أوجه إنفاق تلك الإيرادات.

ودبتِ الحياة في صندوق مليء بالبط المصنوع من حلوى المرصبان في كشك قريب، وهربن متجاوزاتٍ صاحبَ الكشك إلى الأرض ومضين يصيحنَّ بسعادة في النهر (وبحلول الفجر كنَّ قد ذبن جميعًا: وهو انتقاء طبيعي بالنسبة إليهن).

بل قد مشى الكشك نفسه خفيةً نازلًا من زقاق ولم يُرَ ثانية قطُّ.

في الواقع، كان تحرك إسك في السوق أشبه ما يكون بمفتعل الحرائق في حقول القمح أو كنيترون مرتد في مفاعل ذري، فقد كان يمكن للشعراء أو المشاهد الافتراضي تقفي أثر مرورها الأهوج بتتبع تفشي العنف والهيستريا. ولكنَّ شأنها شأن جميع المحفزات الكيميائية الصالحة، لم تكنْ تشارك في العمليات التي بدأتها بنفسها، وبحلول الوقت الذي رفع فيه جميع المشاهدين غير الافتراضيين المحتملين أعينهم عنها، كانت تقارع في مكان آخر.

ثم إنها بدأت في التعب كذلك، فبينما استحسنتْ جراني ويذرواكس الليل كمبدأ عام، لم تكنْ لتصمد بالتأكيد مع ضوء الشمعة المشوش، بل إنها حال أرادتِ القراءة بعد حلول الظلام، فستقنع البومة بصفة عامة بالقدوم والجلوس على ظهر كرسيها، ومن ثَمَّ تقرأ بأعين البومة، ولذا توقعتْ إسك أن تذهب للنوم بحلول غروب الشمس، وكان قد حل منذ أمد بعيد.

كان أمامها مدخل يبدو لطيفًا، تسللتْ أصوات البهجة من الضوء الأصفر وتجمعتْ على الحصى، مع استمرار إشعاع العصا لسحر عشوائي مثل منارة شيطانية، توجهتْ إليها وكانت مرهقة، لكنها عاقدة العزم.

اعتبرَ مالكُ نُزُلِ أحجية عازف الكمان نفسَه رجلَ العالم، وقد كان محقًّا، فهو غبي جدًّا لدرجة لا تمكنه من أن يكون قاسيًا حقًّا، وكسلانًا جدًّا لدرجة لا تمكنه من أن يكون لئيمًا حقًّا، ورغم أن جسده كان يتجول في كل مكان تقريبًا، فلم يذهب عقله خارج حدود دماغه مطلقًا.

لم يكنْ معتادًا مخاطبةَ العصا إياه، وخاصة عندما تحدثوا بصوت الأنابيب الصغيرة وطلبوا حليب الماعز.

كان مدركًا أن جميع من في النُّزل يتطلعون إليه ويضحكون، فسحب نفسه بحذر إلى أعلى البار بحيث يمكنه رؤية ما بالأسفل. حدقتْ إسك إلى وجهه إلى أعلى، ونظرتْ إلى عينيه مباشرة فدومًا ما قالت لها جراني: ركزي قوتك عليه وحدقي إليه، فما من أحد يجرؤ على التطلع إلى عيني مشعوذة باستثناء الماعز طبعًا.

وجد المالك نفسه واسمه اسكلر ينظر إلى أسفل مباشرة إلى فتاة صغيرة بدت محدقة.

قال: «ماذا؟».

قالت الطفلة وهي ما زالت تركز بشدة: «حليب».

- تحصلين عليه من الماعز، ألا تعرفين؟

باع اسكلر الجعة وحدها التي ادعى زبائنه أنها تخرج من القطط، فلن يتحمل أي ماعز يحترم نفسه الرائحة في نُزل أحجية عازف الكمان.

قال: «ليس لدينا أي منه».

ثم تطلع إلى العصا وقد تلاقى حاجباه فوق أنفه بشكل تآمري.

قالت إسك: «يمكنكَ إلقاء نظرة».

تراجع اسكلر وتوارى خلف البار ثانية، إلى حد ما لتجنب النظرة التي تسببتْ في انهمار دموع عينيه بشفقة، وإلى حد أبعد، لأن شكوكًا مروعة كانت تُخيِّم في ذهنه.

فحتى ساقي الدرجة الثانية قد مال مع صدى الجعة التي يقدمونها، ولم تعد الاهتزازات الآتية من البراميل الكبيرة خلفه تحمل طقطقة الجنجل[1] والرغوة، بل كانوا ينثرون نوتة لبنية تمامًا.

(1) نبات يستخدم كعامل مرير في صناعة الجعة. (المترجمة)

أدار صنبورًا تجريبيًّا، وشاهد دفقًا رقيقًا من خثارة الحليب في دلو التنقيط.

ما زالت العصا موضوعة على حافة المنضدة مثل المنظار، كان بوسعه أن يقسم إنها تحدق إليه كذلك.

وقال صوت: «لا تهدره، ستكون ممتنًّا لذلك يومًا ما».

لقد كانت نبرة الصوت نفسها التي اعتادت جراني استخدامها عندما كانت إسك أقل حماسًا لصحن مليء بسلطة خضراوات مغذية مغلية حتى بات لونه أصفر وقد استسلمت الفيتامينات أخيرًا، لكنْ بالنسبة إلى أذنين مرهفتي الحس مثل أذني اسكلر فقد كانت نبرة تكهن لا نصيحة. ارتجف؛ لم يكن يعرف متى يمكنه أن يكون ممتنًّا لشراب من الجعة المعتقة والحليب المتخثر. يفضل أن يموت قبل أن يحدث ذلك.

ربما، سيموت قبل أن يحدث ذلك.

وبعناية، مسح كوبًا نظيفًا تقريبًا بإبهامه وملأه من الصنبور، كان واعيًا لمغادرة عدد كبير من زبائنه بهدوء، فلا أحد يحب السحر وخاصة من يد امرأة. فلا يسعكَ أبدًا معرفة ما قد يضعنه في رؤوسهنَّ لفعله تاليًا.

قال: «الحليب لكِ.. سيدتي».

قالت إسك: «معي بعض النقود».

دومًا ما أخبرتها جراني بأن: كوني على استعداد للدفع دائمًا، ولن تكوني مضطرة إلى ذلك. فالناس يحبون شعور الرضا عن أنفسهم دائمًا، فكل شيء متعلق بعلم التحكم بالدماغ.

قال اسكلر بعجالة: «لا، لم أكن لأحلم بذلك».

انحنى على البار وأضاف: «إذا كان بإمكانكِ النظر، فطريقكِ مفتوح لإرجاع الباقي كما كان أليس كذلك؟ ليس هناك الكثير من الطلب على الحليب في هذه الأنحاء».

تنحى اسكلر على طول الطريق قليلًا، وأسندت إسك العصا إلى البار وهو ما جعل الارتياح يجافيه.

نظرت إليه إسك من فوق شارب من الرغوة وقالت: «لم أحولْه إلى حليب، كنت أعرف أنه سيصبح حليبًا فحسب لأنني أردتُ شرب الحليب، ماذا تعتقد أنه قد كان.

- إيه، جعة.

فكرت إسك في ذلك، لقد تذكرتْ على نحو غامض أنها قد جربتِ الجعة مرة وحيدة في ما سبق، وقد ذاقت نوعًا من الأنواع الرديئة، لكنها كانت تتذكر شيئًا يعتبره الجميع في باد آس أفضل من الجعة، لقد كان إحدى أكثر وصفات جراني تحصينًا، لقد كانت مفيدة للمرء لأنها لم تكن تحتوي على أي شيء سوى الفاكهة، إضافة إلى الكثير من التجميد والغليان والاختبار الدقيق للقطرات الصغيرة بلهب مشتعل.

كانت جراني تضع ملعقة صغيرة جدًّا في حليبها إذا كانت ليلة قارسة البرودة بحق، وكانت ملعقة خشبية لا بدَّ، تحسبًا لما قد يفعله الشراب بالمعدن.

ركزتْ، كان بإمكانها تخيُّل المذاق في ذهنها وبالمهارات القليلة التي بدأت في تقبلها لكنها لم تستطع فهمها، وجدتْ أن بإمكانها تفكيك الطعم إلى أشكال ملونة صغيرة...

خرجتْ زوجة اسكلر من حجرتهم الخلفية لترى لماذا ساد ذلك الهدوء كله، لوَّح لها في صمت مصعوقًا حيث وقفتْ إسك تتأرجح على نحو طفيف وعيناها مغمضتان وشفتاها تتحركان...

... عادت الأشياء الصغيرة التي لم تكن بحاجة إليها في تجمع عظيم من الأشكال، ثم تعثر على الأشكال الإضافية التي تحتاج إليها وتضعها معًا، ثم كان هناك شيء يشبه الخطاف ويعني أنهم سيتحولون أي شيء مناسب إلى شيء يشبههم ثم...

استدار اسكلر بحذر شديد ونظر إلى البراميل خلفه، تغيرتْ رائحة الغرفة وصار بوسعه الإحساس بالذهب الخالص ينثال برفق من تلك الأجزاء الخشبية العتيقة.

ببعض الحرص، أخذ كوبًا صغيرًا من مستودع أسفل المنضدة وترك بعض دفقات السائل الذهبي الداكن تفلت من الصنبور، ونظر إليها بإمعان في ضوء المصباح، وأدار الكوب بنهج مدروس، وشمه عدة مرات وقذف بمحتوياته في جوفه برشفة واحدة.

ظل وجهه كما هو دون تغيير، رغم أن عينيه قد تبللتا وتذبذب حلقه بعض الشيء، شاهدته زوجته وإسك وقد ظهرتْ قطرة عرق رفيعة على جبينه. مرتْ عشر ثوانٍ، كان من الواضح أنه خارج لتحطيم بعض الأرقام القياسية البطولية، ربما كان هناك بعض البخار يخرج من أذنيه، لكنَّ هذه قد تكون إشاعة.

دقَّت أصابعه وشمًا غريبًا على أعلى البار.

وأخيرًا ابتلع، وقد بدا أنه قد توصل إلى قرار والتفت إلى إسك بجدية وقال: «هوارل ايش جنيش سااااكش إشكوش أورجوش؟».

تجعَّدت جبهته وهو يمرر الجملة على عقله وحاول ثانية:

- أرغ أرغ شاه جوك؟

استسلم ثم قال: «بهارجش نارج!».

كانت زوجته تطلق أصواتًا كالشخير، وأخذت الكأس من يده التي لم تحتج وشمتْ ما فيها، ونظرت إلى البراميل العشرة بأكملها والتقت عيناها عينيه المتقلقلة. وفي نعيم خاص بشخصين، أخذا يحسبان دون صوت سعر بيع ستمائة جالون من براندي الخوخ الأبيض ثلاثي التقطير ونفدت منهما الأرقام.

كانت السيدة اسكلر أسرع في الاستيعاب من زوجها، انحنت إلى أسفل وابتسمت لإسك التي كانت متعبةً للغاية لدرجة لا تُمكِّنها من التحديق ثانية. لم تكن ابتسامةً جيدةً بشكل بارز، لأن السيدة اسكلر لم تكن تتدرب كثيرًا على الابتسام.

قالت بصوت يوحي بأكواخ خبز الزنجبيل وصفق أبواب فرن كبيرة: «كيف أتيتِ إلى هنا أيتها الفتاة الصغيرة».

- لقد تُهت من جراني.

قرقرعت أبواب الفرن مجددًا، كانت ستكون ليلة عصية على جميع المتجولين في الغابات المجازية وقالت: «وأين جراني الآن يا عزيزتي؟».

- في مكان ما حسبما أتوقع.

- أترغبين في النوم على سرير كبير من الريش، كل شيء فيه لطيف وهادئ؟

نظرتْ إسك إليها بامتنان، حتى عندما أدركتْ بغموض أن وجه السيدة يشبه وجه النمس، أومأت برأسها.

قالت المرأة لزوجها: «أنتَ على حق، سيحتاج الأمر إلى أكثر من ساطور خشبي عابر لحل هذه المشكلة».

وفي غضون ذلك، كانت جراني على بعد شارعين وقد كانتْ تائهةً كذلك وفق معايير الآخرين، لم ترَ الأمر على هذا النحو، فقد كانت تعرف مكان وجودها، لكنها لا تعرف أي مكان آخر سواه.

فكما ذكرنا في ما سبق، فقد كان استكشاف عقل بشري أصعب من استكشاف عقل ثعلب مثلًا، وهو ما يعتبره العقل البشري نوعًا من الافتراء ويريد معرفة السبب، إليك السبب.

إن عقول الحيوانات بسيطة، ومن ثَمَّ فهي ألمعية؛ لا تقضي الحيوانات وقتًا أبدًا في تفتيت التَّجْرِبة إلى أجزاء صغيرة والتكهن بكل الأجزاء التي فاتتهم. لقد عبَّر عن الكون كله لهم بدقة على أنه ينقسم إلى أشياء أ: يتزاوجون معها. ب: يأكلونها. ج: يهربون منها. د: صخور. وقد حرر ذلك عقلهم من الأفكار غير الضرورية ومنحهم نصلًا حادًّا عندما يستدعي الأمر. ففي الواقع، لن يحاول حيوانك الطبيعي أبدًا المشي ومضغ العلكة في الوقت نفسه.

وفي المقابل، يفكر الإنسان العادي في كل الأمور على مدار الساعة، وعلى جميع الأصعدة مع توقفات عشرات التقويمات والساعات البيولوجية. وهناك أفكار على وشك أن يباح بها، وأفكار خاصة وأفكار حقيقية وأفكار عن الأفكار وسلسلة كاملة من الأفكار اللاواعية. وبالنسبة إلى خواطر الأفكار، فرأس الإنسان ضجة. إنه محطة قطار تتحدث فيها كل الأصوات في وقت واحد، إنه نطاق موجة إف إم كاملة وبعض محطاتها ذات سمعة سيئة، فهم قراصنة غير شرعيين في بحار محرمة يشغلون تسجيلات ليلية متأخرة مع كلمات مبتورة.

كانت جراني تحاول العثور على عقل إسك بسحر العقل وحده، وهو ما يشبه البحث عن إبرة في كومة قش.

لم تكنْ تنجح، لكنْ قد وصلها ما يكفي من البصائر الحسية خلال النحيب المتباين لألف عقل يفكرون في الوقت نفسه، قد أقنعها بأن العالم فعلًا كان سخيفًا كما كانت تعتقد دومًا.

قابلتْ هيلتا عند زاوية الشارع، كانت تحمل عصا مقشتها، إذ كان الأفضل هو إجراء استطلاع جوي (لكنْ على نحو سري إلى حد بعيد، فقد كان رجال أوهولان هم سبب وجود مرهم «أبقى كثيرًا»، لكنهم وضعوا حدودًا للنساء الطائرات). كانت ذاهلة.

قالت جراني: «لا أثر لها حتى».

- هل نزلتِ النهر؟ ربما سقطت فيه!

- كانت لتعاود الخروج منه من جديد، على أي حال يمكنها العوم، أعتقد أنها تختبئ، سحقًا لها.

- ماذا سنفعل؟

- يا هيلتا جوتفاوند أنا خجلى منكِ، أتصرف كالبقرة، هل أبدو قلقة؟

حدقت إليها هيلتا: «نعم يبدو عليكِ قليلًا، شفتاكِ أصبحتا رقيقتين».

- إنني غاضبة وهذا كل ما في الأمر.

- دائمًا ما يأتي الغجر إلى هنا للسوق، ربما قد أخذوها معهم.

كانت جراني مستعدة لتصديق أي شيء عن سكان المدينة، لكنها هنا كانت على أرضية أصلب.

- إذن فهم أكثر حمقًا مما كنت أحسبهم عليه.

قطعتْ قولها بسرعة تذكرت فقالت: «اسمعي، معها العصا».

قالت هيلتا التي كانت على وشك البكاء: «وما جدوى ذلك؟».

- لا أظن أنكِ قد فهمتِ أيًّا مما قلته لك.

وأكملتْ جراني بصرامة: «ما علينا سوى العودة إلى مكانكِ والانتظار».

- انتظار ماذا؟

قالت جراني بنحو غامض: «الصرخات أو كرات النار أو أيًّا ما يكون».

- هذا قول متحجر القلب.

- أوه، أعتقد أنهم قد وصلوا إلى هناك، تعالي، امضي قدمًا وأشعلي النار تحت الغلاية.

رمقتها هيلتا بنظرة مدهوشة، ثم صعدتْ على مقشتها وارتفعتْ ببطء وبطريقة متقطعة في الظلال بين المداخن. لو كانت عِصي المقشات سيارات، فستكون هذه من طراز موريس ماينور ذات النافذة المنفصلة.

راقبتها جراني وهي تذهب، تعثرتْ على طول الشوارع المبللة بعدها، كانت مصرةً أنهما لن تجداها على ظهر أحد تلك الأشياء.

كانت إسك ترقد في ملاءات السرير الاحتياطي الكبيرة الناعمة والمبللة قليلًا في غرفة الأحجية. كانت متعبةً لكنْ جافاها النوم. كان السرير شديد البرودة لسبب واحد؛ تساءلت بصعوبة حالما كان بإمكانها التجرُّؤ على تدفئته، لكنها فكرتْ في الأمر. لا يبدو أن بإمكانها التعويل على نوبات النار، بصرف النظر عن مدى دقة تجربتها. فتلك النوبات إما لم تحدث من الأساس وإما حدثت أزيد من اللازم. أصبحتِ الغابات المحيطة بالكوخ مرتقةً من كثرة كرات النار المختفية فيها، وقد قالت لها جراني إن لم يكن لها مستقبل في سحر السحرة فيمكن أن يكون لها مستقبل في أن تصبح بَنَّاءَ جيدًا أو غطاسًا كذلك.

تقلبتْ متجاهلة رائحةَ الفطر الخفيفة في الفراش، ثم تحسستْ بيدها في الظلام حتى عثرت على العصا مُسندة إلى رأس السرير، كانتِ

السيدة اسكلر مصرةً على إنزالها إلى الطابق السفلي، لكنّ إسك تشبثتْ بها كغريق، كانت الشيء الوحيد الذي تيننت من أنه يخصها في العالم.

شعر السطح المزين بنقوشه الغريبة بالراحة بشكل غريب. نامت إسك وحلمتْ بأساور وحزم غريبة وجبل. ونجوم بعيدة فوق الجبال وصحراء باردة فيها مخلوقات غريبة تتمايل على الرمال الجافة وتحدق إليها خلال أعين الحشرات...

كان هناك صرير على الدرج ثم صرير آخر ثم صمت من ذلك النوع الخانق، صمت مكتوم يصدر عن شخص ما زال ثابتًا قدر الإمكان.

انفتح الباب، كان ظل اسكلر أكثر سوادًا في ضوء الشمعة على الدرج، وكانت هناك محادثة هامسة قبل أن يمشي على أطراف أصابعه تجاه رأس السرير بقدر ما أمكنه من صمت. انزلقتِ العصا بانحراف جراء أول تحرش حذر منه أزاحها، لكنه أمسك بها بحذر والتقط أنفاسه ببطء شديد.

لذا لم يكنْ لديه ما يكفي من الهواء للصراخ عندما تحركت العصا في يديه. لقد شعر بالقشور والالتفافات وعضلاتها...

استيقظتْ إسك وجلستْ معتدلةً في الوقت المناسب لترى اسكلر يرجع إلى الخلف هابطًا الدرج شديد الانحدار. وما زال مندمجًا اندماجًا يائسًا مع شيء لا مرئي تمامًا يلتفُّ حول ذراعيه. كانت هناك صرخة أخرى من الأسفل عندما نزل إلى زوجته.

فقد ركضتِ العصا على الأرض واسلقتْ محاطةً بتوهج أوكاتريني خافت.

نهضتْ إسك من الفراش، وهبطتْ على الأرض. كان هناك لعنة رهيبة وبدا ذلك خطرًا. حدقتْ حول الباب ونظرت إلى أسفل إلى وجه السيدة اسكلر.

- أعطيني هذه العصا.

مدتْ إسك يدها خلف السيدة وأمسكت بالخشب المصقول قائلة: «لا إنها لي».

زجرتْها زوجة النادل قائلة: «إنها ليست من الأشياء التي تناسب الفتيات الصغيرات».

قالت إسك: «إنها تخصني»، وأغلقت الباب بهدوء.

استمعتْ لحظةً للغمغمة التي أتت من الأسفل وحاولت التفكير في ما تفعله تاليًا. فسيسفر تحويل الزوجين إلى شيء ما عن ضجة كبيرة على الأرجح، وعلى أي حال فهي لم تكن متأكدة تمامًا من كيفية فعل ذلك.

فالحقيقة هي أن السحر لم يكن ينجح فعلًا إلا عندما لا تفكر فيه، بدا كأن عقلها يعيق طريقه.

تحركتْ في الغرفة وفتحتِ النافذة الصغيرة، انجرفتْ روائح الليل الحضرية الغريبة إلى الداخل، رائحة رطوبة الشوارع وعطر أزهار الحدائق وإشارة بعيدة إلى مرحاض مكتظ. كان هناك بلاط مبلل بالخارج.

عندما بدأ اسكلر في صعود الدرج، دفعتِ العصا بعيدًا إلى السقف وزحفت خلفها وثبتت نفسها على المنحوتات التي فوق النافذة. انحدر السقف خارج البيت وتمكنتْ من البقاء بوضع مستقيم على نحو غامض، لأنها كانت على الأقل نصف منزلقة ونصف متدحرجة على البلاط غير المستوي. هبطتْ بطول ست أقدام على البراميل القديمة وتدافعتْ سريعًا على الخشب الزلق وهرولت بسهولة في ساحة النزل.

وبينما كانت تركل ضباب الشارع استطاعتْ سماع أصوات الجدال الدائر والقادم من نزل الأحجية.

هُرِع اسكلر أمام زوجته ووضع يده على صنبور أقرب برميل. توقف، ثم فتحه فملأتْ رائحة براندي الخوخ الأبيض الغرفة، كانت رائحة حادة كالسكاكين. أوقف تدفق البراندي واسترخى.

سألت زوجته: «أتخشى أن يتحول إلى شيء نتن؟».

أومأ برأسه.

بدأت بقولها: «لو لم تكن أخرقَ للغاية».

- قلت لكِ إنها عضتني.

- كان من الممكن أن تصبح ساحرًا ولن نُضطَرَّ إلى كل هذا العناء، أليس عندك طموح؟

هز اسكلر رأسه وقال: «أعتقد أن الأمر يتطلب ما هو أكثر من عصا كي يكون المرء ساحرًا، وعلى أي حال فقد سمعتُ أن من غير المسموح للسحرة بالزواج، بل حتى لا يسمح لهم بـ...».

تردد.

- بماذا؟ لا يسمح لهم بماذا؟

تلوى اسكلر وقال: «حسنًا أنتِ تعرفين، ذلك الشيء».

قالت السيدة اسكلر بسرعة: «أنا متأكدة من أنني لا أعرف ما تتحدث عنه».

- لا، لا أعتقد.

تبعها على مضض خارجًا من غرفة البار المظلمة، وقد بدا له حينها أن حياة السحرة قد لا تكون بمثل ما اعتقد من سوء.

وقد ثبتتْ صحة تخوفه عندما اكتشف في صباح اليوم التالي تحول البراميل العشرة من براندي الخوخ الأبيض إلى شيء نتن فعلًا.

تجولتْ إسك في الشوارع الرمادية بلا هدف، حتى وصلتْ إلى أرصفة نهر أوهولان الصغيرة، كانت الزوارق العريضة مسطحة القاع تتمايل على الأرصفة، وأطلق واحد أو اثنان منها خصلاتٍ ملتوية من الدخان الصادر عن مداخن المواقد الودودة. صعدت إسك بسهولة إلى أقربها، واستخدمتِ العصا لرفع النسيج الزيتي الذي يغطي معظمها.

كانت هناك رائحة دافئة مزيج من اللانولين دهان الصوف والقُمامة تدفعها الرياح، كان المَرْكَب محملًا بالصوف.

من السخف أن تنام في مَرْكَب لا تعرفه، ولا تعرف ما المنحدرات الغريبة التي قد تجرفك بعيدًا عندما تستيقظ، ولا تعرف أن الزوارق تنطلق مبكرًا -عادة تنطلق قبل أن تكاد الشمس تشرق- ولا تعرف ما الأفق الجديدة التي قد تحيي أحدهم في الغد.

أنت تعرف ذلك، لكنَّ إسك لا تعرف.

استيقظتْ إسك على صوت صفير أحدهم. استلقتْ دون حَراك، وأحداث الأمس تدور في ذهنها حتى تذكرتْ لماذا هي هنا، ثم تدحرجتْ بحذر شديد ورفعت جزءًا من النسيج الزيتي.

كانت هنا إذن، لكنَّ «هنا» قد انتقل. قالت وهي تراقب ابتعاد الضفة البعيدة: «هذا ما يسمونه الإبحار، لا يبدو شديد التميز».

لم يحدث لها قطُّ أن شرعتْ في القلق، فخلال السنوات الثماني الأولى من حياتها، كان العالم مملًّا على نحو خاص، والآن قد أصبح ممتعًا، فلن توشك أن تتصرف بجحود.

انضم كلب ينبح إلى الصفارة البعيدة. استلقت إسك على الصوف، ومدت يدها حتى توصلت إلى عقل الحيوان واستعارته برفق. لقد علمتْ

من عقلها غير الكفؤ وغير المنظم أن هناك أربع أشخاص على الأقل على متن ذلك المَرْكَب والعديد من الأشخاص الآخرين متمددين في خط معها على النهر وقد كان بعضهم أطفالًا.

سمحتْ للحيوان بالذَّهَاب، ونظرت إلى المشهد ثانية وقتًا طويلًا، كان المَرْكَب يمر بين منحدرات برتقالية عالية محاطة بالعديد من ألوان الصخور، التي بدا كأن بعض الآلهة الجائعة صنعتها كشطيرة ملهى تحطم رقمًا قياسيًّا، وحاولت تجنب الفكرة التالية. لكنها استمرت ووصلت إلى ذهنها مثل راقصة منسية غير متوقعة أسفل باب مرحاض الحياة. عاجلًا أم آجلًا ستُضطر إلى الخروج، لم تكن معدتها هي ما تضغط في هذه المرحلة لكنَّ مثانتها لم تتأخر.

ربما إن هي...

سُحِب النسيج الزيتي الذي يغطي رأسها بسرعة جانبًا، وأطل عليها رأس كبير ملتحٍ وقال: «حسنًا، حسنًا، ماذا لدينا هنا، مسافرة خُلْسَة، أليس كذلك؟».

نظرت إليه إسك وقالت: «بلى».

فقد بدا أن لا معنى لإنكار ذلك. وقالت: «هل يمكنك مساعدتي، رجاءً؟».

قال الرأس: «ألستِ خائفة من أنني قد أقذفكِ إلى... سمك الكراكي؟».

ولمَّا لاحظ نظرتها المتحيرة أضاف معاونًا: «إنها أسماك المياه العذبة الكبيرة، سريعة وكثيرة الأسنان، الكراكي».

لم يخطرْ ببالها أي شيء على الإطلاق فقالت بصدق: «لا، لماذا؟ أستفعل؟».

- لا، ليس حقيقيًّا، لا داعي إلى أن تخافي.

- لست خائفة.

- أوه.

ظهرتْ ذراع بنية مرتبطةً بالرأس بأعضاء عادية وساعدتها على الخروج من عشها الصوفي.

وقفتْ إسك على سطح المَرْكَب ونظرتْ حولها، كانت السماء أكثر زرقة من برطمان البسكويت. وهو ما يتناسب بدقة مع وادٍ فسيح يجري خلاله نهر رويدًا كما خُطِّطَ له.

كانت رامتوبس خلفها ما زالت تتصرف كأنها مربط الغيوم، لكنهم لم يعودوا مهيمنين كما عرفتهم إسك؛ حيث قوَّضتهم المسافة.

قالت إسك وهي تشمُّ الروائح الجديدة للأرض السَّبخة والبردي: «أين نحن؟».

قال آسرها: «أعالي وادي نهر عنخ، ما رأيك بها؟».

نظرتْ إسك إلى أعلى وأسفل والنهر، لقد كان فعلًا أوسع مما كان عليه في أوهولان.

- لا أعرف، إنه بالتأكيد كبير للغاية، أهذه سفينتك؟

صحح لها قائلًا: «مَرْكَب».

كان أطول من أبيها رغم أنه ليس كبيرَ السن جدًّا، ويرتدي ملابس كالغجر، وقد استُبدِلتْ أسنانٌ ذهبية بمعظم أسنانه، وقد قررتْ إسك أن الوقت ليس مناسبًا لسؤاله عن السبب. وكان ذا سمرة حنطية حقيقية عميقة؛ تلك التي يقضي الأثرياء عقودًا يحاولون الوصول إليها خلال الإجازات باهظة الكلفة وقطع من ورق القصدير، في حين أن كل ما على المرء فعله للحصول عليها هو العمل في الهواء الطلق يوميًّا. جبهته مجعدة.

- قال: «نعم إنه ملكي».

ثم قال وهو عازم على استعادة الإمساك بدفة الحوار: «وماذا تفعلين هنا، أودُّ أن أعرف؟ تهربين من المنزل أليس كذلك؟ لو كنتِ صبيًّا لقلتُ إنك تبحثين عن الرزق؟».

- ألا يمكن للفتيات البحث عن الرزق؟

قال الرجل وهو يبتسم ابتسامة عرضها 200 قيراط: «أعتقد أن من المفترض أن يبحثن عن صبي ثري».

مدَّ يدًا بنية مثقلة بالخواتم وقال: «تعالي وتناولي الفطور».

قالت: «في الحقيقة أحتاج إلى استعمال مرحاضك».

انفتح فمه على اتساعه.

- هذا مَرْكَب، أليس كذلك؟

- نعم؟

ربَّت يدها قائلًا: «وهذا يعني أن ليس هناك سوى النهر.. لا تقلقي، إنه معتاد ذلك».

وقفتْ جراني على رصيف الميناء، وكان حذاؤها ينقر الخشب. كان هناك شاب أقرب إلى ما تعتبره أوهولان مسؤولَ الميناء، وقد تعامل كأنه طاقم عمل بكامل قرته وكان يذبل بوضوح. ربما لم يكن سيماه شرسًا مثل كماشة الأصابع، لكنه يبدو موحيًا باحتمالية كون كماشة الأصابع حقيقة.

قالت: «تقول إنهم غادروا قبل الفجر».

قال: «نننعم، إيه لم أكز أعرف أنه لا يفترض بهم أن يغادروا».

- أرأيتَ فتاةً صغيرةً على متن المَرْكَب؟

تك تاك، ابتعد صوت حذائها.

قال: «أم، لا أنا آسف».

ثم أشرق محياه وقال: «إنهم من الزوون، إن كانتِ الطفلة معهم فلن تؤذى، يقولون إن بوسعكِ دومًا الوثوق بزووني. إنهم حريصون جدًّا على الحياة الأسرية».

التفَّتْ جراني إلى هيلتا التي كانت ترفرف كفراشة حائرة ورفعتْ حاجبيها.

رددتْ هيلتا: «أوه. نعم، الزوون إنه اسم جيد حقًّا».

قالت جراني: «همف».

أدارت كعب حذائها وتعثرت متوجهةً إلى وسط المدينة. ارتخى مسؤول الميناء كأنَّ شماعة الملابس قد أزيلت من قميصه.

كان مسكن هيلتا يقع فوق عشَّاب وفوق مدبغة، وقد حظي بإطلالة رائعة على أسطح منازل أوهولان. وقد أحببته لأنه يوفر الخصوصية التي تقدرها دومًا حيث قالت عنها: «عملائي الأكثر فطنة ممن يفضلون مكانًا خاصًّا جدًّا في جو من الهدوء حيث تكون حرية التصرف هي شعارنا إلى الأبد».

تجولت جراني ببصرها في غرفة الجلوس باحتقار لا يكاد يخفى، كان هناك عدد كبير جدًّا من الشراشيب وستائر الخرز والمخططات الفلكية والقطط السوداء في المكان. لم تكنْ جراني تستطيع تحمل القطط، كشرت.

قالت بنبرة اتهام: «أهذه مدبغة؟».

قالت هيلتا وقد وقفت بشجاعة في مواجهة احتقار جراني: «بخور، الزبائن يقدرونه، إنه يضعهم في الإطار الذهني الصحيح، أنت تعرفين كيف تجري الأمور».

جلست جراني لتبدأ في عمل طويل شاق في إزالة أقلام قبعتها وقالت: «كنت أعتقد أن بوسع المرء أداء عمل محترم تمامًا يا هيلتا دون اللجوء إلى حيل غرفة المعيشة».

قالت هيلتا: «الوضع مختلف في المدن، على المرء أن يجاري الزمن».

قالت جراني: «أنا متأكدة أنني لا أعرف السبب، هل الغلاية موقدة؟».

وصلتْ جراني إلى المنضدة وأزالت الغطاء المخملي عن كرة هيلتا الكريستالية، وهي كرة من الكوارتز بحجم رأسها.

قالت: «لم أستطع قطُّ التعويل على مادة السيلكون السخيفة هذه، كان وعاء من الماء به قطرة حبر جيدًا بما يكفي عندما كنتُ فتاة، دعينا نرَ الآن...».

حدقت إلى قلب الكرة الراقص، محاولة الاستعانة بها لتركيز عقلها في مكان وجود إسك. كان الكريستال شيئًا صعبَ الاستخدام في أفضل الأوقات، وعادة ما يعني التحديق إليه أن الشيء الوحيد المضمون حدوثه في المستقبل هو الصداع النصفي الحاد. لم تثقْ جراني بهم معتبرة إياهم صفعةً من سحر السحرة؛ بسبب الدبوسين، فقد بدا ذلك الشيء البائس سيمتص عقلك مثل حلزون بداخل قوقعة.

قالت: «اللعنة، كل شيء لامع».

نفختْ عليها ومسحتها بأكتافها ووقفت هيلتا تحدق من فوق كتفها، وقالت ببطء: «هذا ليس بريقًا، إنه يعني شيئًا ما».

- ماذا؟

- لستُ متأكدة، أيمكنني أن أجرب؟ أنا معتادة إياها.

دفعت هيلتا قطة بعيدًا عن المقعد الآخر، وانحنتْ إلى الأمام للتحديق إلى أعماق الزجاج.

قالت جراني: «هوف، خذي راحتكِ، لكنكِ لن تجدي...».

- انتظري، شيء ما قادم.

أصرت جراني: «كل شيء يبدو لامعًا من هنا، أضواء فضية صغيرة تطفو من كل مكان مثل ألعاب العواصف الثلجية الصغيرة في زجاجة، جميلة جدًّا حقًّا».

- نعم، لكنِ انظري خلف الرقاقات.

نظرت جراني.

وكان هذا ما رأته.

كان مكان النظر عاليًا جدًّا، وكانت هناك رقعة واسعة من الريف أسفله، زرقاء مع بعد المسافة، ويتلوى من خلالها نهر شاسع مثل ثعبان مخمور. كانت هناك أضواء فضية تسبح في الطليعة، لكنها إن جاز التعبير كانت مجرد رقاقات في عاصفة الأضواء العظمى التي تحولت إلى دُوَّامة كسلانة كبيرة مثل إعصار عجوز مع هجوم سيئ من الثلج، ثم تجمع إلى أسفل إلى المناظر الطبيعية الضبابية. برزت عيناها وكان بإمكان جراني تحديد بعض النقاط في النهر.

ومن حين إلى آخر، تألق نوع من الإضاءة مدةً وجيزةً متحولًا بلطف إلى قمع من غبار.

تراجعتْ جراني ونظرت إلى أعلى، بدتِ الغرفة مظلمةً للغاية.

قالت: «إنه نوع غريب من الجو».

لأنها لم تستطعِ التفكير في شيء أفضل لقوله، ورغم إغماضها عينها، ما زالت الذرات المتلألئة ترقص أمام ناظريها.

قالت هيلتا: «لا أعتقد أنه الجو، لا أعتقد أن البشر يمكنهم رؤيته، لكنَّ الكريستال يُظهره. أعتقد أنه سحر يتكاثف خارج الهواء».

- في العصا؟

- نعم، هذا ما تفعله عصا السحرة، إنه نوع من تقطير السحر.

خاطرتْ جراني بنظرة أخرى إلى الكريستال.

قالت بحذر: «داخل إسك؟».

- نعم.

- يبدو أن هناك الكثير جدًّا منه.

- نعم.

لم تكُ تلك أول مرة تمنت فيها جراني أن تعرف المزيد عن كيفية إعمال السحرة سحرَهم. كان عندها رؤية لإسك والسحر يملأها، حتى انتفخ كل نسيج ومسام مع العصا. ثم يبدأ بالتسرب ببطء في البداية، يتفرغ إلى الأرض في نبضات صغيرة، لكنْ بعدما يراكم تفريغًا كبيرًا من الإمكانية السحرية التي يمكنها إحداث أنواع الضرر كافة.

قالت: «سحقًا، لم ترقْ لي تلك العصا قطُّ».

قالت هيلتا: «على الأقل إنها توجهها إلى مكان الجامعة، سيعرفون ما عليهم فعله».

- قد يكون هذا صحيحًا، إلى أي مدى أبحروا في النهر برأيك؟

- عشرون ميلًا أو نحو ذلك، هذه المراكب تبحر بوتيرة المشي، فالزوون ليسوا على عجلة من أمرهم.

قالت جراني: «حسنًا».

نهضت واتخذ فكها وضع التحدي، أمسكتْ قبعتها والتقطتْ كيسَ متاعها وقالت: «أحسب أنني أمشي أسرع من المَرْكَب، والنهر كله متعرج لكنني سأمشي في خطوط مستقيمة».

قالت هيلتا: «هل ستمشين خلفها، لكنْ هناك غابات وحيوانات برية».

- جيد، يمكنني أن أفعل ذلك بالعودة إلى العمران، إنها تحتاج إليَّ. العصا تتولى زمام الأمور وقد قلتُ إنها ستفعل. لكنْ هل أنصت لي أحد؟

قالت هيلتا: «أفعلوا ذلك؟».

وهي ما زالت تفكر في ما تقصده جراني بقولها العودة إلى العمران.

قالت الجدة ببرود: «كلا».

كان اسمه أمشات بهال زوون، يعيش على عوامة مع زوجاته الثلاث وأولاده الثلاثة وكان كاذبًا.

لم يكنْ ما أزعج أعداء قبيلة الزوون منهم دومًا هو مصداقيتهم فحسب التي كانت مطلقةً على نحو يثير الغضب، بل نمط الصراحة التامة المباشرة. لم يسمع الزوون قطُّ بلطف التعبير، ولن يفهموا مطلقًا ما يفعلون به لو أنه لديهم، باستثناء أنهم كانوا سيطلقون عليه بالتأكيد: «طريقة لطيفة لقول شيء بغيض».

من الواضح أن تمسكهم الصارم بالحقيقة لم يأمرهم به إله، كما هي الحال عادة، بل يبدو أن له أساسًا وراثيًّا. لا يمكن للزووني العادي أن يكذب إلا كما يمكنه التنفس تحت الماء، وفي الواقع كان المصطلح نفسه كافيًا لإزعاجهم إلى حد بعيد. فالكذب عندهم لم يكن يعني شيئًا أقل من تغيير العالم كليًّا.

وقد كان ذلك عقبة في السباق التِّجاري، وهكذا على مر آلاف السنين، علم شيوخ الزوون تلك القدرة العجيبة التي يمتلكها الآخرون بتلك الوفرة وقرروا تبنيها هم أنفسهم كذلك.

شجَّع الشباب الذي أظهروا أمارات باهتة على امتلاك تلك الموهبة؛ في مناسبات احتفالية خاصة لتحريف الحقيقة أكثر من أي وقت مضى في مسابقات تنافسية. كانت أول كذبة بدائية مسجلة هي: «في الحقيقة كان جدي طويلًا للغاية». لكنْ في النهاية تشبثوا بها وأنشأوا مكتبَ كاذبِ القبيلة.

لا بدَّ أن يكون مفهومًا أن في حين كانت أغلبية الزوون لا يستطيعون الكذب، فعندهم احترام عظيم لأي زووني يمكنه القول بأن العالم مختلف عمَّا هو عليه فعلًا. واحتلَّ الكاذب مكانة بارزة، ومثَّل قبيلته في جميع تعاملاتها مع العالم الخارجي الذي تخلى الزووني العادي عن محاولة فهمه منذ أمد بعيد. قبائل الزوون فخورة للغاية بكذَّابيها.

انزعجتْ سائر الأعراق الأخرى من كل هذا، فقد شعروا أن الزوون يجب أن يعتمدوا ألقابًا أكثر ملائمة؛ ألقابًا على شاكلة «دبلوماسي» أو «مسؤول علاقات عامة». لقد شعروا أنهم يسخرون من الأمر برمَّته.

قالت إسك بريبة، وهي تنظر إلى أرجاء مقصورة المَرْكَب المكتظة: «أهذا كله صحيح؟».

قال أمشات بحزم: «لا».

ضحكتْ زوجته الصغيرة التي كانت تطبخ العصيدة على موقد منمق صغير، شاهد أولاده الثلاثة إسك بجدية من على حافة المنضدة.

- أسبق وقلت الحقيقةَ قطُّ؟

ابتسم ابتسامةً كشفت عن منجم ذهب في أسنانه، لكنَّ عينيه لم تبتسما وقال: «أنتِ؟ لماذا وجدتكِ على جزيرة من الصوف في مَرْكَبي؟ أمشات ليس خاطفًا، هناك أشخاص في المنزل سيقلقون عليكِ، أليس كذلك؟».

قالت إسك: «أتوقع أن تأتي جراني للبحث عني، لكني لا أعتقد أنها ستقلق كثيرًا، ستغضب فقط حسبما أتوقع. على أي حال، أنا ذاهبة إلى عنخ-موروبورك. يمكنكَ وضعي على متن السفينة...».

- ...القارب...

- ...إذا أردتِ، أنا لا أمانع في دراجة حتى...

قال أمشات: «لا يمكنني فعل ذلك».

- أهذه كذبة؟

- لا، فهناك قطر بري حولنا ولصوص.. وأشياء.

أومأت إسك وقد تهلل وجهها، وقالت: «لقد حُسِمَ الأمر إذن، أنا لا أمانع النوم في الأصواف، ويمكنني دفع ثمن رحلتي، بوسعي فعل...».

ترددت وتعلقتْ جملتها غير المنتهية مثل حليقة صغيرة من الكريستال في الهواء، بينما نجح الحذر في السيطرة على لسانها، فأكملتْ كلامها بعرج قائلة: «أشياء مفيدة».

كانتْ واعيةً بنظرة أمشات إلى أقدم زوجاته وهي تخيط جوار الموقد. ووفق تقاليد الزوون، فلم تكنْ تتشح سوى السواد. كانت جراني لتوافق بشدة.

سأل: «أي أشياء مفيدة؟ الغسل والكنس أليس كذلك؟».

قالت إسك: «إذا أردتَ، أو التقطير باستخدام الإمبيق الثنائي والثلاثي، وصنع الورنيش والزجاج والدهانات والمحادثات وتبادل النكات وصناعة الشمع وتصنيع الشموع والانتقاء المناسب للبذور والجذور والشتلات ومعظم تحضيرات الأعشاب الثمانين الرائعة. يمكنني الغزل وصناعة البطاقات والتصليح وحرث الأرض والحياكة باليد وصنع الإطارات والعزف على القيثارة والشغل على نول النبلاء وبوسعي حياكة الخيط إن ابتدأ لي أحدهم عقد الصوف، ويمكنني قراءة التربة والحصى، وأعمال النجارة حتى النقر واللسان الثلاثي والتنبؤ بالجو خلال دلائل الحيوانات وحسابات السماء، وزيادة أعداد النحل وتخمير خمسة أنواع من الميد وصناعة الصبغات ومثبتات اللون والخضاب من بينها الأزرق السريع، ويمكنني فعل معظم أنواع الحدادة البيضاء وإصلاح الأحذية والعلاج والأزياء ومعظم الجلود. وإذا كان عندك ماعز، يمكنني الاعتناء بها، فأنا أحب الماعز».

نظر أمشات إليها بإمعان، شعرتْ أن من المتوقع منها الاستمرار في الحديث.

- قالت: «لا تحب جراني رؤية أشخاص لا يفعلون شيئًا بالجوار أبدًا».

وأضافتْ بطريقة تقدم المزيد من التوضيح: «ودائمًا ما تقول إن الفتاة التي تجيد عمل يدها لن تحتاج إلى العناء لكسب عيشها أبدًا».

أطرق أمشات برأسه بوهن قائلًا: «أو إلى زوج حسبما أتوقع».

- في الواقع، كانت جراني تقول الكثير في هذا الصدد...

قال أمشات: «أراهن أنها فعلت».

نظر إلى أقدم زوجاته التي أومأت بشكل غير محسوس تقريبًا وقال: «جيد جدًّا، إن كنتِ تستطيعين أن تكوني ذات نفع فابقي، وهل يمكنك العزف على آلة موسيقية؟».

أعادت إسك النظر إليه بثبات ودون أن يرف لها جَفْن قالت: «ربما».

وهكذا وبأقل قدر من الصعوبة والقليل من الأسى، غادرت إسك رامتوبس وجوَّها والتحقت بالزوون في رحلتهم التِّجارية العظيمة إلى عنخ.

كان هناك ما لا يقل عن ثلاثين مَرْكَبًا يحمل كل منها على الأقل أسرة واحدة ممتدة من الزوون، ولا يبدو أن هناك سفينتين تحملان الحمولة نفسها، كان معظمهم متصلًا معًا، وكان على الزوون شد الحبل ببساطة والخطو على سطح المَرْكَب المجاور إذا ما أحبوا القليل من التواصل الاجتماعي.

أقامتْ إسك في الأصواف، كان الجو دافئًا تشبه رائحته رائحة كوخ جراني قليلًا، والأهم من ذلك بكثير، أنها كانت هادئة.

كانت قلقة قليلًا بشأن السحر.

كان السحر بالتأكيد يخرج عن السيطرة، لم تكنْ تمارس السحر، بل كان يحدث من حولها فحسب. وقد أحستْ أن الناس ربما لن يكونوا في غاية السعادة إن عرفوا.

وكان ذلك يعني، أنها إذا غسلتِ الأطباق كان عليها الجلجلة والرش بشكل مطوَّل، لتخفي حقيقة أن الأطباق كانت تغسل نفسها. وأنها إذا رقَّعت ثوبًا، كان عليها أن تذهب إلى ركن خاص على سطح المَرْكَب لإخفاء حقيقة أن حواف الثقوب كانت تجمع نفسها معًا كما لو كانت...

كأنَّ السحر من يؤدي المهام. ثم استيقظتْ في اليوم الثاني من رحلتها، لتجد العديد من الأصواف حول البقعة التي خبأت فيها العصا وقد مُشِطَتْ ونفشتْ ونسجتْ أنفسها في عقدة خيط في أثناء الليل.

لقد طردتْ كل أفكار إشعال النيران من رأسها.

لكنْ كانت هناك تعويضات مع ذلك، حيث جلب كل منعطف للنهر البني مشاهدَ جديدة؛ كانت هناك مساحات مظلمة تطوقها غابة قاتمة وقد انتقلت المراكب من خلالها في وسط النهر الميت برجال مسلحين والنساء بالأسفل، عدا إسك التي جلست تستمع باهتمام لأصوات الشخير والعطس التي تبعثهم من شجيرات الضفاف. كانت هناك مساحات من الأراضي الزراعية، وكان هناك العديد من المدن الأكبر من أوهولان، بل كانت هناك حتى بعض الجبال رغم أنهم كانوا عتيقين ومسطحين، وليسوا بمثل شباب ومرح جبالها. ليس لأنها كانت تعاني الحنينَ إلى الوطن بالمعنى الحرفي، لكنها شعرت في بعض الأحيان أن القارب نفسه، ينجرف على حافة حبل لا نهائي رغم أنه دائمًا ما كان متصلًا بمرساة.

توقفتِ المراكب في بعض المدن، لكنْ حسب التقاليد، فالرجال وحدهم من يذهبون إلى الشاطئ، ووحده أمشات الذي يعتمر قبعة الكذب الاحتفالية من يتحدث إلى غير الزوون. ذهبتْ إسك معه عادة، وقد حاول التلميح لها بالامتثال بالقواعد غير المكتوبة لحياة الزوون والاستقامة. لكنَّ التلميح بالنسبة إلى إسك تمامًا مثل لدغة البعوضة لوحيد قرن عادي، لأنها كانت تعرف فعلًا أنها إذا تجاهلت القواعد، فسيعيد الناس كتابتها على نحو لا ينطبق عليك.

على أي حال، فقد لاحظ أمشات أنه عندما يصطحب إسك معه، فدومًا ما يحصل على سعر مرتفع؛ كان هناك شيء ما في طفلة صغيرة تحدق

إليهم بإصرار من خلف قدميه، وهو ما دفع حتى التجار المتمرسين في السوق إلى إنهاء أعمالهم على عجل.

في الواقع، لقد بدأ الأمر يقلقه، فعندما يعرض عليه سمسمار سوق في بلدة زيمفيس المُسوَّرة حقيبةً من اللازورد مقابل مائة قطعة من الصوف؛ قال صوت صادر من نفس مستوى جيبه: «إنها ليست لازورد».

قال السمسار مبتسمًا: «اصغِ إلى الطفلة».

حمل أمشات أحد الأحجار ورفعها أمام عينيه وقال: «إنني أصغي، إنهم يبدون مثل اللازورد فعلًا، فلهم البريق واللمعان نفسه».

هزت إسك رأسها قائلة: «إنها ليست سوى اسبيركلز».

لقد قالت ذلك دون تفكير وندمت عليه من فورها، إذ استدار الرجلان للتحديق إليها.

قلَّب أمشات الحجر في كفه، ووضع أحجار الحرباء الدائرية في صندوق مع بعض الأحجار الكريمة الحقيقية، بحيث تظهر وهي تُغيِّر لونها، وكانت هذه خَدْعَة تقليدية، لكنَّ تلك الأحجار كانت بها نار زرقاء داخلية حقيقية. نظر بحدة إلى السمسار، كان أمشات قد تدرب جيدًا على فن الكذب، ولقد تعرف على العلامات الخفية، والآن بدأ يفكر في الأمر.

قال: «يبدو أن هناك شكًّا، لكنْ يمكن حله بسهولة، لا نحتاج إلا إلى أخذهم لخبير مثمن في شارع باين، لأن الدنيا كلها تعرف أن الاسبيركلز ستتحلل في سائل الهايبكاتيك، أليس كذلك؟».

تردد السمسار، لقد غيَّر أمشات الوضع على نحو طفيف، وقد أوحت عضلاته بأن أي تحرك مفاجئ من السمسار سينتهي به مسطحًا على

الأرض. وقد كانت الطفلة اللعينة تحدق إليه كما لو كان بإمكانها رؤية الجانب الخلفي لعقله. انهارت أعصابه.

وقال: «يؤسفني هذا النزاع المؤسف، لقد قبلتُ الأحجار بحسن نية على أنها لازورد، لكنْ ما دامت قد تؤدي إلى تنافر بيننا فسأطلب منك قبولها هدية مني. وبالنسبة إلى الأصواف، أيمكنني أن أعرض عليكَ تلك الروزيتا من الطراز الأول؟».

أخذ حجرًا أحمرَ صغيرًا من كيس مخملي صغير، بالكاد نظر إليه أمشات لكنْ دون أن يرفع عينيه عن الرجل. مرَّر الحجر لإسك وأومأت.

عندما فرَّ التاجر، سحب أمشات يد إسك وسحبها تقريبًا إلى كشك الصائغ الذي كان أكبر بقليل من كوة على الحائط. أخذ الشيخ أصغر الأحجار الزرقاء واستمع لتفسير أمشات المتعجل وسكب صحنًا من سائل الهايبكاتيك وأسقط الحجر فيه؛ وقد استحال إلى عدم.

قال: «هذا مثير للاهتمام»، وأخذ حجرًا آخر بملقاط وفحصه تحت عدسة مكبرة.

- إنها اسبيركلز فعلًا، لكنها عينات رائعة في حد ذاتها، لا قيمة لها بأي حال، وأنا مثلًا مستعد لأن أعرض عليك... أثمة خطب ما في عينيِ الفتاة الصغيرة؟

دفع أمشات إسك برفق، وقد توقفتْ عن محاولة رمق الصائغ بتحديق آخر.

- أعرض عليك، لنقُل زاتان من الفضة؟

قال أمشات بسرور: «فلنقل خمسة؟».

قالت إسك: «وسأحتفظ بأحد الأحجار».

رفع الشيخ يديه وقال: «إنها مجرد تحف، ليست ذات قيمة إلا للمجمع فقط!».

قال أمشات: «المجمع الذي قد يبيعهم لأي مشترٍ غافل على أنها أعظم أحجار روزيتا أو لازورد، خاصة أنه الصائغ الوحيد في المدينة».

تذمر الصائغ قليلًا من قوله، لكنهم اتفقوا أخيرًا على ثلاث زاتات من الفضة وواحدة من الاسبيركلز موضوع في سلسلة رفيعة لإسك.

عندما ابتعدوا عن مدى سمع الصائغ، أعطاها أمشات العملات الفضية قائلًا لها: «إنها لكِ، لقد ربحتِهم، لكن...».

قرفص إلى أسفل بحيث تكون عيناه في مستوى عينيها وأكمل: «لا بدَّ أن تخبريني كيف عرفتِ أن الأحجار مزيفة».

بدا قلقًا، لكنَّ إسك أحست أن الحقيقة لن تعجبه حقًّا، فالسحر يزعج الناس. وهو لن يحب سماعها إذا قالت ببساطة أن: الاسبيركلز اسبيركلز واللازورد لازورد، ورغم أن المرء قد يعتقد أنهما الشيء نفسه، فذلك لأن معظم الناس لا يستخدمون أعينهم بالطريقة الصحيحة. لا يمكن لشيء إخفاء طبيعته الحقيقية كليًّا.

وبدلًا من ذلك قالت: «من مناجم الاسبيركلز التي يملكها الأقزام بالقرب من القرية التي وُلِدْتُ فيها، وسرعان ما تتعلم كيف ينكسر الضوء فيها على نحو يدعو إلى الضحك».

نظر أمشات إلى عينيها بعضَ الوقت ثم هز كتفيه وقال: «حسنًا، لديَّ بعض الأشغال الأخرى هنا، لماذا لا تشترين لنفسكِ بعض الملابس الجديدة أو شيئًا من هذا القبيل؟ أود أن أحذركِ من التجار معدومي الضمير، لكنْ بطريقة ما، لا أعرف، لا أعتقد أنكِ قد تلاقين أي متاعب».

أومأتْ إسك. سار أمشات في السوق، وفي أول منعطف استدار ونظر إليها بإمعان، ثم اختفى وسط الحشود.

قالت إسك لنفسها حسنًا هذه نهاية الإبحار، إنه مرتاب تمامًا، لكنه سيراقبني الآن وقبل أن أعرف ماذا يحدث سيأخذون العصا بعيدًا وستحدث كل أنواع المتاعب. لماذا ينزعج الجميع من السحر؟

تنهدتْ تنهيدةً فلسفية ومضتْ لاستكشاف إمكانات المدينة.

ومع ذلك فقد كانت هنا مسألة العصا، قد حشرتها إسك بعمق بين الأصواف التي لم يحنْ ميعاد تفريغها بعد. فإن عادت سيبدأ الناس في طرح أسئلة لا تعرف أجوبتها.

وجدتْ زقاقًا مناسبًا وركضتْ فرارًا فيه، إلى أن منحها مدخلًا عميقًا الخصوصية التي تحتاج إليها.

فإذا كانت العودة غير واردة، فليس أمامها سوى أمر واحد، مدتْ يدها وأغمضت عينيها.

كانت تعرف بالضبط ما تودُّ فعله ، كان أمام عينيها. لا بدَّ ألا تأتي العصا طائرة في الهواء، مدمرةً المَرْكَب ولافتة الانتباه إلى نفسها. أخبرتْ نفسها بأن كل ما تحتاج إليه هو تغيير طفيف في طريقة تنظيم العالم، فلا ينبغي أن يكون العالم الذي فيه العصا محشورة بين الأصواف، بل يجب أن يكون عالمًا تكون فيه العصا في يدها. تغيير طفيف، تغيير متناهي الصغر للطريقة التي كانت عليها الأمور.

لو أن إسك كانت قد تدربتْ على سحر السحرة بشكل صحيح، لعرفتْ أن هذا أمر مستحيل. فقد عرف جميع السحرة كيفية تحريك الأشياء بدءًا من البروتونات وصاعدًا، ولكنَّ الأمر المهم في تحريك الأشياء من الألف إلى الياء -وَفْقَ قواعد الفيزياء الأساسية- أنها لا بدَّ أن تمر ببقية حروف الأبجدية في مرحلة ما. والطريقة الوحيدة التي يمكن للمرء بها التسبب

في اختفاء شيء ما عند النقطة أ وظهوره عند النقطة ياء هي خلط الواقع بأكمله وتشويشه، وهو ما قد يسفر عن مشكلات لا تحتمل حتى مجرد التفكير فيها.

لم تتدربْ إسك طبعًا، ومن المعلوم جيدًا أن أحد العناصر الحيوية للنجاح هو عدم المعرفة بأن ما تحاول فعله لا يمكن تحقيقه. فيمكن لأي شخص جاهل باحتمالية الإخفاق أن يكون نصف لبنة في مسار دراجة التاريخ.

بينما حاولت إسك معرفة كيفية تحريك العصا، انتشرتِ التموجات في الأثير السحري، وهو ما أدى إلى تغيير عالم القرص بالآلاف الطرق الطفيفة، كان معظمها غير ملحوظ، فربما ألقتْ بعض حبات الرمال على شواطئها في وضع مغاير قليلًا، أو تعلقتْ أوراق الأشجار على أشجارها بطريقة مختلفة قليلًا في بعض الأحيان. لكنْ بعد ذلك، اصطدمتْ جبهة موجة الاحتمال بحافة الواقع وارتدتْ مثل شلال من جانب البركة وقد لاقى تموجات متكاسلة آتية من الجهة الأخرى، وهذا ما سبب دُوَّامات صغيرة، لكنها مهمة في نسيج الوجود كله. ويمكن أن تكون لديك دُوَّامات في نسيج الوجود؛ لأنه نسيج غريب جدًّا.

كانت إسك جاهلةً تمامًا بكل ذلك بلا ريب، لكنها كانت في غاية الرضا عندما سقطتِ العصا من الفراغ إلى يدها.

شعرتْ بالدفء.

نظرتْ إليها بعضَ الوقت، وشعرتْ أن عليها فعل شيء حيال ذلك، فقد كانت كبيرة للغاية ومميزة للغاية وغير ملائمة للغاية. وهي تجذب الانتباه.

قالت بإمعان: «إذا كنتُ سآخذكِ معي إلى عنخ-موربورك، فعليكِ التنكر».

تلاشت بعض الومضات السحرية المتأخرة من العصا ثم أظلمت.

في النهاية، حلَّت إسك المشكلة العاجلة من خلال العثور على كشك في سوق الزيمفيس الرئيسي يبيع عِصي المقشات واشترت أكبرها وحملتها عائدة إلى مدخلها، أزالت المقبض وحشرت العصا عميقًا في أغصان البتولا، لم يكن صوابًا التعامل مع غرض نبيل بهذه الطريقة واعتذرت لها بصمت.

لقد أحدثت فرقًا على أي حال، فلن ينظر أحد مرتين إلى فتاة تحمل مقشة.

اشترتْ فطيرة بهار لتأكلها في أثناء الاستكشاف (لقد غشها صاحب الكشك بلامبالاة، ولم تدركْ إلا لاحقًا أنه تسلم قطعتين فضيتين لسبب غير معلوم، وكذلك فقد دخلتِ الفئران لسبب غامض إلى مخزنه وأكلتْ كل مخزونه في الليل، وقد صعق البرق جدته).

كانت البلدة أصغر من أوهولان ومختلفةً للغاية عنها، لأنها تقع في مفترق طرق يربط بين ثلاثة طرق تِجارية وبعيدة تمامًا عن النهر نفسه. وقد بُنِيَتْ حول ميدان ضخم هو تقاطع بين ازدحام مروري دائم غريب وقرية من خيام، حيث ركلت الإبلُ البغالَ وركلتِ البغالُ الأحصنةَ وركلت الأحصنةُ الإبلَ وركلوا كلهم البشرَ. كان هناك صخب من الألوان وضجيج من الضوضاء وأوركسترا أنفية من الروائح وصوت عنيف مستمر لمئات الأشخاص الذين يعملون بجد لكسب المال.

كان أحد أسباب النشاط الصاخب هو أن الناس في أجزاء كبيرة من القارة قد فضَّلوا جني المال دون عمل أي عمل على الإطلاق، ولأن القرص لم يُطوِّر بعد صناعةَ تسجيل الموسيقي، فقد اضطُرُّوا إلى العودة إلى الأنماط القديمة والأكثر تقليدية من اللصوصية.

ومن العجيب بما فيه الكفاية أن هذه الأنماط قد انطوت على بذل جهود جبارة؛ فدحرجة صخور ثقيلة إلى قمة المنحدرات؛ من أجل نصب كمينًا معتبرًا، وتقطيع الأشجار لقطع الطريق وحفر حفر مبطنة بالمسامير مع الإبقاء على طرف ماكر من خنجر، على الأرجح تطلبت هذه الأمور كافة قدرًا أكبر من التفكير والجهد العضلي أكثر مما تطلبته المهن الأكثر قبولًا مجتمعيًّا لكنْ مع ذلك، فما زال الناس مضللين بما فيه الكفاية لتحمل كل ذلك. إضافة إلى ليالي طويلة في بيئات غير مريحة لمجرد وضع أيديهم على صناديق جواهر كبيرة عادية تمامًا.

ولذلك فكانت مدينة مثل زيمفيس هي المكان الذي تنقسم فيه القوافل وتختلط وتتجمع معًا من جديد، حيث تكاتف عشرات التجار والمسافرين معًا للحماية من المعزولين اجتماعيًّا على المسارات المقبلة. كانت إسك تتجول في خضم الصخب دون اهتمام، وقد تعلمت كل ذلك بطريقة بسيطة تتمثل في العثور على شخص يبدو مهمًّا، والتشبث بذيل ثوبه وتجاذب أطراف الحديث معه.

وكان هذا الرجل بالذات يُعِدُّ بالات التبغ، وكان لينجح لولا مقاطعته.

- ماذا؟

- أتساءل، ماذا يحدث هنا؟

نوى الرجل أن يقول: «ادفعي شخصًا غيري وأزعجيه».

وانتوى أن يصفعها صفعة خفيفة على رأسها، ولذا ذُهِلَ عندما وجد نفسه ينحني ويتكلم بجدية مع فتاة صغيرة قذرة الوجه تحمل عصا مقشة كبيرة (وقد بدا له لاحقًا أن ذلك قد أثار اهتمامًا على نحو لا يمكن تحديده).

شرح ما يخص القوافل وأومأت الطفلة.

- يجتمع الناس معًا للسفر؟

- بالضبط.

- إلى أين؟

- إلى كل مكان مثلًا ستو لات وبيسدوبوليس... عنخ-موربورك طبعًا...

قالت إسك بعقلانية: «لكنَّ النهر من هذه الجهة، المراكب والزوون».

قال التاجر: «نعم، لكنهم يتقاضون أسعارًا باهظة ولا يمكنهم حمل كل الأشياء ولا أحد يثق بهم كثيرًا على أي حال».

- لكنهم صادقون للغاية!

قال وهو يبتسم عن عمد: «هه، نعم، لكنْ أتعرفين ما يقولون: «لا تثق أبدًا برجل صادق».

- من قال هذا؟

تسلل قدْر من عدم الارتياح إلى صوته: «إنهم يقولون، كما تعرفين، الناس».

قالت إسك: «أوه».

فكرتْ في الأمر وقالت بروية: «لا بدَّ أنهم تافهون للغاية، أشكرك على أي حال».

شاهدها تتجول وعاد إلى عدِّه، وبعد لحظة كان هناك تشبث آخر بذيل ثوبه.

قال محاولاً ألا يخسر وظيفته: «سبعة وخمسون سبعة وخمسون سبعة وخمسون حسنًا؟».

قالت إسك: «آسفة لإزعاجك مجددًا، لكن تلك البالات...».

- ماذا عنهم؟ سبعة وخمسون سبعة وخمسون سبعة وخمسون؟

- حسنًا، أيفترض احتواؤها على القليل من مخلوقات الدودة البيضاء؟

قال: «سبعة وخمس... ماذا؟».

خفض التاجر سجل أعماله وحدق إلى إسك قائلًا: «أي دودة بيضاء؟».

- اللافقارية البيضاء.

وأضافت إسك في محاولة للمساعدة: «شيء مثل الحفر في منتصف البالات».

- أتقصدين دودة التبغ الخيطية؟

نظر بأعين غاضبة إلى كومة البالات التي تفرغ حمولتها، والآن بدأ التفكير في الأمر، وتذكر البائع الذي بمظهر مضطرب مثل عفريت نصف الليل الذي يود الفرار هاربًا قبل أن يُكتشف ما تحول إليه الذهب الوهمي في الصباح.

- لكنه أخبرني أنها جيدة التخزين و... كيف عرفتِ على أي حال؟

اختفتِ الطفلة وسط الحشود، حدق التاجر باهتمام إلى البقعة التي كانت فيها. وحدق باهتمام إلى البائع الذي كان يبتسم بعصبية، وحدق باهتمام إلى السماء، ثم أخرج سكينَ أَخْذ العينات من جرابه، وقد بدا أنه قد توصل إلى قرار، وتوجه نحو أقرب بالة.

وفي غضون ذلك، عثرتْ إسك بالتنصتِ العشوائي على القافلة التي تجمع استعدادًا للسفر إلى عنخ-موربورك. كان رئيس القافلة جالسًا إلى منضدة هي لوح خشبي موضوع بين برميلين.

كان مشغولًا.

كان يتحدث مع ساحر.

يعرف المسافرون المتمرسون أن الفوج الذي يعبر حدود بلد قد يكون معاديًا، وأن يحمل معه عددًا لا بأسَ به من السيوف، لكنْ ينبغي بكل تأكيد أن يكون معه ساحر في حال دعت أي حاجة إلى فنون السحر، حتى لو لم يكن ذلك ضروريًّا، فوجود الساحر مهم لإشعال النيران. ولا يتوقع من ساحر من الدرجة الثالثة أو أعلى دفع مقابل الانضمام إلى الفوج، بل يتوقع أن يدفع له عوضًا عن ذلك. وكانت المفاوضات الناعمة تقترب من نهايتها في ذلك الحين.

قال رئيس القافلة: «هذا منصف جدًّا أستاذ تريتل، لكنْ ماذا عن الشاب؟».

ورئيس القافلة ذاك هو آداب جاندر، وهو شخصية مثيرة للإعجاب يرتدي سترة جلدية سميكة، وقبعة متهدلة بشكل أنيق وتنورة جلدية.

ثم أكمل: «أرى أنه ليس بساحر».

قال تريتل: «إنه تحت التمرين».

تريتل ساحر طويل نحيف أعلنت أرديته أنه ساحر من الإخوة القدامى والأصليين حقًّا للنجمة الفضية، وهي إحدى الرتب الثمانية لسحر السحرة.

قال جاندر: «إذن فهو ليس ساحر، أنا أعرف القواعد، وأنتَ لست ساحرًا ما لم يكن معك عصا، وهو لا يملك واحدة».

قال تريتل بصوت عالٍ: «فهو الآن مسافر إلى الجامعة الخفية للحصول على هذه التفصيلة الصغيرة».

لم يفرطِ السحرة في المال إلا كما تفرط النمور في أضراسها.

نظر جاندر إلى الفتى المعني، لقد التقى العديدَ من السحرة في عصره واعتبر نفسه حكمًا جيدًا، وكان عليه الاعتراف بأن هذا الفتى

يبدو نسيجَ ساحر جيد. بمعنى آخر، فقد كان نحيلًا ومهلهلًا وشاحبًا من قراءة الكتب المزعجة في غرف غير صحية، ولديه عينان دامعتان مثل بيضتين مسلوقتين بعض الشيء. خطر ببال جاندر أن على المرء التفكير بحيلة حتى يربح.

كان يعتقد أن الفتى كي يصعد على ظهر المَرْكَب، فلا بدَّ أن يحمل إعاقة ما، فالسحرة ضحايا لأمور مثل الربو والأقدام المسطحة لقد بدا أن هذه الإعاقات هي ما تمنحهم الدافع بطريقة ما.

قال بأقصى ما يستطيعه من لطف: «ما اسمك يا فتى؟».

قال الفتى: «سسسسسسسسسسس».

تحركت تفاحة آدم إلى أعلى وإلى أسفل في عنقه كبالون أسير. التفت إلى رفيقه مملوءًا بنداء صامت.

قال تريتل: «سايمون».

وافق سايمون قائلًا: «ايمون».

- أيمكنكَ رمي الكرات النارية أو إلقاء التعاويذ كتلك التي تقذف في وجه عدو؟

نظر سايمون إلى تريتل من جنبه.

غامر بقوله: «للللللللللل».

قال الساحر: «إن فتاي الشاب يتبع سحرًا أعلى من مجرد القذف بالسحر».

قال سايمون: «ا».

أومأ جاندر برأسه وقال: «حسنًا، ربما ستكون ساحرًا حقًّا يا فتى، ربما عندما يكون معك عصاك الجميلة فسأوافق على السفر معي في مرة ما؟ نعم؟ سأستثمر فيك، نعم؟».

- نننننننن.

قال جاندر الذي لم يكن رجلًا فظًّا بطبيعته: «أومئْ برأسك فحسب».

أومأ سايمون بامتنان، وتبادل تريتل وجاندر الإيماءات، ثم انطلق الساحر بعيدًا، وتخلف تلميذه وراءه تحت وطأة ثقل الأمتعة.

نظر جاندر إلى القائمة التي أمامه ومحا بعناية على كلمة «ساحر».

هبط ظل صغير على الصفحة، ألقى نظرةً خاطفةً وابتدأ رغمًا عنه يقول ببرود: «حسنًا؟».

قالت إسك: «أود الذَّهَاب إلى عنخ-مورپورك، من فضلك، معي بعض المال».

- اذهبي إلى أمك في المنزل أيتها الطفلة.

- لا، حقًّا، أريد أن أبحث عن بختي.

تنهد جاندر وقال: «ولماذا تحملين عصا المقشة هذه؟».

نظرت إسك إليها كأن لم يسبق لها رؤيتها قطُّ: «لا بدَّ أن يكون كل شيء في مكان ما».

- اذهبي إلى المنزل فحسب يا فتاتي، أنا لا أقلُّ أي هاربين معي إلى عنخ-مورپورك. يمكن أن تحدث أمور غريبة للفتيات الصغيرات في المدن الكبرى.

أشرق وجه إسك وقالت: «أي نوع من الأمور الغريبة؟».

- اسمعي! لقد قلتُ اذهبي إلى المنزل أليس كذلك؟ حالًا!

التقط طباشيره واستمر في وضع العلامات على العناصر الموجودة في قائمته محاولًا تجاهل النظرة الثابتة التي بدت مملةً من خلال الجزء العلوي من رأسه.

قالت إسك بهدوء: «يمكنني أن أكون مفيدة».

رمى جاندر الطباشير وخدش ذقنه بانزعاج: «كم عمرك؟».

- تسعة.

- حسنًا يا آنسة الأعوام التسع، لديَّ مائتي حيوان ومائة إنسان يودون السفر إلى عنخ-موربورك، ونصفهم يكره النصف الآخر، وليس معي ما يكفي من أشخاص يمكنهم القتال، والناس يقولون إن الطرق في غاية السوء، وقطَّاع الطرق أصبحوا صفيقين حقًّا في الاختباء، ويطالب المتصيدون برسوم جسر أكبر هذا العام وهناك سوس في الإمدادات، وما زلت أعاني ذلك الصداع، فأين سأحتاج إليك في كل هذا؟

قالت إسك: «أوه».

ونظرتْ حولها إلى الساحة المكتظة.

- أي هذه الطرق يؤدي إلى عنخ-موربورك إذن؟

- ذلك الذي هناك، ببوابة.

قالت إسك على نحو خطِر: «شكرًا لك، مع السلامة. أودُّ ألا تصيبك أي متاعب أخرى وأن يتحسن رأسك».

قال جاندر بارتياب: «حسنًا».

قرع بأصابعه مقدمة المنضدة وهو يشاهد إسك تمشي تجاه طريق عنخ-موربورك، وهو طريق طويل متعرج، طريق يسكنه اللصوص والجونولز[1]. طريق يترنح بممراته الجبلية العالية ويزحف ويلهث على الصحراء.

قال متحدثًا من تحت أضراسه: «يا فتى! يا أنتِ!».

---

(1) كائنات أسطورية شريرة لها أجساد مثل البشر ووجوه مثل الذئاب. (المترجمة)

كانت جراني ويذرواكس في مأزق.

فبادئ ذي بدء، قررتْ أنه ما كان ينبغي لها أبدًا السماح لهيلتا بِحَثِّها على استعارة مقشتها، فقد كانت مقشةً كهلةً ومتقلبةً ولا تطير إلا بالليل، وحتى في ذلك الحين لا تتمكن من الطيران بسرعة أعلى بكثير من الهرولة.

- كانت نوبات رفعها هزيلة جدًّا لدرجة أنها لم تبدأ بالعمل قطُّ إلا بعد أن تُحرَّك بسرعة بالغة. لقد كانت في الواقع عصا المقشة الوحيدة التي سبق أن احتاجتْ إلى دفعة لتدور.

وبينما كانت جراني ويذرواكس تتعرق وتسب، كانت تجري على طول طريق الغابة ممسكة بهذا الشيء اللعين على ارتفاع الكتف للمرة العاشرة عندما وجدت فخ الدب.

المشكلة الثانية أن الدب قد وجدها أولًا، في الواقع لم تكن هذه مشكلة كبيرة لأن جراني التي كانت في مزاج سيئ ضربته بين عينيه مباشرة بعصا المقشة، وقد كان جالسًا الآن في مسافة بعيدًا عنها قدر الإمكان بما يكفي لدخولها في الحفرة والتفكير بأفكار سعيدة.

لم تكنْ ليلة مريحة للغاية، ولم يكنِ الصباح أفضل بكثير، إذ أطل مجموعة من الصيادين على حافة الحفرة بحلول الفجر.

قالت جراني: «يتعلق الأمر بالأوان كذلك، أخرجوني».

انسحبت الرؤوس المدهوشة، وتمكنتْ جراني من سماع محادثة هامسة متسرعة، فقد رأوا القبعة وعصا المقشة.

وأخيرًا، ظهر رأس ملتحٍ مرة أخرى على مضض كأنَّ الجسد المتصل به يدفع إلى الأمام.

بادر بقوله: «امم، انظري يا أمي».

قاطعته جراني بحدة: «أنا لست أمًّا، أنا بالتأكيد لستُ أمك، هذا إن كان لديكَ أم أصلًا وأنا أشك في ذلك. لو كنت والدتكَ، لكنت تخلصت منك قبل أن ألدك».

- إنه ليس سوى تعبير مجازي.

- إنها إهانة لعينة هذا توصيفها الصحيح!

كانت هناك محادثة هامسة أخرى.

قالت جراني بصوت مدوٍّ: «إن لم أخرجْ، فستكون هناك مشكلة. أترون قبعتي، هه؟ أترونها؟».

ظهر الرأس من جديد، وقالت: «هذا هو بيت القصيد، أليس كذلك؟ أعني ماذا سيحدث لو سمحنا لك بالخروج؟ يبدو الأمر أقل خطورة من جميع المناحي إن نحن ردمنا الحفرة فحسب. لا شيء شخصي، كما تفهمين».

أدركتْ جراني ما يزعجها بشأن الرأس، قالت بنبرة اتهام: «أتجثو على ركبتيْك؟ لا لم تفعل، فأنت! أنتم أقزام!».

همس، همس.

سأل الرأس بتحدٍّ: «وماذا في ذلك؟ ما من عيب في ذلك، أليس كذلك؟ ما موقفك من الأقزام؟».

- أتعرفون كيفية تصليح عِصي المقشات؟

- عِصي مقشات سحرية؟

- نعم.

همس.. همس.

- ماذا لو فعلنا؟

telegram @
yasmeenbook

- حسنًا يمكن التوصل إلى بعض الاتفاقات...

صدر من قاعات الأقزام صوت ضرب على المطارق، ورغم تأثيرها بشكل أساسي، فقد وجد الأقزام صعوبةً في التفكير دون صوت المطارق، فقد وجدوه مهدئًا. ولذلك دفع الأقزام ميسورين الحال من العاملين في المهن المكتبية المال إلى العفاريت لطرق السندان الاحتفالية الصغيرة، فقط للحفاظ على الصورة الصحيحة للأقزام.

وضعتْ عصا المقشة بين حاملين، وجلست جراني ويذرواكس على صخرة ناتئة فيما ارتدى القزم الذي يبلغ طوله نصف طولها مئزرًا مليئًا بالجيوب، وتجول حول المقشة وضربها من وقت إلى آخر.

وفي النهاية، ركل الشعيرات وأخذ نفسًا طويلًا في ما يشبه الصفير العكسي، وهي علامة سرية للحرفيين في كل أنحاء الكون، وتعني أن ثمة شيئًا مكلفًا على وشك الحدوث.

قال: «حاااسسسننناااا، يمكنني أن آتي بالمتدربين لإلقاء نظرة، يمكنني. إنها درس تعليمي بحد ذاته، وأنتِ تقولين إنها تمكنت فعلًا من الانتقال جوًّا».

قالت جراني: «لقد طارت كالطيور».

أشعل القزم غليونًا، وقال متأملًا: «أودُّ أن أرى هذا الطائر بشدة، ينبغي أن أتخيل أنه شيء لا بأس بمشاهدة طائر كهذا».

قالت جراني: «نعم، لكنْ أيمكنكَ إصلاحها؟ أنا في عجلة من أمري».

جلس القزم بروية وتأنٍّ: «بالنسبة إلى الإصلاح، حسنًا لا أعرف شيئًا عن الإصلاح، إعادة بناء ربما بالتأكيد، فمن الصعب العثور على شعيرات

هذه الأيام حتى لو عثرت على أشخاص يربطون المناسب، فإلقاء التعويذات يحتاج إلى...».

- لا أريد إعادة بنائها، لا أريد سوى أن تعمل كما ينبغي.

قال القزم بلهجة الخبير: «إنها نموذج بدائي، كما ترين. وهذه النماذج البدائية شديدة التعقيد، لا يمكنك الحصول على الخشب...».

التقط ورُفِعَ حتى أصبحت عيناه في مستوى عيني جراني. ولكون الأقزام سحريين في حد ذاتهم، فهم مقاومون للسحر تمامًا، لكنَّ تعبيرها بدا كأنه يحاول لحام مقل عينيه بمؤخرة جمجمته.

همست: «أصلحْها فحسب، من فضلك؟».

قال القزم وشرار غليونه يتطاير على الأرض: «ماذا، أأعمل عملًا سيئًا؟».

- نعم.

- أتقصدين ترميمها؟ وخيانة تدريبي بأداء نصف عمل؟

- نعم.

كانت حدقتاها ثقبين أسودين صغيرين.

قال القزم: «أوه، حسنًا إذن».

كان جاندر رئيس القافلة رجلًا قلقًا.

فقد خرجوا من زيمفيس من ثلاثة أيام، وكانوا يقضون وقتًا ممتعًا، وكانوا في طريقهم لتسلق الممر الصخري والعبور خلال جبال وحمات سيكلا (كان هناك ثمانية منهم، ودائمًا ما تساءل جاندر عمن يكون سيكلا، وما إن كان سيحبها).

كانت هناك مجموعة من الجونلز قد تسللت إليهم في أثناء الليل.

كانوا مخلوقات كريهة وهم مجموعة متنوعة من عفاريت الحجر، قد قطعوا عنق أحد الحراس ولا بُدَّ أنهم كانوا على استعداد لذبح الفوج بأكمله. فقط...

فقط لا أحد يعرف ماذا حدث بعد ذلك، فقد أوقظتهم الصرخات وبحلول الوقت الذي أشعل فيه الناس النيران، وألقى فيه الساحر تريتل بريقًا أزرق على موقع المخيم، كان الناجون من الجونلز يبتعدون بظلال عنكبوتية يهربون كما لو كانت جحافل الجحيم تلاحقهم.

ونظرًا إلى ما حدث لزملائهم، فقد كانوا على حق تقريبًا. حيث تدلت أجزاء من الجونلز من الصخور القريبة معطية إياهم جوًّا من المرح الاحتفالي. لم يأسف جاندر لذلك على وجه الخصوص -فقد أحب الجونلز أسر المسافرين وممارسة كرم الضيافة من النوع الأحمر الساخن من السكاكين والهراوات- لكنه كان مضطربًا من الوجود في البقعة نفسها كشيء مر به عشرات من الجونلز النحيلين والمسلحين بالشر كما تمر المعلقة ببيضة مسلوقة قليلًا، لكنْ دون أن تترك أي أثر.

في الواقع، كانت الأرض نظيفة ومكنوسة.

لقد كانت ليلة طويلة للغاية، ولم يبدُ حدوث أي تحسن في الصباح، كان الشخص الوحيد اليقظ هو إسك التي نامت في غمار كل شيء أسفل أحد العربات، ولم تشكُ إلا من الأحلام الغريبة.

ومع ذلك، فقد كان من المريح الابتعاد عن هذا المشهد المروع، لقد اعتبر جاندر أن الجونلز لا يختلف داخلهم عن خارجهم. كان يكره جراءتهم.

جلستْ إسك على عربة تريتل تتحدث مع سايمون الذي كان يُسيِّر العربة بلا خبرة، وكان الساحر يأخذ قسطًا من النوم خلفه.

كان سايمون يفعل كل شيء بلا خبرة، وقد كان ضليعًا في ذلك. لقد كان أحد أولئك الفتيان طُوال القامة الذين يبدون مصنوعين من ركبتين وأصابع إبهام ومرفقين. كانت مشاهدته وهو يمشي تمثل إرهاقًا، فعلى المرء الاستمرار في انتظار انقطاع أوتاره، وموجة الألم التي تجتاح وجهه عندما يتكلم إذا اكتشف وجود حرف «س» أو «و» أو بعض الحروف الأخرى في الجملة دفعت الناس إلى نطقها إياها غريزيًّا. وكان الأمر يستحق العناء من أجل نظرة الامتنان التي تكسو وجهه المحبب مثل شروق الشمس على القمر.

في هذه اللحظة كانت عيناه تسيلان من تأثير حمى القش.

- أوددتَ أن تكون ساحرًا عندما كنتَ ولدًا صغيرًا؟

هز سايمون رأسه وقال: «أنا فقط ووووووو...».

- وددتَ.

- أأن اكتشف كيفية سسسسسسسسسـ...

- سير الأمور؟

- نعم، ثم أخبر أحدهم من قريتي الجامعة وأرسل الأستاذ تريتل لأخذي لأكون سسسسسسسسسـ...

- ساحرًا.

- ذات يوم أخبرني الأستاذ تريتل أنني سأحظى بفهم استثنائي للننـ... نظرية.

غمرت الدموع عيني سايمون الرطبتين واجتاح وجهه المنكوب تعبيرٌ ينم عن منتهى السعادة تقريبًا.

وقال بصوت رجل غارق في الحب: «أخـ... برني أن لديهم آلاف الكـ كتب في مكتبة الجامعة الخفية، كـ كتب أكثر مما يمكن لأي شخص قراءته طَوال حياته».

قالت إسك ردًّا عليه: «لستُ واثقة من أنني أحب الكتب، كيف يمكن للورق معرفة الأشياء؟ جراني تقول إن الكتب ليست جيدة ما لم يكن الورق نحيفًا».

قال سايمون على وجه السرعة: «لا هذا ليس صحيحًا، الكتب مليئة بالمممممممممـ...».

تجرع الهواء ونظر إليها نظرة توسل.

قالت إسك عقب لحظة من التفكير: «....مفردات؟....».

- نعم، ويمكنها تغيير الأ-أشياء، وهه-هذه المممممممموووووووو هذه المممممممموووووو...

- ماذا؟

- لا بدَّ أن أ-أعثر عليها، أعلم أنها هه-هناك، في مكان ما في كل الكتب القديمة- إنهم يييييييـ...».

- يقولون.

- أن لا وجود لتعويذات جديدة، لكنني أعرف أنها موجودة في مكان ما مختبئة في المممممممووفـ...

- ...المفردات...

- نعم، إنه لا يوجد سسسسسسـ...

قالت إسك ووجهها عابس من التركيز: «...ساحرة؟...».

- نعم، لم توجد أيٌّ منهن من قبل.

أغمض عينيه وابتسم ابتسامة شديدة الابتهاج وأضاف: «المفردات التي ستغير العالم».

- ماذا؟

فتح سيمون عينيه في الوقت المناسب لإيقاف الثيران وهي تتجول خارج المسار وقال: «إيه؟».

- لقد قلتَ كل تلك الكلمات التي تحتوي على أحرف تتعثر بها.

- أفعلتُ؟

- لقد سمعتُك! حاول مجددًا.

أخذ سايمون نفسًا عميقًا وقال: «المفالمفالمف- الموالمو- الموالموالموو-».

وقال: «حسنًا، لقد ذهبتْ، يحدث لي ذلك أحيانًا، إذا لم أفكر في الأحرف، يقول لي الأستاذ تريتل إنني متحسس من شيء ما».

- متحسس من أصوات الحروف؟

- نعم، سساسسساسســ...

قالت إسك بسخاء: «...سخيف...».

- ...هناك شششششششــ...

- ـــــشيء مـــــا

- في الهواء، ربما حبوب الل-لقاح أو غغ-غبار العشب، حاول الأستاذ تريتل العثور على سبب لذلك، لكن لا يبدو أن السحر سيسسساعده.

كانوا يمرون خلال ممر ضيق من الصخور البرتقالية، نظر سايمون إليها بخيبة أمل.

قالت إسك: «لقد علمتني جراني علاجًا لحمى القش، يمكننا تجريبه».

هز سايمون رأسه بتشكك وكأنه سيسقط منه: «جربتُ كل شيء، السسسسسس الجيد الذي سأكونه، لا يمكنني حتى نننن طق اسم السسسس».

- أستطيع فهم أين ستمكن المشكلة.

راقبتِ المشهد مدةً من الوقت وحشدتْ قطارًا من الأفكار.

وقالت أخيرًا: «أيمكن لامرأة أن تكون ساحرًا؟».

حدق سايمون إليها، فنظرت إليه بتحدٍّ.

تشنَّج حلقه، كان يحاول إيجاد جملة لا تبدأ بحرف الميم، وفي النهاية أُجبِر على تقديم تنازلات فقال: «فكرة غريبة». وبدأ بالضحك حتى حذرته تعبيرات إسك.

- إنه أمر مضحك بعض الشيء.

لكنْ تلاشت الضحكة التي كانت على وجهه، وحلَّ محلها نظرة متحيرة وقال: «حقًّا لم أفكر في الأمر من قبل».

- حسنًا، أيمكنهم ذلك؟

كان بإمكان صوت إسك التحليق.

- طبعًا لا يمكنهم، إنه أمر بديهي. أيها الطفل يا سايمون لتعد إلى دراساتك.

نحَّى تريتل الستارة التي تؤدي إلى الجانب الخلفي من العربة جانبًا، وتسلق مقعدَ القيادة.

أخذ مظهر الرعب الشديد مكانَه المعتاد على وجه سايمون، نظر إلى إسك بتوسل وتريتل يتولى زمام العربة من بين يديه، لكنها تجاهلته.

- ولمَ لا؟ ما البديهي جدًّا في ذلك؟

استدار تريتل ونظر إليها إلى أسفل، لم يكنْ قد أعارها اهتمامًا كبيرًا من قبل، لقد كانت مجرد شخص آخر حول نيران المخيم.

لقد كان نائب رئيس الجامعة الخفية، وكان معتادًا تمامًا رؤيةَ شخصيات غامضة متسرعة تحصل على وظائف أساسية، لكنها غير مهمة مثل تقديم وجباته وتنظيف غرفه. لقد كان غبيًّا نعم، على نحو خاص بتلك الطريقة التي يمكن بها أن يكون الأذكياء جدًّا أغبياء. وربما كانت لديه كل لباقة الانهيار الجليدي، وكان متمركزًا حول نفسه كإعصار. لكنْ لم يخطر بباله قطُّ أن الأطفال ذوو أهمية لدرجة أن يكون فظًّا معهم.

كان تريتل ساحرًا من شعره الأبيض الطويل إلى أحذيته المجعدة، كان لديه حاجبان طويلان كثيفان مواتيان، ورداء لامع ولحية أبوية أفسدتها بعض بقع النيكوتين الصفراء قليلًا (السحرة عُزاب ولكنهم كانوا يتمتعون بسيجار جيد رغم ذلك).

- سيتضح لك الأمر برمته عندما تكبرين، إنها فكرة مسلية. ساحر أنثى! قد تخترعين مشعوذة ذكرًا كذلك!

قالت إسك: «بل المشعوذون».

- معذرة؟

- تقول جراني إن الرجال لن يكونوا مشعوذين ولو حاولوا أن يكونوا مشعوذات، فسيكونون سحرة.

- تبدو لي امرأة عاقلة للغاية.

- كما تقول إن على النساء أن يلتزمن ما يجدنه.

- قول منطقي جدًّا منها.

- تقول إن النساء لو كُنَّ بمثل براعة الرجال، لكان خير لهنَّ بكثير.

ضحك تريتل.

وقالت إسك: «إنها مشعوذة». وأضافت في ذهنها: «ها، ما قولك في ذلك أيها السيد المسمى بالساحر الماهر؟».

- سيدتي الصغيرة اللطيفة، أيفترض بي أن أصدم؟ إنني أُكِنُّ احترامًا كبيرًا للمشعوذات.

قطبتْ إسك حاجبيها، فلم يكن من المفترض أن يقول ذلك.

- أحقًّا؟

- نعم، فعلًا، أعتقد أن الشعوذة مهنة جيدة للنساء، وواجب نبيل.

- أتعتقد ذلك؟ أعني إنها كذلك فعلًا.

- نعم بالتأكيد، فهي مهمة للغاية في المناطق الريفية لمن لديهم أطفال ونحو ذلك. ومع ذلك، فالمشعوذات لسن سحرة، الشعوذة هي طريقة الطبيعة للسماح للنساء بالوصول إلى التدفقات السحرية، لكن عليك التذكر دائمًا أنها ليست سحرًا رفيعًا.

قالت إسك بتجهم: «أفهم، ليست سحرًا رفيعًا».

- أوه لا، الشعوذة هامة طبعًا لمساعدة الناس في معيشتهم لكنْ...

قالت إسك: «أتوقع أن النساء لسنَ عاقلات بما يكفي ليصبحنَ سحرة، أتوقع أن هذه مربط الفرس، حقًّا».

قال تريتل الذي لم يلاحظِ النبرة الجديدة لإسك: «إنهنَّ بلا نظير عندما، عندما...».

- ينجبن الأطفال وما إلى ذلك.

صادق الساحر قولها بسخاء قائلًا: «نعم، هذا ما أقصده، لكنهنَّ قد يكنَّ مشوشات قليلًا أحيانًا، سريعات الانفعال جدًّا أحيانًا. والسحر العالي يستلزم صفاءً عظيمًا للذهن. وكما ترين، فمواهب النساء لا تقع

في هذا الاتجاه. تميل أدمغتهنَّ إلى الغليان، يؤسفني قول إن الباب الوحيد إلى تعلم السحر هو البوابة الرئيسية للجامعة الخفية، ولم تمرَّ بها أي امرأة على الإطلاق».

قالت إسك: «أخبرني، ما نفع السحر العالي، بالضبط؟».

ابتسم تريتل لها، وقال: «السحر العالي يا طفلتي، يمكنه إعطاءنا كل ما نريد».

- أوه.

- لذا أخرجي كل هذا الهراء من رأسك.

ابتسم لها تريتل ابتسامة سمحة وأردف: «ما اسمك أيتها الطفلة؟».

- إسكارينا.

- ولماذا تذهبين إلى عنخ يا عزيزتي؟

تمتمت إسك: «ظننتُ أنني أبحث عن حظي».

- لكنني لا أعتقد أن للفتيات حظًّا يبحثن عنه.

- أأنت متأكد من أن السحرة يمنحون الناس ما يريدون؟

- طبعًا، وهذه هي جدوى السحر العالي.

- أفهم.

كانت القافلة بأكملها تسير بسرعة أسرع قليلًا من المشي، قفزت إسك إلى أسفل وسحبتِ العصا من مخبأها المؤقت بين الحقائب والدلاء على جانبي العربة، وعادت راكضة على طول صف العربات والحيوانات. ومن بين دموعها، لمحتْ سايمون وهو يبتسم لها ابتسامةً محيرةً، وبدأ بقول شيء ما، لكنها ركضتْ وانحرفتْ عن المسار.

خدشتْ قدمَيها الأعشابُ الخشنةُ وهي تتسلق ضفة طينية ثم تركض بخُرِّية خلال هَضَبة قاحلة محاطة بالمنحدرات البرتقالية.

لم تتوقف حتى تحسَّن حالها وتشتت ذهنها، لكنَّ الغضب ما زال مستعرًا. لقد غضبتْ من قبل، لكنها لم تغضبْ قطُّ على هذا النحو، كان الغضب عادةً مثل لهب أحمر تحصل عليه عند إضاءة الشعلة لأول مرة، كله وهج وبربق. لكنْ هذه المرة، كان الغضب مختلفًا -كان هناك منفاخ خلفه، وكان يضيق إلى لهب أبيض- أزرقَ صغيرًا يقطع الحديد.

لقد جعل جسدها يرتعش، وكان عليها أن تفعل شيئًا وإلا ستنفجر.

لماذا تاقت إلى سحر السحرة القاطع عندما سمعت جراني تثرثر عن الشعوذة، لكنها عندما سمعتْ تريتل يتحدث بصوت عالي النبرة، كانت تدافع عن الشعوذة حتى الموت؟ إنها تريدهما كليهما أو لا تريد أيًّا منهما. وكلما أرادوا منعها أكثر، زاد تمسكها بالأمر.

ستصبح ساحرًا ومشعوذةً معًا، وستريهم.

جلستْ إسك تحت شجرة عرعر منخفضة الفروع عند سفح منحدر، على منحدر صخري وعقلها يغلي بالخطط والغضب. كانت تشعر أن الأبواب تغلق قبل أن تبدأ بفتحها. كان تريتل محقًّا، لن يدَعوها تدخل الجامعة الخفية، وامتلاك عصا لا يكفي لتصبح ساحرًا، لا بدَّ من تلقي التدريب كذلك، ولن يقدمَ أحدٌ على تدريبها.

كانت شمس الظهيرة تسقط على الجرف وبدأ الهواء حولها يحمل رائحة النحل والجين. استلقت وهي تنظر إلى قبة السماء شبه الأرجوانية من بين الأوراق، وأخيرًا نامت.

أحد الآثار الجانبية لاستعمال السحر، هو ميل المرء إلى امتلاك أحلام واقعية مزعجة. وهناك سبب لذلك، لكنْ حتى التفكير في ذلك كفيل بمراودة الكوابيس للسحرة.

الحقيقة أن عقول السحرة يمكنها إضفاء أشكال على الأفكار، تعمل المشعوذات عادة ما هو موجود فعلًا في العالم، فيما يستطيع السحرة

-لو كانوا جيدين بما يكفي- تحويل خيالهم إلى لحم ودم. ولن يسبب ذلك أي مشكلاتٍ لولا حقيقة أن الدائرة الصغيرة من ضوء الشموع والمسماة عبثًا بـ«عالم الزمكان» تنحرف تجاه شيء بغيض ولا يمكن التكهن به، تدور أشياء غريبة وتنخر خارج الحواجز الواهية للحالة السوية، هناك صياح وعواء غريب في الشقوق العميقة على حافة الزمن. وهناك أشياء مروِّعة لدرجة أنها تخيف الظلام.

معظم الناس لا يعرفون ذلك، وعدم معرفتهم به أمر جيد، لأن العالم ما كان ليسير لو بقي كل الناس في سرائرهم مُدثَّرين بلحفهم فوق رؤوسهم، وهو ما كان ليحدث لو عرف الناس ماهية الرعب الكامن في عرض الظل بعيدًا.

تكمن المشكلة في أن المهتمين بالسحر والتصوف يمضون الكثير من الوقت في التسكع عند أقصى حافة للضوء، إذا جاز التعبير. وهو ما يجعلهم محطَّ ملاحظة مخلوقات أبعاد الدانجون الذين يحاولون استعمالهم في جهودهم التي لا تعرف الكلل، لاقتحام هذا الواقع الخاص.

يمكن لمعظم الناس مقاومة ذلك، لكنَّ الفحص الدؤوب لهذه الأشياء يكون أقوى مما هو عليه حين يكون الشخص نائمًا.

كان بيل شامهاروث وكاهلوجان وزا انسايدر؛ آلهة الظلام العجزة البشعون، من نيكرو تيلكومينكون وهو الكتاب المعروف لبعض الأتباع المجانين باسمه الحقيقي «كتاب الصفحات الصفراء»، مستعدين دائمًا للسطو على عقل نائم.

وكانت الكوابيس في غالب الأحيان ملونةً وبغيضةً دائمًا.

اعتادتْهم إسك منذ الحلم الأول بعد أول استعارة لها، وكادتِ الألفة تحل محلَّ الرعب. عندما وجدتْ نفسها جالسة في سهل متلألئ غابر تحت نجوم غامضة، عرفتْ أن الوقت قد حان لكابوس آخر.

قالت: «سحقًا، حسنًا تعالَ إذن، اجلبِ الوحوش، أتمنى فقط ألا يكون ذاك الذي عنده غمزة على وجهه».

لكنْ هذه المرة بدا أن الكابوس قد تغير، نظرت إسك حولها ورأت وراءها قلعةً طويلةً سوداءَ، اختفتْ أبراجها بين النجوم، تندفع الأضواء والألعاب النارية والموسيقى الممتعة من أسوارها العلوية. كانت الأبواب الضخمة المزدوجة مفتوحة بترحيب. يبدو أن حفلة مسلية تحدث هنا.

وقفتْ ونفضتِ الرمال الفضية عن ردائها وانطلقتْ نحو البوابات.

كادتْ تصل إليهما عندما أغلقا، لم يبدُ أنهما يتحركان، كان الأمر ببساطة أنهما كانا في لحظة يتسكعان مُواربيْن وفي اللحظة التالية، كانا مغلقين بإحكام بقرقعة هزت الآفاق.

مدتْ إسك يديها إليهما ولمستهما، كانا أسودين وباردين جدًّا لدرجة أن الثلج بدأ بالتشكل عليهما.

كانت وراءها حركة، التفَّتْ ورأتْ العصا دون قناع المقشة، تقف منتصبة على الرمال، تسللتْ ديدان من ضوء حول الخشب المصقول وزحفت حول المنحوتات التي لم يستطع أحد تعرُّفها تمامًا.

حملتها وحطمت بها الأبواب، كان هناك وابل من شرارات الأوكتارين، لكنَّ المعدن الأسود لم يصبه أذى.

ضاقتْ عينا إسك، حملتِ العصا على بعد ذراع وركزتْ حتى قفز خط رفيع من النار من الخشب وانفجرت على البوابة. تحوَّل الثلج إلى بخار، لكنَّ الظلام -تأكدت الآن أنه ليس معدنًا- امتصَّ الطاقة دون الكثير من التوهج. ضاعفتِ القوة، وتركتْ للعصا وضْع كل سحرها المخزون في شعاع أصبح لحظتها ساطعًا لدرجة أجبرتها على إغلاق عينيها (وما زال يمكنها رؤية خيط لامع في ذهنها).

ثم انطفأ.

وبعد عدة ثوانٍ، ركضتْ إسك إلى الأمام ولمستِ الأبواب بحذر شديد، كادت البرودة تجمد أصابعها.

سمعتْ قهقهة من الأسوار التي تعلو الأبواب، والضحك ليس سيئًا للغاية خاصة الضحك الشيطاني المثير للإعجاب مع الكثير من الغرور، لكنْ هذه كانت مجرد قهقهة ساخرة.

استمرتْ مدةً طويلةً، كانتْ أحد أشنع الأصوات التي سمعتها إسك قطُّ.

استيقظتْ ترتجف، مرَّ وقت طويل بعد منتصف الليل وبدتِ النجوم كئيبةً وباردةً، وكان الهواء مليئًا بسكون الليل المزدحم. والذي أنشأته مئات الفرويات الصغيرة التي تسير بحذر بالغ أملًا في العثور على العشاء مع تجنب أن تصبح هي الطبق الرئيسي.

كان الهلال يغيب وأشار وهج رمادي رفيع سقط باتجاه الحافة إلى أن هناك يوم آخر يبزغ رغم كل الاحتمالات الأخرى.

لفَّ شخص ما بطانية حول إسك، وقال صوت جراني ويذرواكس: «أعرف أنكِ مستيقظة، يمكنك الاستفادة بنفسكِ وإشعال النار، هناك كل ذلك الخشب في هذه الأنحاء».

جلستْ إسك وتشبثتْ بشجرة عرعر، شعرتْ بأنها بخف الريشة.

تمتمت: «نار؟».

قالت جراني بحدة: «كما تعرفين، أشيري بإصبعك وفي لمح البصر».

كانت تجلس على صخرة، محاولة إيجاد وضعية لا تزعج التهاب مفاصلها.

- أنا، أنا لا أعتقد أنني أستطيع.

قالت جراني بغموض: «أتخبرينني أنت؟».

انحنتِ المشعوذة العجوز إلى الأمام، ووضعتْ يدها على جبهة إسك، كان الأمر أشبه بملاطفة جورب مليء بالنرد الدافئ.

- إنكِ محمومة تعرضتِ للكثير من أشعة الشمس الساخنة والأرض الباردة، هذه أرض الفورن بالنسبة إليك.

تركتْ إسك رأسها يرتخي إلى الأمام حتى استقر في حِضن جراني، برائحة الكافور المعتادة والأعشاب المختلطة وأثر الماعز. ربَّتتْها جراني بطريقة أملتْ أن تكون مهدئة.

بعد مدة، قالت إسك بصوت منخفض: «لن يسمحوا لي بدخول الجامعة، أخبرني ساحر بذلك، وحلمتُ بذلك، وكان أحد تلك الأحلام الحقيقية، كما تعرفينني وكما أخبرتِني بالتخاطر».

قال جراني بهدوء: «بل استعارة».

- واحد منها.

سألت جراني: «أتعتقدين أنه سيكون سهلًا؟ أتظنين أنكِ ستدخلين بواباتهم وأنت تُلوِّحين بالعصا؟ مرحى، هأنا أودُّ أن أكون ساحرًا، أشكركَ شكرًا جزيلًا؟».

- أخبرني أن من غير المسموح بوجود النساء بالجامعة!

- إنه مخطئ.

- لا، يمكنني القول بأنه كان يقول الحقيقة، كما تعرفين يا جراني، يمكنكِ إخباري بكيفية...

- طفلة حمقاء، كل ما يمكنكِ قوله بأنه يعتقد أنه يخبرك بالحقيقة، العالم ليس كما يراه الناس دائمًا.

- لا أفهم

- ستتعلمين، والآن احكي لي ذاك الحلم، لم يسمحوا لكِ بدخول جامعتهم، أليس كذلك؟

- بلى، وضحكوا.

- ثم حاولتِ حرق الأبواب؟

أدارت إسك رأسها في حِضن جراني وفتحتْ عينًا متشككةً وقالت: «كيف عرفتِ؟».

ابتسمتْ جراني، لكنْ كما تبتسم السحلية: «كنتُ على بعد أميال، وكنتُ أميل بعقلي تجاهك، وفجأةً بدوتِ كأنك في كل مكان، ثم أشرقتِ مثل منارةٍ وكذلك فعلتِ، وبالنسبة إلى النار... انظري حولكِ».

في نصف ضوء الفجر، كانت الهَضَبة كتلةً من الطين المخبوز، أمام إسك كان الجرف زجاجيًّا يتدفق عصارة كما يتدفق القار تحت الهجوم، وكانت هناك شقوق كبيرة خلالها تقاطر منها صخور وخبث منصهر، عندما أنصتت إسك أمكنها سماع صوت تبريد الصخور الخافت.

- أوه، أفعلتُ كل ذلك؟

- نعم، هذا ما يبدو.

- لكنني كنتُ نائمةً، لقد كنتُ أحلم فحسب.

- إنه السحر، إنه يحاول إيجاد مخرج، لا أعرف أعتقد أن سحر السحرة وسحر المشعوذات يغذيان بعضهما.

عضتْ إسك شفتيها وسألت: «ماذا يمكنني أن أفعل؟ أنا أحلم بالأشياء كافة!».

قررتْ جراني: «حسنًا في البداية سنتوجه إلى الجامعة الخفية مباشرة، لا بدَّ أنهم معتادون عدم قدرة المتدربين على التحكم في السحر وأحلامهم الساخنة وإلا لكان المكان قد احترق منذ سنوات».

- حدقتْ تجاه الحافة ثم نظرت إلى عصا المقشة بجانبها.

سنتجاوز الركض صعودًا وهبوطًا، وشد أحزمة المقشة والشتائم المهترئة ضد الأقزام ولحظات الأمل الموجزة مع وميض السحر المتقطع والشعور السوداوي الرهيب كأنَّها ماتت، وتشديد الأحزمة مرة أخرى والركض ثانية والإمساك المفاجئ للتعويذة والتدافع على متن السفينة والصراخ والإقلاع...

تشبثتْ إسك بجراني بيدٍ وحملت العصا باليد الأخرى، وهما حقًّا تطيران بتعرج على بعد مئات الأقدام من الأرض. طارتْ قلة من الطيور بجانبهما مهتمين بهذه الشجرة الطائرة الجديدة.

صرختْ جراني: «اغربوا عني». وهي تخلع قبعتها وترفعها.

قالت إسك بوداعة: «إننا لا نسير بسرعة كبيرة يا جراني».

- نحن نسير بسرعة كافية بالنسبة إليَّ!

نظرت إسك حولها، كان اتجاه الحافة خلفهما يومض بوميض ذهبي تحيطه السحاب.

قالت بعجلة: «أعتقد أن علينا النزول يا جراني، قلت إن العصا لا تستطيع الطيران في ضوء الشمس».

ألقتْ نظرة سريعة إلى أسفل، كانت المناظر الطبيعية أسفلهما تبدو حادة وغير مضيافة كما بدت متوقعة.

ردتْ جراني بعنف وهي تمسك بالعصا بشدة وتحاول جعل نفسها خفيفة قدر الإمكان: «أعرف ما أفعل يا آنسة».

لقد بيَّنا فعلًا أن ضوء عالم القرص ينتقل ببطء نتيجة مروره خلال الحقل السحري الشاسع والعتيق لعالم القرص.

ولذا، فالفجر ليس حدثًا مباغتًا مثل بعض العوالم الأخرى.

لا ينبثق اليوم الجديد، بل ينثال برقة خلال الطبيعة الناعسة بالطريقة نفسها التي يتسلل بها المد إلى الشاطئ، ويذيب قلاع الليل الرملية. إنه يتدفق حول الجبال وإذا كانت الأشجار قريبة من بعضها، فإنه يخرج من بين الخشب يقطعه الظل إلى شرائط وشرائح.

سيلاحظ أي مراقب من نقطة عالية علوًّا مناسبًا، لنقلْ على سبيل الجدل إنه سينظر من طرف سحب السمحاق[1]، مدى انتشار الضوء بمحبة خلال الأرض ويقفز قفزة هائلةً إلى الأمام على السهول ويبطئ عندما تصادفه أرض مرتفعة، ما أجمل...

في الواقع، هناك بعض الملاحظين الذين سيتذمرون في مواجهة كل هذا الجمال من أنهم ليس عندهم ضوء شديد، وأنهم طبعًا غير قادرين على رؤيتهم، رغم استطاعتهم. وما يمكن للمرء أن يجيب عنه، هو كيف أمكنهم الوقوف على سحابة؟

الكثير من التهكم، لكنْ على القرص نفسه، انطلقتْ عصا المقشة إلى الأمام على أعتاب الفجر، متراجعةً إلى الخلف في ظل الليل.

- يا جراني!

اندلع النهار أمامهم، وأمام عصا المقشة بدتِ الصخور كأنها تومض باللهب حيث سقط الضوء عليها. شعرتْ جراني بترنح العصا، وحدقتْ

(1) سحب رقيقة عالية الشفافية فوق القمر. (المترجمة)

بسحر مذعور إلى الظل الخافت المنطلق بسرعة أسفلهم. وقد كان يقترب.

- ماذا سيحدث عندما نرتطم بالأرض؟

قالت جراني بصوت مشغول البال: «هذا يتوقف على عثوري على بعض الصخور الناعمة».

- ستتحطم العصا، ألا يمكننا فعل شيء؟

- حسنًا، أفترض أن علينا النزول.

قالت إسك بصوت متأجج الغضب ولافت يستخدمه الصغار لتوبيخ الكبار المشاكسين: «جراني، أنت لا تفهمين، أنا لا أريد الارتطام بالأرض، إنها لم تضايقني قطُّ لأرتطم بها».

كانت جراني تفكر في تعويذة مناسبة وتشعر بالأسى إذ إن علم التحكم بالدماغ لا ينجح مع الصخور، ولو أنها اكتشفتِ الحافة الماسية لنبرة صوت إسك لقالت لها: «أخبري العصا إذن».

وقد تحطمتا فعلًا، لكنها تذكرت في الوقت المناسب الإمساك بقبعتها وتثبيت نفسها، كانت عصا المقشة ترتجف، تنحرف...

...ومناظر البساتين ضبابية

لقد كانت رحلة قصيرة جدًّا، ولكنَّ جراني تعرف أنها ستتذكرها دائمًا، بشكل عام في نحو الثالثة صباحًا بعد تناول وجبة دسمة. ستتذكر ألوان قوس قزح التي أزَّت في الهواء المندفع، والانطباع بأن شيئًا بالغ الثقل والضخامة يجثم على الكون.

ستتذكر ضحك إسك وستتذكر رغم جهودها المضنية، الطريقة التي ركضت بها الأرض تحتهما وسلاسل جبلية كاملة تومض بأضواء لامعة وضوضاء ضغط مزعجة.

ظهر أمامها، خط متعرج من الظلام يسبق الصباح الوحشي، حدقت بافتتان مذعور إلى الخط وهو يتحول إلى بقعة ثم لطخة ثم رقعة كاملة من الظلام تتسابق نحوهم.

وعلى الفور كانتا واقفتين على عُرف موجة وكانت عاصفة رعدية تضرب الأرض بصمت، لم يركب أي راكبِ أمواجٍ مثل هذه الموجة، لكنَّ عصا المقشة اخترقتْ سخونة الضوء وانطلقتْ بسلاسة إلى البرودة التي تليها.

سمحتْ جراني لنفسها بالزفير.

أزال الظلام بعض رعب الرحلة، وكان ذلك يعني أيَضًا أن إسك لو فقدت الشغف، فلا بدَّ لعصا المقشة أن تكون قادرة على الطيران بسحرها الواهن.

قالت جراني بعدما حاولت التنحنح لثانية مُحاوِلةً تشغيل حنجرتها الجافة كعصا: «إسك؟».

- هذا ممتع، أليس كذلك؟ أتساءل كيف أمكنني فعله؟

قالت جراني بوهن: «نعم ممتع، لكنْ أيمكنني الطيران بالعصا، من فضلك؟ لا أريد تجاوز الحافة رجاء؟».

قالت إسك: «أصحيح أن هناك شلالًا عملاقًا في كل أنحاء الحافة، ويمكن للمرء النظر إلى أسفل فيرى النجوم؟».

- نعم، أيمكننا إبطاء السرعة؟

- أود رؤيته.

- لا! أقصد يعني ليس الآن.

تباطأتِ المقشة، واختفتْ فقاعة قوس قزح المحيطة بها بصوت فرقعة مسموع. دون هزة ودون ارتجاف، وجدت جراني نفسها تطير بسرعة معقولة.

لقد بنتْ جراني سمعة متينة بمعرفتها الدائمة بإجابات كل شيء. فحملها على الاعتراف بالجهل، حتى لو بينها وبين نفسها، يعد إنجازًا مذهلًا، لكنَّ دودة الفضول كانت تقضم تفاحة عقلها.

- كيف فعلتِ ذلك؟

خلفها صمت عميق ثم قالت إسك: «لا أعرف، أنا احتجته فحسب. وقد كان تصوره داخل رأسي أتعرفين كما تتذكرين شيئًا قد نسيتِه».

- حسنًا، لكن كيف؟

- أنا، أنا لا أعرف، لديَّ صورة ذهنية عما أريد أن تؤول إليه الأمور، وأنا، أذهب إلى هذه الصورة بشكل ما.

حدقتْ جراني إلى الليل، لم تسمع قطُّ بسحرٍ كهذا، لكنه بدا قويًّا إلى حد مرعب ومهلك ربما. تذهب إلى الصورة، طبعًا، غير السحر العالم بأكمله بطريقة ما، اعتقد السحرة أن لا فائدة أخرى تُرجى منه -لم يقتنعوا بفكرة ترك العالم على حاله وتغيير الناس- لكنَّ هذا يبدو أكثر واقعية. يحتاج الأمر إلى التفكير فيه، ميدانيًّا.

ولأول مرة في حياتها، تساءلت جراني أكان ثمة شيء هام في كل هذه الكتب التي يضعها الناس في المتجر في هذه الأيام، رغم معارضتها للكتب استنادًا إلى خلفية أخلاقية صارمة، منذ سمعت أن العديد من كتابها أموات، ومن ثَمَّ ومن المنطقي فإن قراءتها سيئة تمامًا كاستحضار الأرواح. كان الحديث عن الموتى من بين أشياء عدَّة في

الكون المتنوع بلا حدود لا تطيق جراني الحديث عنها. فالموتى لديهم مشكلاتهم الخاصة بكل المقاييس.

لكنْ لا، كانت تتأثر بما يصل إليها. نظرتْ تحتها إلى الأرض المظلمة بحِيرة، وتساءلت بشكل مبهم لماذا توجد نجوم بالأسفل؟

للحظة تساءلت من صميم قلبها أكانتا قد طارتا فعلًا فوق الحافة، ثم أدركت أن آلاف النقاط الصغيرة التي تقع أسفلها لها ضوء شديد الاصفرار ووميض، وإضافة إلى ذلك، فمن سمع بنجوم مرتبة في مثل هذا النمط الأنيق؟

قالت إسك: «إنها جميلة للغاية، أهي مدينة؟».

فحصت جراني الأرض بدقة، إنها مدينة، وهي كبيرة جدًّا. لكنِ الآن لديها وقت للتفكير، فمن المؤكد أن رائحتها كرائحة الكثير من الناس.

كان الهواء حولهم مليئًا بروائح البخور والتوابل والجعة، لكنْ بشكل أساسي كانت هناك رائحة سببتها المياه الجوفية وآلاف البشر ونهج قوي لتصريف المخلفات.

عصرتْ ذهنها، كان اليوم عصيبًا عليهم. بحثتْ عن رقعة تكون بها المشاعل خافتةً ومتباعدةً عن بعضها؛ معللة ذلك بأنها مِنْطَقة فقيرة، والفقراء لا يمانعون بوجود المشعوذات. ووجهتْ مقبض المقشة برفق إلى الأسفل.

تمكنت من إيصال المقشة إلى بعد خمسة أقدام من الأرض، قبل حلول الفجر مرةً ثانيةً.

*

كانت البوابات فعلًا كبيرة وسوداء، وبدت كأنها مصنوعة من ظلام دامس.

وقفت جراني وإسك وسط الجموع المحتشدة في الساحة بخارج الجامعة وحدقت إليهم. وأخيرًا قالت إسك: «لا يمكنني رؤية كيف يدخل الناس».

قالت جراني بعبوس: «السحر، كما أتوقع. إنها تنتظر السحرة، وإلا كان ليشتري أي شخص مطرقة للباب».

لوحتْ بعصا المقشة تجاه الأبواب الطويلة، وأضافت: «عليكِ قول بعض الكلمات الخُزَعْبِلية للدخول، لا ينبغي لي التساؤل».

لقد كانتا في عنخ-موربورك ثلاثةَ أيام، وكانت جراني بدأت في إمتاع نفسها، وهذا ما أثار دهشتها. وجدتا لهما مسكنًا في الظل وهو جزء قديم من المدينة، كان سكانه أشخاصًا ليليين إلى حد كبير، ولم يستفسروا قطُّ عن شؤون بعضهم، لأن الفضول لم يقتل القطة فحسب، بل ألقى بها في النهر والأثقال مربوطة بقدميها.

كانت المساكنُ بالطابق العلوي لجوار مبانٍ خاضعة لحراسة جيدةٍ من تاجر محترم في ممتلكات مسروقة لأن، كما سمعت جراني، الأسوار الجيدة تجلب جيرانًا طيبين.

كان الظل باختصار مسكنَ آلهة السمعة السيئة واللصوص غير المجازين وبائعات الهوى وباعة متجولين بسلع غريبة وكيمائيين يبيعون كيمياء العقل، والممثلين الإيمائيين، باختصار كل الشحوم على محور الحضارة.

ومع ذلك، ورغم أن هؤلاء الناس كانوا ميالين إلى تقدير السحر الناعم، فقد كان هناك نقص حاد في المشعوذات. في غضون ساعات، كان خبر وصول جراني قد تسرب إلى الحي وزحف سيل من الناس، يمشون إلى بابها خفية أو بتغطرس باحثين عن جرعات وتمائم وأخبار المستقبل والعديد من الخِدْمَات الشخصية والمتخصصة التي تقدمها

المشعوذات تقليديًّا لأولئك الذين تغشى حياتهم سحب خفيفة أو يملؤها الجو العاصف.

في البداية انزعجت ثم أُحرجت ثم أُغريت، فقد كان مع زبائنها المال وهو أمر نافع، لكنهم دفعوا مصروفات نثرية كذلك، وقد كانت تلك عملة صعبة للغاية.

باختصار، كانت جراني تتساءل عن إمكانية اكتساب بناية أكبر قليلًا مع حديقة وترسل في طلب ماعزها، قد تكون الرائحة مشكلة، لكنْ على الماعز تحملها.

لقد زارتا مزارات عنخ-موربورك وموانيها المزدحمة وجسورها الكثيرة وأسواقها وحصونها وطرقها التي لا يصطف على جانبيها سوى المعابد. أحصت جراني عدد المعابد بنظرة متفحصة من عينيها، لطالما طالبت الآلهة أتباعها بالتصرف خلاف طبيعتهم الحقيقية، ومخالفة البشر لذلك تسببتْ في اضطلاع المشعوذات بالكثير من العمل.

لم يتجسدْ لها هلع التمدن حتى الآن، رغم أن نشالًا حاول اختطاف حقيبة جراني. ولدهشة المارة، فقد استدعته جراني فعاد، وهو يجاهد قدميه اللتين رفضتا طاعته تمامًا. لم يرَ أحد ما حدث لعينيها فعلًا حينما حدقت إلى وجهه أو سمع الكلمات التي همست بها في أذنه المرتعدة، لكنه رد إليها كل مالها إضافة إلى الكثير من المال الخاص بأشخاص آخرين، وقبل أن تسمح له بالذَّهَاب، وعدها بأن يصبح نجارًا وأن يمضي في الحياة باستقامة، وأن يصبح شخصًا أفضل لبقية حياته.

بحلول الظلام، انتشر وصف جراني في كل مجالس نقابة اللصوص والنشالين ومقتحمي المنازل والحلفاء التِّجاريين[1]، مع تعليمات صارمة

(1) هيئة محترمة للغاية، في الواقع تمثل وكالة تطبيق القانون الرئيسية بالمدينة. والسبب في ذلك هو ما يلي: أُعطيت النقابة حصة سنوية تمثل مستوى مقبولًا اجتماعيًّا من

بتجنبها مهما كلف الأمر. ولأن اللصوص كائنات ليلية فقد عرفوا المتاعب حالما تحدق إلى وجوههم.

كما كتبت جراني خطابين إلى الجامعة، ولم تتلقَّ أيَّ رد.

قالت إسك: «لقد أحببتُ الغابة كثيرًا».

قالت جراني: «لا أعرف، المكان هنا يشبه الغابة قليلًا، وقطعًا يُقدِّر الناس هنا المشعوذة».

اعترفتْ إسك: «إنهم ودودون للغاية، أتعرفين المنزلَ بنهاية الشارع، حيث تعيش السيدة البدينة مع كل أولئك الشابات اللاتي قلتِ إنهنَّ أقاربها؟».

قالت جراني بحذر: «نعم، السيدة بالم، سيدة محترمة جدًّا».

- يأتي الناس لزيارتهم طَوال الليل، لقد شاهدتهم، أنا مدهوشة، أتساءل أكانوا يحظون بأي قدر من النوم.

- امم

- لا بدَّ أن إطعام كل هؤلاء الفتيات بمنزلة تحدٍّ للمرأة الفقيرة، وعلى الناس مراعاة ذلك.

- حسنًا إذن، لست متأكدة من ذلك.

السرقات والسطو والاغتيالات، وبالمقابل رأت ذلك بطرق محددة ونهائية للغاية أن الجريمة غير الرسمية لا يقضى عليها سريعًا فحسب، بل طُعِنَتْ بالسكين وأُعدمت خنقًا وقُطِّعَتْ أوصالها وتُرِكَتْ تتجول بأرجاء المدينة في تشكيلة من الحقائب الورقية كذلك. اعتُبِر ذلك تنظيمًا رخيصًا ومستنيرًا باستثناء أولئك الساخطين الذين سُلِبوا عنفًا أو تعرضوا للاغتيال ورفضوا رؤية ذلك واجبًا اجتماعيًّا، وهذا ما مكن لصوص المدينة من تخطيط هيكل مهني لائق وامتحانات قبول ومدونات سلوك على غرار تلك التي تتبناها المهن الأخرى في المدينة، ولم تكن الفجوة بينهم واسعة على أي حال، فسرعان ما تشابها. (المؤلف)

أنقذها وصول عربة كبيرة مزينة بألوان زاهية إلى بوابات الجامعة، ألجم سائقها الثور على بعد أقدام قليلة من جراني وقال: «معذرة، سيدتي الطيبة، لكنْ أتسمحين بالتمادي في الطيبة والتحرك من هنا؟».

تنحَّت جراني جانبًا، وقد أهانها هذا الطلب المهذب بصراحة واستاءت بشكل خاص من تفكير أي شخص بها على أنها امرأة طيبة، ورأى السائق إسك.

لقد كان تريتل وابتسم كثعبان قلق.

- وأنا أقول، إنها الشابة التي تعتقد أن بإمكان النساء أن يكنَّ سحرة، أليس كذلك؟

قالت إسك: «بلى».

وتجاهلت لكزة حادة في الكعب من جراني.

- يا لها من متعة، تعالي وانضمي إلينا، أليس كذلك؟

قالت إسك: «بلى».

ثم لأن شيئًا في أسلوب تريتل بدا يتطلب ذلك، أضافت: «سيدي، نحن لا نستطيع الدخول فحسب».

قال تريتل: «نحن؟».

واسترق النظر إلى جراني وأضاف: «نعم قطعًا، هذه خالتكِ أليس كذلك؟».

- إنها جراني جدتي، ليستْ جدتي حقًّا بل هي مثل جدة للجميع.

أومأت جراني بقوة.

قال تريتل بصوت شهي كعصير الخوخ: «حسنًا لا يمكننا السماح بذلك، كلمتي هي لا، أنترك أول سيدة ساحرة على الأعتاب؟ ستكون هذه وصمة عار، أيمكنني مرافقتكِ؟».

أمسكتْ جراني بكتف إسك بقوة. واستهلت قائلة: «إذا كانت كل الأمور سواء بالنسبة إليك...».

لكنَّ إسك تحررتْ من قبضتها وركضتْ نحو العربة.

قالت وعيناها تلمعان: «هل يمكنكَ حقًّا إدخالي؟».

- قطعًا، أنا متأكد من أن رؤوساء المجلس سيسرون أيَّما سرور بلقائك.

وأعقب كلامه بضحكة صغيرة.

قالت جراني: «إسكارينا سميث...».

ثم توقفت ونظرت إلى تريتل وقالت: «لا أعرف ما يدور في ذهنكَ سيدي الساحر، لكنه لا يعجبني. يا إسك إنكِ تعرفين أين نعيش، كوني حمقاء إن كان لا بدَّ، لكنْ على الأقل كوني حمقاء حماقةً ذاتيةً ولا تدعيهم يستغفلونك».

أدارت ظهرها وانطلقت إلى الميدان.

قال تريتل بغموض: «يا لها من امرأة مذهلة، ما زلتُ أراكِ تحملين عصا المقشة، تاج العمود!».

ارخى زمام الأمر لوهلة، ثم أشار إشارة معقدة في الهواء بكلتا يديه.

ارتدَّت الأبواب الكبيرة لتكشف عن فناء واسع محاط بالعشب. كان خلفهم بناء أو بنايات متناثرة كبيرة؛ كان من الصعب تحديد ذلك، فقد بدا كأنَّها مصممة بالكثير من الدعامات والأقواس والأبراج والجسور والقباب وما إلى ذلك، اجتمعوا معًا للدفء.

قالت إسك: «أهذا؟... يبدو أنه مذاب شيئًا ما؟».

قال تريتل: «نعم إنه كذلك، إنها المدرسة الأم، دورة نسر مدرع مبهرج، وما إلى ذلك. طبعًا، إنها أكبر بالداخل مما هي عليه مثل جبل

جليدي أو ما زلت أفهمها، لم أرَ الأشياء من قبل، إنها جامعة خفية وطبعًا الكثير منها خفي لا يرى، فقط ارجعي وائتي بسايمون، أيمكنكِ ذلك؟».

دفعتْ إسك الستائر الثقيلة وأنعمتِ النظر إلى الجزء الخلفي من العربة، كان سايمون مستلقيًا على كومة من البُسط، يقرأ كتابًا بالغ الضخامة، ويُدوِّن ملحوظات على قصاصات من الورق.

قال: «أهذه أنتِ؟».

قالت إسك بيقين: «نعم».

- اعتقدنا أنكِ تركتِنا، اعتقد الجميع أنك ركبتِ مع شخص آخر، وووووو عععندما توقفنا...

- بل لحقت بكم بطريقة ما، أعتقد أن السيد تريتل يريدك أن تأتي وتلقي نظرة على الجامعة.

قال: «هل وصلنا؟».

ثم نظر إليها نظرة غريبة وأضاف: «وأنت هنا كذلك؟».

- نعم.

- كيف؟

- دعاني السيد تريتل إلى الدخول، وقال إن الجميع سيُذهلون بمقابلتي.

رفرف الشك بجناحيه في أعماق عينيها وأضافت: «أهو محق؟».

نظر سايمون إلى الكتاب إلى أسفل، وغمس منديلًا أحمرَ في عينيه الدامعتين وتمتم قائلًا: «للديه بعض الت -توهمات، لللكنه ليس شخصًا سيئًا».

بذهول، نظرت إسك إلى الصفحات الصفراء المفتوحة أمام الصبي، كانت مليئة برموز معقدة حمراء وسوداء بطريقة لا يمكن تفسيرها

إلى حد ما، وقد كانت قوية وشنيعة مثل الطرود الموقوتة. لكنها تلفت الأنظار كذلك بالطريقة نفسها التي تفعلها الحوادث السيئة حقًّا. يشعر المرء أنه يريد معرفة غرضهم، ويشك في الوقت نفسه أنه لو عرف ما فيها لتمنى لو ظل جاهلًا بما عرف.

رأى سايمون تعبيرها، فأغلق الكتاب بعجالة وتمتم: «بعض السحر، شيء أأأأأ-».

قالت إسك بتلقائية: «تعمل».

- شكرًا، عليه.

قالت إسك: «لا بدَّ أن قراءة الكتب ممتعة للغاية».

- نوعًا ما نعم، ألا يمكنك القراءة يا إسك؟

لسعتها الدهشة في صوته.

قالت بتحدٍّ: «أتوقع ذلك، لم أحاول قطُّ».

لم تكن إسك لتعرف الاسم الجماعي ولو تفل في عينيها، لكنها كانت تعرف أن هناك قطيعًا من الماعز وعهدَ المشعوذات. لكنها لا تعرف ما يطلق على الكثير من السحرة، نظام السحرة؟ اتفاق؟ دائرة؟

أيًّا ما كان اسمهم، فقد ملأوا الجامعة، تجول السحرة بين الأروقة وجلسوا على مقاعد تحت الأرائك، تسارع السحرة الشُّبَّان في الطرقات عندما رنت الأجراس، وأذرعهم مليئة بالكتب أو -حال كانوا طلابًا أكبر- تطير كتبهم خلفهم في الهواء. الهواء معبق بالسحر ومذاق القصدير.

سارت إسك بين تريتل وسايمون وهي منتشية، لم يكنِ الأمر هو وجود سحر بالهواء فحسب، بل إنه مروَّض وناجح مثل الطاحونة؛ هناك قوة لكنها مسخَّرة.

كان سايمون متحمسًا مثلها، لكنَّ حماسته لم تظهر إلا في ازدياد دمع عينيه وسوء حال لعثمته، استمر في التوقف للإشارة إلى الهيئات والمباني البحثية المختلفة.

كان أحدها منخفضًا بعض الشيء ومنعزلًا ذا نوافذ مرتفعة ضيقة.

قال سايمون بصوت ينفجر بالدهشة والاحترام: «أهذه الممكتبة، أيمكنني إلللقاء نظرة؟».

قال تريتل: «سيكون هناك متسع من الوقت لذلك لاحقًا».

نظر سايمون إلى المبنى نظرة متحرِّقة.

همس: «كل كتب السحر التي كُتِبَتْ منذ الأزل».

قالت إسك: «لماذا توجد قضبان على النوافذ؟».

ابتلع سايمون ريقه ثم قال: «لأن ككتب السسحر ليست كغيرها من الكتب، إنها تؤدي إلى-».

قال تريتل بعنف: «هذا كافٍ».

ونظر إلى أسفل إلى إسك كأنه قد لاحظها لتوِّه وقطب جبهته وقال: «لماذا أنتِ هنا؟».

- أنت دعوتني.

- أنا؟ نعم بالتأكيد، عذرًا، شرود الذهن. الشابة التي تريد أن تصبح ساحرًا. دعينا نرى، أليس كذلك؟

انطلق بالطريق إلى أعلى في مسار من خطوات واسعة على درج مؤدٍّ إلى بابين مذهلين، أو على الأقل صُمِّمَا ليكونا مذهلين، فقد استثمر المصمم بشدة في الأقفال الثقيلة والمفصلات المعقوصة وترصيع النُّحاس والممر المنحوت بشكل معقد، ليوضح تمامًا لأي شخص يدخله أنه ليس شخصًا مهمًّا على الإطلاق.

لقد كان ساحرًا، لكنه نسي مطرقة الباب.

طرق تريتل الباب بعصاه، فتردد الباب لوهلة ثم انزاح مزلاجه ببطء إلى الخلف وفُتِحَ.

كانت القاعة مليئة بالسحرة والصبيان وأولياء الأمور، كانت هناك طريقتان للالتحاق بالجامعة الخفية (في الواقع كانت ثلاثًا لكنَّ السحرة لم يدركوا ذلك بعد).

أولهما هو إحراز بعض المنجزات في السحر؛ مثل استعادة أثر عتيق جبار أو اختراع تعويذة جديدة كليًّا، لكنَّ هذا نادرًا ما حدث في هذه الآونة. في الماضي، كان هناك سحرة عظام قادرون على سبك تعويذات جديدة بالكلية من السحر الفوضوي الخام للعالم؛ السحرة الذين تدفقت منهم كل تعويذات السحر، لكنَّ تلك الأيام قد ولَّت، ولم يعدْ هناك المزيد من السحرة.

ولذا كانت الطريقة الأكثر شيوعًا، هي أن يخضع لرعاية ساحر كبير ومحترم بعد مدة تدريب مهني مناسبة.

كانت المنافسة شرسة للحصول على مكان بالجامعة والمجد والامتيازات التي تحققها درجة جامعية من الجامعة الخفية. سيُخفق العديد من الأولاد الذين يتجولون بالقاعة يطلقون تعويذات صغيرة على بعضهم، ويقضون بقية حياتهم وهم سحرة متواضعون، مجرد تقنيين سحريين بلحى جامحة ورقع جلدية على أكواعهم يتجمعون في مجموعات حسودة صغيرة في التجمعات.

القبعة الحادة برموز فلكية اختيارية أو العباءات الرائعة أو عصا القوة ليست لهم، لكنهم على الأقل يمكنهم الاستخفاف بالمشعوذين الميالين إلى المرح والسمنة والاعوجاج في الحديث، وشرب الجعة والتسكع مع النساء النحيفات البائسات مرتديات اللباس الضيق المتلألئ، وإثارة

حَنَق السحرة حقًّا بعدم إدراك مدى تواضعهم والاستمرار في إلقاء النكات لهم. والأدنى من كل ذلك، باستثناء المشعوذات طبعًا هم صبيان السحرة، الذين لم يتلقوا أي تعليم قطُّ، ولا يمكن الثقة بهم إلا في غسل الإمبيق. كما تطلب بعض التعويذات أشياءَ مثل عفن من جثة ميتة بالسحق أو السائل المنوي لنمر حي، أو جذور نبات صرخ حين اقتُلِعَتْ جذوره، من الذي يُرسَل لجلب هذه الأشياء؟ بالضبط إنهم هم.

ومن الخطأ الشائع الإشارة إلى الرتب السحرية الدنيا على أنها تحويطة السحرة، ففي الواقع تحويطة السحرة هو رتبة مفخمة ومتخصصة جدًّا، تجذب الرجال الصامتين المفكرين من ذوي القناعة الدرويدية والميول الصوفية. إذا دعوتَ ساحرًا تحويطيًّا إلى حفل، فسيقضي نصف الحفل في الحديث مع نبتتك بأصِيصها. وسيقضي النصف الآخر في الاستماع لها.

لاحظت إسك وجود بعض النساء في القاعة، لأن السحرة الصغار لديهم أمهات وأخوات، قد حضرتْ أُسَر بأكملها لتوديع أبنائهم المفضلين. كان هناك انفجار كبير من مسح الأنوف وتجفيف الدموع وصلصلة العملات المعدنية إذ دسَّ الآباء الفخورون بعضَها في أيدي أبنائهم.

كان السحرة الكبار يتجولون وسط الحشود، ويتحدثون إلى السحرة الرعاة ويمتحنون الطلاب المحتملين.

اندفع العديد منهم عابرين الجموع لملاقاة تريتل متحركين مثل سُفن محملة بالذهب تحت شراع كامل. انحنوْا له ونظروا إلى سايمون باستحسان.

قال أبدنهم وهو يبتسم إلى الصبي: «هذا هو الشاب سايمون، أليس كذلك؟ لقد سمعنا عنكَ تقاريرَ رائعة أيها الشاب. هه، ماذا؟».

قال تريتل: «انحنِ إلى المستشار كوتانجل، كبير سحرة النجمة الفضية».

انحنى سايمون بتوجس.

نظر كوتانجل إليه بحنان وقال له: «لقد سمعنا عنك أشياءَ رائعةً يا بني، لا بدَّ أن هواء الجبل ذاك كله كان مفيدًا للدماغ، هه؟».

ضحك وضحك السحرة من حوله وضحك تريتل، ولذا اعتقدتْ إسك أن ما قاله مضحك نوعًا ما، إذ لم يحدث أي شيء مسلٍّ يدفع إلى الضحك عدا ما قال.

- لللللللا أعرف، إإإإ...

قال كوتانجل: «من وقع ما سمعناه فهذا الشيء الوحيد الذي لا تعرفه».

اهتز فكاه إنذارًا بنوبة ضحك أخرى موقوتة بعناية.

ربَّت كوتانجل كتفَ سايمون وقال: «إنه الفتى المبتعث، نتائج مذهلة، لم يُرَ أفضل منها قط، تعلم ذاتي كذلك، مذهل، ماذا؟ ألا يبدو ذلك شديد الشبه بتريتل؟».

- رائع، أيها المستشار.

نظر كوتانجل إلى السحرة المتفرجين من حوله: «ربما يمكن أن تعطينا عينة، إثبات صغير ربما؟».

نظر إليه سايمون بذعر حيواني.

- ففي الواقع أنا لللللست بالغ الششششش.

قال كوتانجل بنبرة يعتقد أنها مشجعة: «ليس الآن، لا تخَف وخذْ وقتك، عندما تكون مستعدًّا».

لعق سايمون شفتيه الجافتين ونظر إلى تريتل نظرة استغاثة صامتة: «إم، أأأأأأنت قققققققق».

توقف وابتلع ريقه بشدة، وقال: «الفففففففففف».

برزت عيناه وجرتِ الدموع منهما وارتفعت أكتافه.

ربَّت تريتل ظهره بشكل مطمئن.

وفسَّر لمن حولهم: «حمى الكلأ، لا يبدو أنني قادر على علاجها، لقد جربنا كل شيء».

ابتلع سايمون ريقه وأومأ برأسه، طلب من تريتل التنحي بعيدًا بيديه الطويلة البيضاء وأغمض عينيه.

لم يحدثْ أي شيء لبضع ثوانٍ تالية، وقف وشفتاه يتحركان بلا صوت، ثم انتشر الصمت منه مثل ضوء الشموع، غمرتْ موجات من الصمت الجموع في القاعة، وضربتِ الجدران بكل قوة قبلة متوهجة ثم ارتدَّت في موجات. راقب الناسُ رفقاءهم وهم يتكلمون بصمت، ثم يحمرون من الجهد عندما سمعوا صوت ضحكاتهم مثل صرير البعوضة.

لمعتْ ذرات صغيرة من الضوء حول رأسه، دارت وتقلبتْ في رقصة معقدة ثلاثية الأبعاد ثم شكَّلوا شكلًا.

في الواقع، بدا لإسك كأن الشكل كان موجودًا دائمًا، في انتظار أن تراه عيناها. بالطريقة نفسها التي تتحول بها سحابة بريئة تمامًا فجأة دون تغيير أي شيء إلى حوت أو سفينة أو وجه.

كان الشكل المحيط برأس سايمون هو العالم.

كان ذلك واضحًا تمامًا، رغم أن البهارج واندفاع الأضواء الصغيرة قد طمسوا بعض التفاصيل. لكنْ كان هناك الغيلم السماوي العظيم آتوين وعلى ظهره أربعة أفيال وعليهم القرص نفسه. وكان هناك بريق الشلال

العظيم حول حافة العالم. وهناك في قلب المركز كانت إبرة صغيرة من الصخور تمثل الجبلَ المهيبَ كوري سيليستي حيث تعيش الآلهة.

توسعتِ الصورة ثم استقرت على البحر الدائري ثم على عنخ-موربورك نفسه، كانت الأضواء الصغيرة تتدفق بعيدًا عن سايمون وتختفي من الوجود على بعد أقدام من رأسه، والآن شكَّلوا مدينة من الهواء واندفعوا تجاه المشاهدين. كانت الجامعة نفسها وهي تنمو بشكل أكبر، وكان هناك القاعة الكبرى...

...كان هناك أناس، يشاهدون صامتين فاغرين أفواههم، وسايمون نفسه مرسومًا بقطرات من ضوء فضي. وهناك صورة برَّاقة صغيرة في الهواء من حوله، وهذه الصورة تحتوي على صور أخرى وأخرى...

كان ثمة شعور بأن الكون قد انقلب رأسًا على عقب من جميع الأبعاد دفعة واحدة. وقد كان إحساسًا متخمًا منتفخًا، لقد بدا كأن الكون كله قال «جلوب».

تلاشتِ الحوائط وكذا الأرضيات، واختفتْ صور السحرة العظام السابقين وكل المخطوطات واللحي وعبوس المصابين بالإمساك. تبخَّر البلاط أسفل الأقدام وهو نمط جميل من الأبيض والأسود، وحلَّ محلُّه رمل رمادي ناعم مثل ضوء القمر وبارد كالثلج. ولمعتْ نجوم غريبة وفجائية في السماء، وفي الأفق كانت تلال منخفضة لم تتآكل بفعل الرياح أو الأمطار في هذا المكان معدوم الجو، بل تآكَّلت بفعل صنفرة ناعمة للزمن نفسه.

لم يبدُ أن أحدًا آخر، لم يبدُ أحد حيًّا أصلًا في الواقع، كانت إسك محاطة بأشخاص ساكنين وصامتين كالتماثيل.

ولم يكونوا وحدهم، بل كانت خلفهم أشياء أخرى، تظهر طَوال الوقت. لم تكنْ لها أشكال، أو بالأحرى قد بدا أنهم يتخذون أشكالًا عشوائية

لمخلوقات متنوعة، لقد أعطوْا انطباعًا أنهم قد سمعوا بالأذرع والسيقان والفك والمخالب والأعضاء، لكنهم لم يعرفوا كيفية تنسيقهم معًا حقًّا. أو لم يهتموا بذلك، أو كانوا جائعين جدًّا لدرجة أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء معرفة ذلك.

لقد أصدروا صوتًا مثل سرب من الذباب.

لقد كانوا مخلوقات خارجةً من أحلامها، أتت للتغذي على السحر. كانت تعرف أنهم ليسوا مهتمين بها الآن إلا مثل اهتمامهم بشاكلة النعناع بعد تناول العشاء. بل انصبَّ تركيزهم كله على سايمون الذي لم يكن يعلم بوجودهم البتة.

ركلته إسك بذكاء في كعبه.

اختفتِ الصحراء الباردة، وسارع العالم الحقيقي بالعودة. فتح سايمون عينيه وابتسم بوهن وسقط إلى الوراء رويدًا على ذراعي إسك.

ارتفع ضجيج السحرة وبدأ بعضهم بالتصفيق. لم يبدُ أن أحدًا قد لاحظ أي شيء غريب، باستثناء الأضواء الفضية.

هز كوتانجل نفسه ورفع يديه لتحية الجماهير، وقال لتريتل: «مذهل تمامًا، لقد قلتَ إنه تعلَّم كل ذلك بنفسه؟».

- فعلًا سيدي.
- لم يساعده أحد قطُّ؟
- لم يكن هناك من يساعده، كان يتنقَّل من قرية إلى قرية وهو يلقي تعويذات صغيرة، ولكنه لا يفعل ذلك إلا لو دفع له الناس، ويعطيها لهم في قراطيس أو كتب.

أومأ كوتانجل وقال: «لم يكن هناك انخداع، إنه لم يحرك يديه حتى؟ ماذا يقول لنفسه؟ أتعرف؟».

- إنها مجرد كلمات تجعل عقله يعمل بشكل صحيح.

هز كتفيه وأكمل: «لا أستطيع فهم نصف ما يقول وهذه حقيقة، يقول إن عليه اختراع كلمات لأنه لا يوجد أي منها لما يفعله».

نظر كوتانجل جانبًا إلى السحرة، فأومأوا: «سيكون له شرف أن أسمح له بدخول الجامعة، لتخبره بذلك عندما يستفيق».

شعر بشد في ردائه، فنظر إلى أسفل.

قالت إسك: «معذرة».

قال كوتانجل بصوت عذب: «أهلًا، أيتها الشابة، هل أتيتِ إلى الجامعة لرؤية أخيكِ يدخل الجامعة؟».

- إنه ليس أخي، لقد مرتْ بي أوقات كان العالم مليئًا بالإخوة، لكنه هذا لم يكن واحدًا منهم... هل أنت شخص مهم؟

نظر كوتانجل إلى زملائه وابتسم. لقد كانت هناك منازل بين السحرة كذلك مثلما هي الحال في كل شيء آخر، فأحيانًا يكون السحرة نحيفين وهزيلين ويتحدثون إلى الحيوانات -لم تكن الحيوانات تسمع ولكنَّ الفكرة هي المهم- فيما يميلون في أحيان أخرى إلى الظلام والكآبة مع لحى سوداء صغيرة حادة. كان أعضاء المجلس الحاليون موجودين. انتفخ كوتانجل بالتواضع.

- مهم للغاية، شخص لا يوفر جهدًا في خدمة زميله. أودُّ القول نعم، مهم جدًّا.

قالت إسك: «أودُّ أن أصبح ساحرًا».

حدق إليها السحرة الصغار خلف كوتانجل كما لو كانت نوعًا جديدًا ومميزًا من الخنفساء. احمرَّ وجه كوتانجل وانتفخت عيناه، نظر إلى إسك إلى أسفل وبدا أنه يكتم أنفاسه، ثم شرع بالضحك، لقد بدأ الضحك

من مِنْطَقة ما في بطنه الواسع وشقَّ طريقه إلى أعلى، تردَّد صداه من ضلع إلى ضلع وتسبب في اهتزازات سحرية في صدره حتى انفجر في سلسلة من الشخير المخنوق. كان من الرائع مشاهدة تلك الضحكة، فقد كان لها شخصية خاصة بها.

لكنه توقف عندما رأى تحديقة إسك، إذا كانت الضحكة مهرجًا بقاعة الموسيقى، فإن نظرة إسك الحازمة كانت بمنزلة دلو من البياض على طريق سريع.

- ساحر؟ تودين أن تكوني ساحرًا؟

- نعم.

ثم دفعت سايمون المصابَ بالدوار إلى ذراعي تريتل النافرين: «إنني الابن الثامن للابن الثامن، أعني الابنة».

كان السحرة من حولها ينظرون إلى بعضهم ويتهامسون، حاولت إسك تجاهلهم.

- ماذا قالت؟

- أهي جادة؟

- لطالما اعتقدتُ أن الأطفال ممتعين في هذا العمر، أليس كذلك؟

قال كوتانجل: «إذن أنتَ الابن الثامن للابنة الثامنة، حقًّا؟».

قالت إسك بحزم: «العكس، ليس بالضبط تمامًا».

- ربَّت كوتانجل عينيه بمنديل: «هذا رائع جدًّا، لا أعتقد أبدًا أنني سمعتُ شيئًا كهذا من قبل. هه؟».

نظر حوله إلى جمهوره المتزايد، رفع الأشخاص الذين بالخلف أعناقهم إذ لم يمكنهم رؤية إسك واعتقدوا أن هناك سحرًا مثيرًا للاهتمام يحدث. وقع كوتانجل في حيرة.

- حسنًا، إذن تودين أن تكوني ساحرًا؟

- أواصل إخبار الجميع بذلك، لكنْ يبدو أن لا أحد ينصت لما أقول.

- كم عمرك أيتها الفتاة الصغيرة؟

- تسعة أعوام.

- وتودين أن تكوني ساحرًا عندما تكبرين.

قالت إسك بحزم: «أودُّ أن أكون ساحرًا الآن، وهذا هو المكان المناسب، أليس كذلك؟».

نظر كوتانجل إلى تريتل وغمز.

قالت إسك: «لقد رأيت ذلك».

قال كوتانجل: «لا أعتقد أننا حظينا بساحر امرأة من قبل، وأعتقد أن ذلك مخالف للعرف. ألا تفضلين أن تصبحي مشعوذة، أعرف أنها مهنة جيدة للفتيات».

شرع ساحر صغير بالضحك من ورائه، لكنَّ إسك رمقته بنظرة.

اعترفت إسك قائلة: «أن أصبح مشعوذة أمر جيد طبعًا، لكنني أعتقد أن السحرة يتمتعون بالمزيد من المرح، ماذا تعتقد؟».

- أعتقد أنك فتاة صغيرة متفردة للغاية.

- ماذا يعني ذلك؟

قال تربتل: «هذا يعني أن هناك واحدة فقط منكِ».

قالت إسك: «هذا صحيح، وما زلتُ أودُّ أن أصبح ساحرًا».

أخفقتِ الكلمات يا كوتانجل، قال: «حسنًا، لا يمكنكِ، الفكرة نفسها!».

سحب كوتانجل نفسه بالكامل واستدار.

جر شيء ما رداءه.

وقال صوت: «لم لا؟».

التفتَ وقال ببطء وتأنٍّ: «لأن.. لأن الفكرة بأكملها مضحكة للغاية، هذا هو السبب، ثم إنها مخالفة للعرف تمامًا».

قالت إسك وصوتها يرتعش بأضعف ما يمكن: «لكنني أستطيع ممارسة سحر السحرة».

انحنى كوتانجل حتى تقابلا وهمس: «لا، لا يمكنكِ لأنكِ لستِ ساحرًا. النساء لسنَ سحرة هل أوضحتُ مقصدي؟».

- شاهد.

مدتْ يدها اليمنى وأصابعها مفرودة وبصرتْ على امتدادها حتى رأتْ تمثالَ ماليش الحكيم مؤسس الجامعة. بصورة غريزية، ابتعد السحرة الموجودون بينها وبين التمثال، ثم شعروا بالسخافة بعض الشيء.

قالت: «أعني ذلك».

قال كوتانجل: «ابتعدي أيتها الصغيرة».

- حسنًا.

حدقت إلى التمثال بشدة وركزت

*

كانت الأبواب العظيمة للجامعة الخفية مصنوعة من الأوكتارين، وهو معدن غير مستقر لدرجة أن وجوده غير ممكن إلا في عالم مشبَّع بالسحر الخام. وهي أبواب منيعة على كل الأشياء عدا السحر فلا نار ولا مدق ولا جيش يمكنه اقتحامهم.

وهذا هو سبب استعمال الزائرين العاديين للجامعة البابَ الخلفيَّ، فهو مصنوع من خشب طبيعي تمامًا، لا يُروِّع الناس بل يقف ثابتًا حتى لا يروِّع الناس. وله مطرقة مناسبة وكل شيء.

تفحصتْ جراني عتبات الأبواب بعناية، وأعطتْ زفرةً من الارتياح عندما وجدتْ ما تبحث عنه. لم تكنْ تشك في أنه سيكون هناك، مخفيًّا ببراعة في تجزعات الخشب الطبيعي.

أمسكتْ بالمطرقة، وكانتْ على هيئة رأس تنين وأخذتْ تطرق بذكاء ثلاث مرات، عقب وهلة فتحتِ الباب شابة فمها مليء بمشابك الملابس.

استفسرت قائلة: «أو أوو أونت؟».

انحنتْ جراني وهذا ما أعطى الفتاة فرصةً لملاحظة القبعة الحادة السوداء مع أجنحة الخفاش، فقد كان لهما تأثير مذهل: احمرَّت وجناتها وأخذت تطلع إلى الزقاق الهادئ، ثم أشارت إلى جراني بالدخول بسرعة.

كان هناك فناء كبير مطحلب على الجانب الآخر من الجدار، متقاطع مع حبال الغسيل. واتتْ جراني الفرصة كي تكون إحدى النساء القلائل اللواتي عرفن ما يلبسه السحرة حقًّا تحت عباءتهم، لكنها حوَّلت نظرها بحشمة وتبعت الفتاة إلى البلاط، ثم نزلت درجًا واسعَ الدرجات.

قادتها إلى نفق طويل مرتفع مبطن بقناطر ويملأه البخار حاليًّا. شاهدت جراني طوابير طويلةً من أحواض الغسيل على جانبيِ الغرف الكبيرة، وكان للهواء رائحة دافئة من أثر الكي، حملتْ مجموعة من الفتيات سلال الغسيل واندفعنَ أمامها ثم توقفن، واستدرنَ في منتصف الطريق للنظر إليها.

أرجعتْ جراني كتفيها إلى الوراء وحاولتْ أن تبدو غامضةً قدر الإمكان.

قادتها مرشدتها التي لم تجد حلًّا لمسألة مشابك الملابس بعد إلى ممر جانبي في حجرة هي متاهة من الأرفف المكدسة بالغسيل. في وسط المتاهة، كانت هناك امرأة بدينة بشعر بني مستعار تجلس على منضدة، وكانت تكتب في كتاب غسيل كبير جدًّا -كان لا يزال مفتوحًا أمامها- لكنها كانت تتفقد في تلك اللحظة سترةً كبيرةً ملطخةً.

سألت: «هل جربتِ التبييض؟».

قالت المساعدة بجوارها: «نعم، سيدتي».

- ماذا عن صبغة ميريت؟

- نعم، سيدتي، لقد أحالتْ لونه إلى أزرقَ، سيدتي.

قالت المرأة العاملة بالغسيل: «حسنًا، أدين لصاحبه بواحد جديد، ولقد رأيتُ الكبريتَ والسخامَ ودمَ التنين ودمَ الشياطين ولا أعرف ماذا أيضًا».

قلبتِ السترة وقرأتِ الاسم المدوَّن داخلها بحرص: «هممم، جرانبوني الأبيض، سيصبح جرانبوني الرمادي إن لم يعتنِ بغسيل ملابسه بشكل أفضل. نعم أخبرتكِ يا فتاة، الساحر الأبيض هو في الأصل ساحر أسود مع مدبرة منزل جيدة، احفظها...».

ألقتْ نظرة على جراني، وتوقفتْ.

قالت مرشدة جراني وهي تنحني بسرعة خاطفة: «لقد استحوزز على هذه القبعة، هذه القبعة...».

قالت السيدة البدينة: «حسنًا شكرًا لكِ يا كساندرا يمكنكِ الذَّهَاب».

وقفتْ وابتسمتْ في وجه جراني، وبنقرة زرٍّ ملموسة ارتقتْ بصوتها بضع درجات اجتماعية.

قالت: «تجديننا في القاعات السادسة والسابعة، إنه يوم غسيل كبير وكل شيء، هذه زيارة ودية له أو يمكنني أن أسأل على نحو أجرأ».

خفضتْ صوتها وأكملتْ: «أهناك رسالة من الجهة الأخرى؟».

بدا وجه جراني خاليًا من التعبير لحظاتٍ فقط، كانت علامات الشعوذة على عِضادة الباب تقول إن مدبرة المنزل ترحب بالمشعوذات، وأنها كانت متشوقة بشكل خاص إلى أخبار من رابع أزواجها، كما كانت كذلك في مطاردة عشوائية للبحث عن الخامس. ومن هنا فالشعر البني المستعار وإن لم تكن أذنا جراني تخدعانها، فإنها تصدر صريرَ عظم حوت كافيًا لإغضاب حركة البيئة بأسرها. وشتِ العلامات بالسذاجة والحماقة. امتنعتْ جراني عن إطلاق الأحكام، لأن مشعوذات المدن لم يظهرن بهذا الألق.

لا بدَّ أن مدبرة المنزل قد أخطأتْ في تعبيرها.

- لا تخافي، إنني أعطي موظفيَّ تعليمات صارمة للترحيب بالمشعوذات، رغم أنهم لا يوافقون على ذلك بالتأكيد في الطابق العلوي. ما من شك في أنكِ قد ترغبين في كوب من الشاي أو شيء لتأكليه؟

انحنت جراني بوقار.

ابتسمتْ مدبرة المنزل وقالت: «وسأرى إن أمكننا العثور على مجموعة من الملابس القديمة الجميلة لكِ».

- ملابس قديمة؟ أوه حسنًا، شكرًا لكِ سيدتي.

اندفعتْ مدبرة المنزل إلى الأمام بصوت مثل سفينة شراعية من سفن الشاي في عاصفة، وطلبت من جراني اللحاق بها.

- نعم، سأحضر الشاي إلى شقتي، الشاي مع الكثير من أوراق الشاي.

تعثرتْ جراني خلفها، ملابس قديمة؟ هل تعني تلك السيدة البدينة ما تقوله حقًّا؟ وقاحة! بالتأكيد! ياه لو كانت الملابس جودتها جيدة...

يبدو أن هناك عالمًا كاملًا تحت الجامعة، كانت هناك متاهة من السراديب وغرف التبريد وغرف احتياطية ومطابخ وغرف غسيل، وكان كل ساكن إما يحمل شيئًا وإما ينفخ شيئًا وإما يدفع شيئًا وإما يقف مكانه ويصرخ فحسب. التقطتْ جراني لمحاتٍ من غرف مليئة بالثلج وأخرى متوهجة بالحرارة من مواقد الطهو الساخنة بحجم الجدار. مخابز تفوح منها رائحة الخبز الطازج وغرف مشروبات تفوح منها رائحة الجعة المعتَّقة. كل شيء تفوح منه رائحة العرق ودخان الخشب.

قادتها مدبرة المنزل صعودًا خلال سلم حلزوني قديم وفتحتِ الباب بواحد من المفاتيح كثيرة العدد المتدلية من حزامها.

كانتِ الغرفة بالداخل وردية مزخرفة، كانت هناك زخارف على أشياء لا يخطر ببال أحد زخرفتها. كان الأمر أشبه بالوجود داخل حلوى غزل البنات.

قالت الجدة: «لطيف جدًّا».

ولأنها شعرتْ أن ذلك متوقع جدًّا منها أضافت: «حسن الذوق».

والتفَّت لتبحث عن شيء غير مزخرف للجلوس عليه، لكنْ بلا جدوى.

قالت مدبرة المنزل: «أيًّا كان ما أفكر فيه؟ أنا السيدة ويتلو وأتوقع أنكِ تعرفين ذلك قطعًا. ويشرفني مخاطبتك يا...؟».

قالت جراني: «أوه، نعم جراني ويذرواكس».

كانت الزخارف تصل إليها، لقد أعطوا اللونَ الورديَّ سمعةً سيئةً.

قالت السيدة ويتلو: «أنا نفسي طبعًا».

لم يكن لدى جراني أي موقف عدائي تجاه التنجيم إلا أن يُؤدَّى بسوء من أشخاص ليسوا موهوبين فيه. كان الأمر مختلفًا حين يُعطَى لخبازه، اعتبرتِ المستقبل شيئًا سهلَ الانقياد في أحسن الأحوال، وإذا أخذه الناس على محمل الجد، فسيغيرونه. كان لدى جراني مجموعة من النظريات المعقَّدة عن المكان والزمان، ولماذا لا ينبغي العبث بهما، لكنْ من حسن الحظ فالمنجمون نادرون جدًّا، وعلى أي حال يُفضِّل الناسُ المنجمين السيئين ممن يمكن الاعتماد عليهم في الجُرْعة الصحيحة من التفاؤل والقوة المعنوية.

عرفتْ جراني كل شيء عن التنجيم السيئ، إنه أصعب من التنجيم الحقيقي، ويحتاج إلى خيال خصب.

لم يسعها إلا التساؤل أكانت السيدة ويتلو قد وُلِدَتْ مشعوذة وفوتتْ تدريبها بطريقة ما. كانت تفرض حصارًا على المستقبل بالتأكيد؛ كانت هناك كرة بلورية أسفل كيس الشاي المزخرف، ومجموعات مختلفة من بطاقات التنبؤ وحقيبة مخملية وردية بها أحجار سحرية، وأحد هذه المناضد الموضوعة على عجلات لا يمكن لأي ساحرة حصيفة لمسها مصنوعة من عِصي مقشات بطول عشرة أقدام -لم تكن جراني واثقة من تلك النقطة- أما بعض روث القردة المجفف من الدير اللامي أو بعض روث اللاما المجفف من دير القرود، والذي يبدو أن من الممكن إلقاؤه بطريقة ما للكشف عن مجموعة الحكمة والمعرفة في الكون. كان كل شيء محزنًا إلى حد ما.

قالت السيدة ويتلو وهي تشير إلى الوعاء البني الكبير الموضوع على المنضدة بينهما: «أو هناك أوراق الشاي طبعًا، أعلم أن المشعوذات يفضلونه كثيرًا. لكنهم دائمًا ما يبدون لي متشابهات، لا أقصد الإهانة».

ربما لم تكن هناك أي إهانة مقصودة في ذلك، فكرت جراني في ذلك. كانت السيدة ويتلو تنظر إليها مثل الجراء التي لا يمكنها توقع ما سيحدث تاليًا عامة، ويبدأون في القلق أن التالي قد يكون الضرب بصحيفة ملفوفة.

التقطتْ فنجان السيدة ويتلو وبدأتْ في النظر إليه عندما لمحت التعبير المحبط الذي طاف بوجه مدبرة المنزل كظل في حقل ثلجي. ثم تذكرتْ ما كانت تفعله، وقلبتِ الكأس ثلاث مرات ومررتها تمريرات غامضة وغمغمت بتعويذة (استخدمتها عادة لعلاج التهاب الضرع عند الماعز العجوز، لكن لا تهتم أبدًا). بدا أن هذا العرض للموهبة السحرية الواضح أفرح السيدة ويتلو بلا نهاية.

ما اكتشفته جراني في الواقع، أن الجامعة تسير من تلقاء نفسها.

من المعروف أن من الممكن للأحجار أن تفكر، لأن كل الإلكترونيات مبنية على هذه الحقيقة، لكنْ في بعض العوالم يمضي الناس أعمارًا للبحث عن الذكاء في السماء دون النظر تحت أقدامهم. وهذا لأنهم أخطأوا فهم المدة الزمنية بالكامل. فمن وجهة نظر الأحجار، بالكاد خُلِقَ الكون وقفزتِ الجبال إلى أعلى وأسفل مثل توقف الأعضاء الحيوية، فيما تحركت القارات بسرعة إلى الأمام والخلف بمعنويات عالية للغاية، واصطدمتْ ببعضها بفرحةَ القوى الدافعة وأخرجت صخورها، مر بعض الوقت قبل أن يلاحظ الحجر مرضه الجلدي الصغير المشوه ويبدأ الحك، وهذا أمر جيد كذلك.

على أي حال، فقدِ امتصتِ الأحجار التي بُنِيَتْ منها الجامعة الخفية السحر عدةَ آلاف من السنين، وكان لا بدَّ لكل هذه القوى العشوائية أن ترحل إلى مكان ما.

في الواقع، طوَّرت الجامعة شخصيةً، يمكن لجراني الشعور بهذه الشخصية مثل حيوان كبير وودود للغاية، ينتظر فقط التدحرج على سطحه وخدش أرضيته. لم يكنْ يعيرها أي اهتمام، فيما كان يشاهد إسك.

وجدتْ جراني الطفلة بمتابعة خيوط انتباه الجامعة، وشاهدتْ بسحرها انكشاف المشاهد في القاعة الكبرى...

هناك...؟

جاء الصوت من مسافة بعيدة

- مهنف؟

كررتِ السيدة ويتلو: «نعم أقول ماذا ترين هناك؟».

- هه؟

- أقول، ماذا تـــ...

- أوه.

لف عقل جراني حائرًا، فقد كانت مشكلة استعارة عقل آخر هي أن المرء يشعر دومًا بأنه في غير محله حين يعود إلى جسده، وجراني كانت أول من يقرأ عقل مبنى على الإطلاق. وهي الآن تشعر بأنها كبيرة ورملية ومليئة بالسراديب.

- هل أنتِ على ما يرام؟

أومأتْ جراني برأسها وفتحتْ نوافذها، مددتْ جناحيها الشرقي والغربي وحاولتِ التركيز على الكوب الصغير المحمول في أعمدتها.

من حسن الحظ، وضعتِ السيدة ويتلو بشرتها الجصية وصمتها الصخري في العمل، فيما وجدت جراني أن التعرض لهذه المدة الوجيزة من ذاكرة السيلكون الهائلة للجامعة قد حفَّز خيالها تمامًا.

بصوت مثل ممر عاصف، وهو ما جعل مدبرة المنزل مبهورة للغاية، نسجتْ جراني مستقبلًا مليئًا بشُبَّان يتقاتلون من أجل خِدْمَات السيدة ويتلو الوفيرة، كما تحدثتْ بسرعة بالغة كذلك، لأن ما رأته في القاعة الكبرى جعلها مضطربةً لدرجة الذَّهَاب إلى البوابات الرئيسية مرة أخرى.

وأضافت: «هناك شيء آخر».

- نعم؟ نعم؟

- أراكِ تستأجرين خادمة جديدة.. أنت تستأجرين خدمًا هنا؟ صحيح، أليس كذلك؟ وهذه فتاة صغيرة اقتصادية للغاية وجيدة جدًّا، ويمكنها إعمال يدها في أي شيء.

كانتِ السيدة ويتلو التي انتشتْ بأوصاف جراني الفجائية النابضة لمستقبلها حتى أصبحت في حالة سُكْر، فقالت بفضول: «ماذا عنها، إذن؟».

- الأرواح ليست واضحة تمامًا في هذا الشأن، لكنْ من المهم جدًّا أن تستأجريها.

- لا مشكلة في ذلك، كما تعرفين لا يمكن الإبقاء على الخدم هنا وقتًا طويلًا، فكل هذا السحر يتسرب إلى الأسفل هنا كما تعلمين. خاصة من المكتبة، حيث يحتفظون بكل كتب السحر. في الواقع، لقد غادرتْ خادمتان من خادمات الطابق العلوي أمس، لقد قالتا إنهما سئمتا من الاستيقاظ من الفراش دون معرفة الشكل الذي ستكونان عليه عند الاستيقاظ. كما تعرفين، أعادهما كبار السحرة إلى صورتهما لكنَّ الأمر مختلف.

قالت جراني بتجهم: «نعم، حسنًا تقول الأرواح إن تلك الفتاة الصغيرة لن تُحدِث أي مشكلة في ما يتعلق بذلك».

قالت السيدة ويتلو التي بدت متحيرةً: «إن كانت تعرف المسح والتنظيف فأهلًا بها، أنا متأكدة».

- لقد أحضرتْ مكنستها معها، هذا ما تقوله الأرواح.

- كم هذا مفيد، متى ستصل هذه الشابة؟

- أوه، قريبًا قريبًا.. هذا ما تقوله الأرواح.

خيَّم شك خافت على وجه مدبرة المنزل.

- هذا ليس نوع الأشياء التي تقوله الأرواح عادة، أين قالوا ذلك تحديدًا؟

- هنا، انظري إلى هذا العنقود الصغير من أوراق الشاي بين السكر وهذا الصدع هنا، هل أنا محقة؟

التقتْ عيناهما، ربما كان للسيدة ويتلو نقاط ضعفها، لكنها صارمة بما يكفي للسيطرة على عالم أسفل سلم الجامعة. مع ذلك، فيمكن لجراني التفوق على الثعبان في الدهاء، بعد بضع ثوانٍ بدأت عينا مدبرة المنزل تدمعان.

قالت بخنوع: «نعم، نعم أتوقع أنكِ محقة».

وأخذت منديلًا من خبايا صدر ثوبها.

قالت جراني: «حسنًا إذن».

تراجعتْ في جلستها وهي تُبدِّل فنجان الشاي في الصحن.

قالت السيدة ويتلو: «هناك الكثير من الفرص هنا لسيدة شابة ترغب في العمل بجد، أتعرفين أنا نفسي بدأتُ خادمةً».

قالت جراني بغموض: «كلنا فعل ذلك».

وقفتْ ومدتْ يدها إلى قبعتها وقالت: «والآن عليَّ الذَّهَاب».

- لكن...

قالت جراني من فوق كتفها وهي تسرع هابطة الدرج: «عليَّ الإسراع، موعد عاجل».

- هناك مجموعة من الملابس القديمة...

توقفتْ جراني مؤقتًا، غرائزها تكافح للسيطرة.

- أهناك أي مخمل أسود؟

- نعم وحرير كذلك.

لم تكنْ جراني متأكدة من موقفها من الحرير، فقد سمعت أنه يخرج من مؤخرة دودة القز، لكنَّ المخمل الأسود جاذبيته قوية. فمالتْ له.

صاحتْ وهي تركض بالممر: «ضعيهم على جانب، إلى أن أتواصل معكِ مجددًا».

اندفع الطهاة وخادمات المغسلة بحثًا عن ملجأ فيما قفزت العجوز على طول الحجارة الزلقة، وقفزتْ على الدرج إلى الفناء وانزلقتْ خلال الممر، رفرف شالها خلفها وحذاؤها يصدر شرارات من احتكاكه بالحصى. وبمجرد الخروج إلى العراء، شمَّرتْ تنانيرها وانطلقتْ تعدو بالكامل، والتفَّت في الزاوية إلى الميدان الرئيسي في صرير حذاء ترك خرشًا أبيض طويلًا في الحجارة.

وصلتْ في الوقت المناسب تمامًا لرؤية إسك تخرج ركضًا من البوابات باكية.

*

- لم ينجحِ السحر! كان بإمكاني الشعور به هناك، لكنه لم يخرج فقط!

- ربما لأنكِ حاولت بجهد بالغ، السحر مثل الصيد. القفز ورش الماء لم يصطادا أي سمكة. عليكِ التحلي بالهدوء وترك الأمر يحدث من تلقاء نفسه.

- ثم سخر مني الجميع، حتى إن أحدهم قد أعطاني حلوى!

- قد ربحتِ شيئًا اليوم إذن.

قالت إسك بنبرة لوم: «يا جراني!».

- حسنًا، ماذا توقعتِ؟ على الأقل لم يفعلوا شيئًا سوى السخرية منكِ. السخرية لا تؤذي أحدًا، توجهتِ إلى كبير السحرة واستعرضتِ أمام الجميع، وضحكوا منك فقط؟ أنت تبلين حسنًا، فعلًا تفعلين، هل أكلتِ الحلوى؟

عبست إسك وأجابت: «نعم».

telegram @
yasmeenbook

- أي نوع كانت؟

- طوفي.

- لا أستسيغ الطوفي.

- هه؟ أعتقد أنك تودينني أن آتيك بحلوى نعناع في المرة القادمة؟

- لا تسخري مني أيتها الشابة الزميلة، لا حرجَ بالنعناع، مرري لي هذه الزبدية!

كانت المزية الأخرى التي اكتشفتها جراني لحياة المدينة هي الأواني الزجاجية. كانت بعض جرعاتها المعقدة تستلزم أدواتٍ عليها إما شراؤها من الأقزام بأسعار استفزازية وإما طلبها من أقرب نافخ زجاج، وكانت تصل إليها في القش عادةً وهي شظايا في الأغلب. لقد حاولتْ أن

تنفخ الزجاج بنفسها، ودومًا ما جعلها المجهود تسعل، وهو ما أدى إلى بعض النتائج المضحكة للغاية. لكنَّ مهنة الكيمياء المزدهرة في المدينة عنت أن ثمة محالٌّ مليئة بالزجاج لبيعه، ويمكن للمشعوذات دومًا الشراء بأسعار منافسة.

راقبت بحذر تدفق البخار الأصفر على طول متاهة ملتوية من الأنابيب، وتكثفه في النهاية على هيئة قطرة واحدة لزجة كبيرة. التقطتْها بدقة على طرف ملعقة وبحذر شديد قلَّبتها في قنينة زجاجية صغيرة.

راقبتها إسك دامعة وسألتْ: «ما هذا؟».

قالت جراني وهي تغلق القنينة بالشمع: «اسمه لا تبالي».

- دواء؟

- إذا جاز التعبير.

سحبتْ جراني عدة كتاباتها واختارتْ قلمًا، علق لسانها بإحدى زوايا فمها وهي تحاول الكتابة على اللاصق بعناية، مع الكثير من المحو والتوقف عن العمل للتهجي.

- لمن هذا؟

- للسيدة هيراباث زوجة نافخ الزجاج.

نفختْ إسك أنفها وقالت: «الشخص الذي لا ينفخ الكثير من الزجاج، أليس كذلك؟».

نظرت جراني إليها من فوق المنضدة وسألتها: «ماذا تعنين؟».

- عندما تحدثتُ إليكِ بالأمس أسميتِه السيد الشيخ مرة واحدة بالأسبوع.

قالت جراني: «مهف».

وأنهت الجملة التي تكتبها بعناية وفيها:

«توضاع في نوصف رتل ميياه ونوقطة واحودة في شايوه وتأكيدي من ارتداء ملابيس مونحلة أيضيا لا يتوقعها زاعير».

قالت لنفسها ذات يوم سأُضطَرُّ اضطرارًا إلى الحديث معها في هذا الموضوع.

تبدو الطفلة فضولية بشدة، لقد ساعدت فعلًا في عدد كافٍ من الولادات وأخذت الماعز إلى ناني العجوز أنابيل بيلي دون استخلاص أي استنتاجات واضحة. لم تكنْ جراني متأكدة مما عليها فعله حيال ذلك. لكنَّ الوقت لن يكون مواتيًا لطرح هذا الموضوع أكثر من الآن أبدًا.

تحيرتْ وشعرتْ بالحرج البالغ من أعماق قلبها، شعرتْ مثل بيطار يستطيع تنعيل الخيول ومعالجتها وتربيتها والخبرة بحالها، لكنه لا يستطيع ركوبها.

- ألصقتِ الملصق على القارورة ولفَّتها بحذر في ورق فارغ.

قالت: «هناك طريقة أخرى لدخول الجامعة».

نظرتْ بطرف عينيها إلى إسك التي كانت تؤدي عملًا ساخطًا بهرس الأعشاب في المهراس وأضافت: «طريقة المشعوذات».

نظرت إسك إلى أعلى، تفلتتْ من جراني ابتسامة خفيفة وبدأتِ العمل على ملصق آخر، لطالما كانت كتابة الملصقات هي الجزء الأصعب من السحر، بالنسبة إليها.

- لكنني لا أظنكِ ستتحمسين لها، فهي ليست طريقةً براقةً للغاية.

تمتمت إسك: «لقد سخروا مني».

- حسنًا، تقولين إنكِ لا ترغبين في المحاولة مرة أخرى، فهمتُ.

حل صمت لم يقطعْه سوى صوت خربشة قلم جراني.

وأخيرًا قالت إسك: «وهذه الطريقة...».

- مهف؟

- هل ستدخلني إلى الجامعة؟

قالت الجدة بغطرسة: «طبعًا، لقد قلتُ إنني وجدتُ طريقةً، ألم أقلْ ذلك؟ طريقة جيدة جدًّا أيضًا. ليس عليكِ الانزعاج بالدروس، بل يمكنكِ التجول في المكان كله، دون أن يلاحظكِ أحد، ستكونين لا مرئية حقًّا، وحسنًا يمكنك التنظيف كذلك، لكنْ طبعًا، بعد كل هذه السخرية لن تكوني مهتمة، أليس كذلك؟».

قالت السيدة ويتلو: «أتسمحين بأن أقدم لكِ كوبَ شاي آخر يا مدام ويذوراكس؟».

قالت جراني: «آنسة».

- عفوًا؟

قالت جراني: «آنسة ويذرواكس، ثلاث ملاعق سكر من فضلك».

دفعت السيدة ويتلو السكرية نحوها، بقدر ما كانت تتطلع إلى زيارات جراني، فقد كانت تلك الزيارات باهظة التكلفة من حيث السكر.

لم يبدُ قطُّ أن مكعبات السكر يمكنها الصمود مدةً طويلةً في مكان فيه جراني.

قالت: «إنه سيئ جدًّا لبروز البطن والأسنان، كما سمعت أن...».

قالت جراني: «لم يكن عندي قطُّ بطن بارز وأسناني تعتني بنفسها».

كانت هذه حقيقة وهي أمر مثير للشفقة، فقد عانتْ جراني أسنانًا صحية قوية، واعتبرتها عقبةً كبيرةً بالنسبة إلى مشعوذة. لقد كانت

تحسد ناني أنابيل؛ المشعوذة التي تعيش على سفح الجبل، والتي تمكنت من فقد جميع أسنانها عندما كانت في عمر العشرين وتمتعت بمصداقية حقيقية. ففِقدان الأسنان يعني تناول المرء الكثير من الحَساء، وحظيه بالكثير من الاحترام. ثم كانت هناك البثور، تمكنتْ ناني أنابيل دون جهد يذكر من الحصول على وجه مليء بالثقوب. فيما جربت جراني كل مسبب للبثور حسن السمعة وأخفقتْ في الحصول حتى على بثرة أنف إجبارية. حظيتْ بعض المشعوذات بكل الحظ.

قالت جراني وهي واعية لتجهم السيدة ويتلو: «مهف».

قالت السيدة ويتلو: «قلتِ إن إسكارينا الصغيرة كنز حقيقي، اكتشاف صغير. إنها تُبقِي الأرضيات نظيفة ولامعة. ليست هناك مهمة عصية عليها، لقد قلتُ لها بالأمس إن مكنستها لها حياتها الخاصة، أتعرفين بماذا ردت عليَّ؟».

قالت جراني بوهن: «لا يمكنني التخمين حتى».

- قالت إن الغبار يخاف منها! أيمكنكِ تخيل ذلك؟

- نعم.

دفعتِ السيدة ويتلو بفنجان شايها تجاه جراني وهي تبستم لها بحرج.

تنهدتْ جراني بداخلها وحدقتْ إلى أعماق المستقبل غير النظيف بالمرة. وقطعًا بدأتْ في إعمال خيالها.

- تحركتِ المكنسة خلال الرواق رافعةً سحابةً عظيمةً من الغبار التي بدا، لو نظرتْ إليها بإمعان، كأن المكنسة تمتصها. وإذا أمعنت في النظر أكثر، فسترى أن مقبض المكنسة عليه علامات

غريبة، لم تكن منحوتة بقدر ما هي متشبثة وبطريقة ما تتغير أشكالها كلما نظرت إليها.

لكنْ لم ينظر أحد.

جلست إسك بإحدى النوافذ العميقة العالية وحدقت إلى المدينة. كانت تشعر بغضب أكثر من المعتاد، ولذا هاجمتْ المكنسة الغبار بنشاط غير معتاد. ركضتِ العناكب بأرجلها الثمانية يائسة بحثًا عن السلامة، إذ اختفتْ أنسجة شبكات الأجداد في الفراغ. وفي الجدران، تشبثتِ الفئران ببعضها وتعصبتْ أقدامها في حفرهم. وخربشتْ دودة الخشب في عوارض السقف فيما كانت تُسحَب بلا هوادة إلى الوراء نازلة من أنفاقها.

قالت إسك: «يمكنكِ التنظيف حقًّا، هه؟».

كان هناك بعض النقاط الجيدة التي عليها الاعتراف بها، كان الطعام بسيطًا لكنه وفير، وكانت لديها غرفة خاصة في مكان ما بالسطح، وكانت فاخرةً جدًّا حيث يمكنها الاستلقاء حتى الخامسة صباحًا، وكانت تعتبر الظهيرة وفق أسلوب تفكير جراني. ولم يكنِ العمل صعبًا بالتأكيد، كانت تبدأ بالكنس من فورها حتى يدرك العاملون ما يتوقعونه منها، وبعدها بإمكانها تسلية نفسها حتى ينتهي. وإن أتى أحد، فستتكئ العصا على الجدار على الفور بلامبالاة.

لكنها لم تكن تتعلم أي سحر، كان بوسعها التجول في الحجرات الدراسية الفارغة، وإلقاء نظرة على الرسوم المرسومة بالطباشير على السَّبُّورة، وعلى الأرض كذلك في بعض الفصول المتقدمة، لكنَّ الأشكال كانت بلا معنى، بل ومزعجة.

لقد ذكروا إسك بالصور الموجودة في كتب سايمون، لقد بدتْ نابضة بالحياة.

حدقتْ إلى أسطح منازل عنخ-موربورك واستنتجت الأمر على هذا النحو: الكتابة هي ما يقوله الناس من كلمات فحسب، مضغوطة بين طيات الورق حتى تتحجر (كانت الحفريات معروفة في عالم القرص، وهي أصداف لولبية عظيمة ومخلوقات سيئة البِنية تُرِكَتْ منذ الوقت الذي لم يكن الإله قد قرر ما يريد صنعه بعد، وبقيت على حالها مجرد عبث مكتوف الأيدي من العصر الجليدي). وكانت الكلمات التي قالها الناس مجرد ظلال لأشياء حقيقية، لكنَّ بعض الأشياء بالغة الضخامة على أن تُحصَر في كلمات، بل حتى الكلمات أعتى بأسًا من أن تروضها الكتابة كليًّا.

ولذا تبع ذلك، أن بعض الكتابة تحاول أن تصبح أشياءَ في الواقع. أصبح تفكير إسك مشوشًا في هذه المرحلة، لكنها كانت متأكدة أن الكلمات السحرية الحقيقية هي الكلمات التي تنبض بغضب، محاولة الهرب والتحول إلى حقيقة.

لم يبدُوا جميلين جدًّا.

لكنْ بعدها تذكرت اليوم الماضي.

لقد كان يومًا غريبًا بعض الشيء، الغرف الدراسية للجامعة مصممة على قاعدة قُمع بصفوف من المقاعد -مصقولة بإعجاز أعظم السحرة في عالم القرص- تهبط على نحو سريع إلى أسفل إلى مِنْطَقة مركزية حيث توجد منضدة عمل وسبورتين، ومساحة خالية من الأرض تكفي لثُماني دراسي ذي حجم محترم، كان هناك الكثير من المساحات المحجوبة أسفل الصفوف، ووجدتها إسك موقع مراقبة مفيدًا للغاية. كانت تحدق إلى الأستاذ من بين الأحذية الحادة للسحرة المبتدئين. كان الأمر مريحًا للغاية، حيث انجرفتْ إليها دندنة المحاضرين بلطف مثل

دوي النحل المزعج قليلًا في حديقة أعشاب جراني. لم يبدُ قطُّ أن هناك سحرًا عمليًّا، بل بدا الأمر دائمًا مجرد كلام. بدا السحرة محبين للكلام.

لكنَّ البارحة كان الأمر مختلفًا، كانت إسك جالسةً في الظلمة المغبرَّة تحاول ممارسة بعض السحر البسيط للغاية، عندما سمعتِ الباب يفتح وحذاءً يزحف على الأرض، كانت هذه مفاجأة بحد ذاتها. فإسك تعرف جدول المحاضرات، وطلاب السنة الثانية الذين يشغلون هذه الحجرة عادة بالأسفل الآن لإزالة الطابع المادي عن المبتدئين مع جوفال زا اسبراي في صالة الألعاب الرياضية (لا يحتاج طلبة السحر إلى ممارسة الرياضة البدنية إلى حد يذكر، كانت صالة الألعاب الرياضية حجرة كبيرة مبطنة بالرصاص وخشب شجرة الغبيراء، حيث يمكن للمتدربين الجدد التدرب على السحر العالي دون إحداث خلل خطِر في الكون، رغم أن الأمر لا يخلو دائمًا من إحداث خلل خطِر بأنفسهم. السحر لا يرحم المغفلين، كان بعض الطلاب مغفلين محظوظين بما يكفي للخروج، وبعضهم أُخرِجوا من زجاجات).

حدقت إسك خلال الأرضيات المضلعة، لم يكن هؤلاء طلاب، بل كانوا سحرة من ذوي الرتب الرفيعة للغاية، حكمتْ من خلال أرديتهم. ولم يكن هناك مجال للخطأ في الحكم على الشخص الذي اعتلى منصة المحاضر مثل دمية مشدودة بشكل سيئ، وارتطم بشدة بمنصة القراءة واعتذر عن ذلك وهو شارد الذهن. لقد كان سايمون؛ لم يكن لأحد آخر عينان مثل بيضتين نيئتين في ماء دافئ وأنف أحمر لامع من الانتفاخ. بالنسبة إلى سايمون، فقد ساءه غبار الطلع بلا نهاية.

لقد خطر في بال إسك أنه، باستثناء حساسيته العامة تجاه الخليقة بأسرها وبتسريحة شعره اللطيفة هذه وبعض دروس السلوك، يمكن أن

يبدو الفتى وسيمًا للغاية. لقد كانت فكرة غير عادية، وقد أزاحتها من ذهنها الآن للتفكير فيها مستقبلًا.

عندما استقر السحرة بجلساتهم، بدأ سايمون بالتحدث، كان يقرأ من مُسوَّدة. وكلما تلعثم بكلمة، كان السحرة كلهم على قلب رجل واحد ينطقونها له دون التمكن من منع أنفسهم عن فعل بذلك.

بعد مدة، ارتفعت عصا من الطباشير عن المنصة وبدأت تكتب على السَّبُّورة خلفه، كانت إسك قد تعلمتْ ما يكفي عن سحر السحرة لتعرف أن ما حقَّقه إنجاز هائل، فسايمون بالجامعة منذ أسبوعين فقط، ولم يكن معظم الطلاب يتقنون التحليق الخفيف إلا في نهاية عامهم الدراسي الثاني.

انزلق كعب أبيض صغير وطقطق في الظلام ليرافق صوت سايمون، حتى مع أخذ التلعثم في الاعتبار، فهو لم يكن متحدثًا لبقًا. أسقط ملحوظات وصحح لنفسه، أصدر أصواتَ شك وتنهداتٍ. وبقدر ما اهتمت إسك، فهو لم يكن يقول الكثير أصلًا. تغلغلتِ العبارات إلى مخبأها، وكانت عبارة «النسيج الأساسي للكون» ولم تفهم إسك معناها، إلا لو كان يقصد نسيج الدنيم أو الفلانليت ربما. «التحولية في مصفوفة الاحتمالات» لم تستطع تخمين المعنى على الإطلاق.

في بعض الأحيان، بدا كأنه يقول لا شيء موجود سوى ما يعتقد الناس بوجوده. وأن العالم كان موجودًا حقًّا لأن الناس استمروا في تخيله. لكنْ بعدها بدا كأنه يقول إن هناك العديد من العوالم، كلها متشابهة تقريبًا وكلها تشغل المكان نفسه لكنها منفصلة عن بعضها بسمك الظل، ومن ثم فأي شيء حدث لا بدَّ أن يكون هناك مكانًا لحدوثه.

(يمكن لإسك تقبُّل هذا الأمر، لقد اشتبهتْ في ذلك نصف اشتباه منذ نظفت مرحاض السحرة الكبار، أو بالأحرى بينما تنجز العصا المهمة

وهي تفحص المباول وبمساعدة بعض التفاصيل الأخرى التي تتذكرها نصف تذكر بشأن إخوتها في حمام القصدير أمام النار في المنزل، وصاغت نظريتها العامة غير الرسمية عن التشريح المقارن. كان مرحاض السحرة مكانًا سحريًّا، بمياه جارية وبلاطات مثيرة للاهتمام والأهم من ذلك مرآتان فضيتان كبيرتان مثبتتان على الجدار المقابل، بحيث يمكن للناظر إليها أن يرى صورته تعيد نفسها مرارًا وتَكْرارًا حتى تصبح الصورة أصغر من أن ترى. كانت هذه مقدمة إسك الأولى لفكرة اللانهاية. والأكثر من ذلك، أن شكًّا قد راودها بأن إحدى المرآتين، تلك التي على حافة البصر بالتحديد، تلوح لها).

كان هناك شيء مزعج في العبارات التي استخدمها سايمون، فقد بدا نصف الوقت كأنه يقول إن العالم حقيقي مثل فقاعة صابون أو حلم.

صرخ الطباشير في طريقه على اللوح خلفه، كان على سايمون التوقف أحيانًا وشرح الرموز إلى السحرة، وقد بدا لإسك أنهم يتحمسون لبعض الجمل شديدة السخافة. ثم يبدأ الطباشير مجددًا، ينحت في الظلام مثل مُذنَّب مخلفًا غباره خلفه.

كان الضوء يتلاشى من السماء بالخارج، ومع ازدياد عَتَمة الحجرة توهجتِ الكلمات المكتوبة بالطباشير، وبدتِ السَّبُّورة أقل قتامة بكثير، كأنَّها ليست موجودة على الإطلاق، بل مجرد ثَقْب مربع مقطوع من العالم.

تحدث سايمون عن أن الكون مكون من أشياء دقيقة لا يحدد وجودها سوى حقيقة أنها ليست موجودة، كرات صغيرة دوَّارة من العدم يمكن للسحر تحويلها معًا لتكون نجومًا أو فراشات أو ماسات. كان كل شيء مكون من العدم.

والأمر المضحك هو أنه وجد ذلك فاتنًا، كانت إسك الوحيدة الواعية لنمو الحجرة بشكل رقيق وواهٍ كالدخان، كأنَّ الفراغ بداخلها يتمدَّد ليبتلع ما يمكن تعريفه بأنه جدران، وبدلًا منها لم يكن هناك سوى برد مألوف وفراغ وتألق واضح مع تلاله البعيدة، مخلوقات وقفت ساكنة كالتماثيل تنظر إلى أسفل.

كان هناك الكثير منهم الآن، لقد بدوْا للعالم بأسره متجمعين مثل الفراش حول الضوء.

كان أحد الاختلافات الهامة هو أن وجه العث -حتى عن قرب- كان ودودًا مثل الأرانب مقارنة بالأشياء التي يشاهدها سايمون.

ثم أتى خادم لإضاءة الأنوار واختفتِ المخلوقات وتحولتْ إلى ظلال غير مؤذية تمامًا، تندس في زوايا الحجرة.

في وقت ما من الماضي القريب، قرَّر أحدهم إضاءة الممرات العتيقة للجامعة بطلائها، وكان يمتلك مفهومًا غامضًا مفاده أن التعليم لا بدَّ أن يكون ممتعًا. لم ينجحِ الأمر، وهذه حقيقة كونية معروفة، فبصرف النظر عن مدى دقة اختيار الألوان، سينتهي الأمر بالديكور المؤسسي إما بلون القيء الأخضر وإما بشيء بني لا يصح ذكره، وإما النيكوتين الأصفر وإما الزي الجراحي الوردي. ومن خلال بعض الطرق غير المفهومة قليلة للصدى المتعاطف، فلطالما كانت رائحة الممرات المطلية بهذه الألوان كرائحة الملفوف المسلوق حتى إن لم يكن هناك ملفوف طُهِيَ قطُّ بالمناطق المجاورة.

في مكان ما، أسقطتْ إسك نفسها بخفة من عتبة النافذة، أمسكتْ بالعصا وبدأتِ الكنس بجدية فيما فُتِحَتِ الأبواب وامتلأتِ الممرات بالطلبة. تدفقوا حولها من جهتين كالماء حول صخرة. لبضع دقائق،

كان ثمة ارتباك عارم، صدمت الأبواب، ثم خطت بعض الأقدام المتلكئة خطواتها في مسافة بعيدة، وعادت إسك بمفردها مجددًا.

ليست هذه أول مرة تمنت فيها إسك لو أن العصا تتكلم، كان باقي الخدم ودودين بما فيه الكفاية، لكنْ لا يمكنها التحدث معهم، ليس عن السحر بأي حال.

كما توصلت إلى استنتاج مفاده أن عليها السعي لتعلم القراءة، بدا أن القراءة هي مفتاح سحر السحرة الذي يدور كله حول الكلمات. يبدو أن السحرة يعتقدون أن الأسماء مثل الأشياء، وأنك إن غيرت الاسم غيرت الشيء نفسه. على الأقل، بدا أنهم يعتقدون شيئًا من هذا القبيل...

القراءة. هذا يعني المكتبة، وقد قال سايمون إن بها آلاف الكتب، وبين كل هذه الكلمات لا بدَّ أن هناك كلمة أو اثنتين بوسعها قراءتهم. وضعت إسك العصا على كتفها وانطلقتْ بعزم إلى مكتب السيدة ويتلو.

كان ذلك تقريبًا عندما قال أحد الجدران: «بسست».

وعندما حدقت إسك إليه، اتضح أنه جراني، لم يكن الأمر أن جراني بإمكانها جعل نفسها لا مرئية، بل مجرد امتلاكها القدرة على التلاشي بحيث لا يلاحظها أحد.

سألت جراني: «كيف حالك إذن؟ وما أخبار السحر؟».

- ماذا تفعلين هنا يا جراني؟

قالت جراني وهي تحمل حُزْمة كبيرة من الملابس القديمة بشيء من الرضا: «كان من المفترض أن أقرأ للسيدة ويتلو طالعها».

تلاشتِ ابتسامها تحت نظرة إسك الصارمة.

- حسنًا، الأمور في المدينة حقًّا مختلفة، الناس قلقون دائمًا بشأن المستقبل، وذلك نتيجة أكلهم طعامًا غير طبيعي.

وأضافت وقد أدركت فجأة أنها جعلتها تُسوِّغ موقفها: «لماذا لا ينبغي لي قراءة الطالع؟».

- كنتِ دائمًا ما تتحدثين عن أن هيلتا تستغل حماقة بني جنسها، وأن عليهم الخجل من أنفسهم. وعلى أي حال، فأنتِ لا تحتاجين إلى ملابس قديمة.

أمضتْ جراني حياتها كلها على عهد الملابس القديمة، ولم تكن لتترك الازدهار المؤقت في إزاحة ذلك، قالت الجدة باحتشام: «لا تغيري الموضوع، أتحصلين على ما يكفي من الطعام؟».

- أجل، جراني بخصوص سحر السحرة ذلك، كله متعلق بالكلمات...

- لطالما قلتُ ذلك.

- لا، أعني...

لوحتْ جراني بيدها بانفعال وقالت: «لا يمكن لذلك أن يزعجني في هذه اللحظة، لديَّ بعض الطلبات الكبيرة التي لا بدَّ من الوفاء بها هذه الليلة، إذا استمرَّ الأمر على هذه الحال، فعليَّ تدريب شخص ما. ألا يمكنكِ القدوم لرؤيتي في استراحتك بعد الظهيرة، أو أيًّا كان ما يعطونك إياه؟».

قالت إسك مرعوبة: «تدريب شخص ما؟ أتقصدين مشعوذة؟».

- لا، أعني ربما.

- لكنْ ماذا عني؟

- حسنًا، لقد سلكتِ طريقكِ الخاص، أينما كان.

- مهنف.

حدقت جراني إلى وجهها. وقالت أخيرًا: «سأغادر إذن».

استدارتْ ومضتْ نحو مدخل المطبخ. وفي أثناء فعلها ذلك انكشفت عباءتها ورأت إسك أن عباءتها أصبحتْ مبطنة بالأحمر. أحمر داكن نبيذي، لكنه أحمر على أي حال. وبالنسبة إلى جراني التي لم تُعرَف قطُّ بارتدائها أي ملابس ظاهرة بأي لون عدا الأسود الصالح للخدمة، كان الأمر صادمًا للغاية.

قالت السيدة ويتلو وقد بدت في حيرة من أمرها حقًّا: «المكتبة؟ لا أحد ينظف المكتبة».

- لماذا؟ ألا تتغبر؟

- حسنًا، أفترض أنها تتغبر بالتأكيد، ولما كنتِ ذكرتِ ذلك. فأنا لم أفكر في هذا الأمر قطُّ.

قالت إسك بلطف: «كما ترين فقد نظفتُ كل مكان آخر».

- نعم، قد فعلتِ، ألم تفعلي؟

- حسنًا إذن.

- كل الأمر أننا لم نفعل ذلك قطُّ قبل، ولا أتذكر لماذا لم نفعل طيلة حياتي.

- حسنًا، إذن.

قال أمين المكتبة: «حسنًا؟».

وابتعد عن إسك.

لكنها سمعت به وأتت إليه مستعدة. عرضتْ عليه موزة.

مدَّ إنسان الغاب يده ببطء ثم اختطفها بابتسامة انتصار.

قد تكون هناك عوالم تعتبر فيها أمانة المكتبات مهنة مسالمة نوعًا ما، إذ تكون المخاطرات محدودة بتساقط المجلدات الضخمة من على الأرفف فوق رأس أحدهم. لكنَّ حارس مكتبة السحر ليس مهنة للمغفلين، فللتعويذات قوة ومجرد تدوينها وحشرها بين الأغلفة لم يفعل أي شيء لتقليل هذه القوة. تسربتِ العصا، مالتِ الكتب إلى التفاعل مع بعضها، وهذا ما خلق سحرًا عشوائيًّا بين عقولها. كثيرًا ما وُضِعَتْ كتب السحر مصفَّدة بالأغلال على أرففها، ولكنَّ ذلك ليس لمنع سرقتها...

لقد حوَّلت إحدى الحوادث أمين المكتبة إلى قرد؛ منذ أن قاوم جميع محاولات إعادته، وقد فسَّر ذلك بلغة الإشارة بأن الحياة مثل إنسان الغاب أفضل من الحياة مثل إنسان طبيعي. لأن كل الأسئلة الفلسفية الكبيرة قد حُلَّت من تلقاء نفسها وتحولت إلى سؤال واحد هو من أين ستأتي الموزة التالية.

على أي حال،فالذراعان الطويلتان والقدمان القابضتان كُنَّ مثاليات للتعامل مع الرفوف العليا.

أعطته إسك سُباطة موز كاملة، وأسرعت مهرولة بين الكتب قبل أن يرفض.

لم ترَ إسك قطُّ أكثر من كتاب واحد في الوقت ذاته، ولذا كانت المكتبة -رغم معرفتها- مثل أي مكتبة أخرى.

صحيح، كانت غريبة نوعًا ما بالطريقة التي بدت بها الأرض كأنها حائط بعيد، وكان ثمة شيء غريب بالطريقة التي لعبت بها الأرفف حيلًا بصرية كأنها تلتف خلال أبعاد أكثر من الأبعاد الثلاثية المعتادة. وكان من المفاجئ للغاية النظر إلى أعلى ورؤية الأرفف في السقف حيث يتجول الطالب بلا مبالاة بينهم أحيانًا.

والحقيقة هي أن وجود هذا الكم الكبير من السحر قد شوَّه الفضاء المحيط به. أسفل الأكوام، عذَّب نسيج الدنيم وربما الفلانلايت نفسه للكون في أشكال بغاية الغرابة. ملايين الكلمات المحاصرة غير قادرة على الهرب، تلوي ذراعَ الواقعِ المحيطة بها.

وقطعًا لم تكن المكتبة صامتةً، كان هناك أزيز وصرير للشحنات السحرية بين الفينة والأخرى، وكانت شرارات الأوكتارين تندلع من رف إلى آخر. تشابكتِ الأغلال بصوت خافت، وطبعًا كان هناك حفيف خافت لآلاف الصفحات في سجونهم المكسوة بالجلد.

تأكدتْ إسك من عدم انتباه أي شخص لها، وسحبت أقرب مجلد، انفتح في يدها. ورأت على نحو كئيب أن هناك الأنواع البشعة نفسها من الرسم الذي لاحظته في كتاب سايمون. كانت الكتابة غير مألوفة بالمرة، وكانت سعيدة بذلك، فمن المروع معرفة ما تعنيه فعلًا كل هذه الأحرف التي بدا أنها مكونة من مخلوقات شنيعة تفعل أشياء معقدة ببعضها. أغلقت الغلاف، رغم أن الكلمات بدا أنها تتراجع بشدة، فقد كان في المقدمة رسم لمخلوق؛ بدا مثيرًا للريبة كأنه أحد أشياء الصحراء الباردة. وبالتأكيد لم يبدُ مثل قطة سعيدة.

- مرحبًا إسك، أليس كذلك؟ ككيف ددخلت إلى ههنا؟

كان سايمون، واقفًا وتحت كل من ذراعيه كتاب. احمرَّت إسك خجلًا. وقالت: «تأبى جراني أن تخبرني، أنه شيء يتعلق بالرجال والنساء».

نظر إليها سايمون بهدوء ثم ابتسم.

فكرت إسك في السؤال ثانية:

- أعمل هنا، كنت أنظف وأكنس.

حركت العصا لتفسر ما تقول.

- بالداخل هنا؟

حدقت إليه إسك، شعرت بالوَحْدَة والضياع وبالخيانة أكثر منهما. بدا الجميع مشغولًا بعيش حياته، إلاها. ستمضي بقية حياتها تنظف وراء السحرة، وهذا ليس عدلًا وقد سئمت.

- في الواقع، لم أكن أفعل ذلك. بل في الواقع، كنت أحاول تعلم القراءة كي أصبح ساحرًا.

نظر إليها الفتى بعينيه الرطبتين لثوانٍ، ثم أخذ الكتاب من بين يديها بلطف وقرأ عنوانه: «ملفيكوروم الديمونولوجيا في هينشانس الوضع غير المرضي»، كيف تفكرين أن بإمكانكِ تتعلم الققراءة من هذا؟

قالت إسك: «حسنًا، يحاول المرء حتى يستطيع، أليس كذلك؟ مثل الحلب أو الحياكة أو...».

تلاشى صوتها.

- لا أعرف بهذا الشأن، لكنَّ هذه الكتب قد تكون عدوانية بعض الشيء، إن لم تتتكوني حذرة، فسيبدأون بقراءتك.

- ماذا تقصد؟

- إنهم يييييي...

قالت إسك تلقائيًّا: «يقولون».

- إن كان هناك مرة سسسسسـ...

- ساحر.

- بدأ ققراءة كتاب نيكروتيلكومنيكون وسمح لعقله بأن يييييـ...

- يتجول.

- وفي الصباح التالي، وجدوا ملابسه كاملة على مقعده ووقبعته فوققها والككتاب قد..

وضعتْ إسك إصبعيها في أذنيها لكنْ ليس بقوة بالغة حال فوتت أي شيء.

- لا أريد معرفة ذلك إن كان مفزعًا.

- زاد الكثير من الصفحات.

أخرجتْ إسك إصبعيها من أذنيها: «هل كان هناك أي شيء على الصفحات؟».

أومأ سايمون برأسه بجدية وقال: «نعم، ففي كل صصفحة منهم كان هههناك كككككك...».

قالت إسك: «لا، أنا لا أريد تخيل ذلك حتى، اعتقدتُ أن القراءة أمر أكثر سلمية من ذاك، أعني، لقد قرأت جراني روزنامتها كل يوم ولم يحدث لها شيء قطُّ».

- أجرؤ على قول أن هذا ينطبق على العادي المروض من الككككك.

- كلمات.

أقر سايمون بسماحة صدر: «...بالضبط».

قالت إسك: «هل أنتَ متأكد تمامًا من ذلك؟».

أعاد سايمون الكتاب إلى رفه حيث هز الكتاب سلاسله في وجهه، وقال: «الأمر كله أن للكلمات قوة، وهم يقولون أن للقلم قوة تفوق قوة السسســ...».

قالت إسك: «السيف، حسنًا لكن بأيهما تفضل الضرب؟».

قال الساحر الشاب: «أعتقد أن لا فائدة ترجى ممن إإخبارك أنه من غير الجدير بك الوجود هنا؟».

أعطتْ إسك هذا الاعتبار اللازم وقالت: «لا، لا أعتقد ذلك».

- يمكنني أن أرسل في طلب العمتالين، ليحملونك بعيدًا.

- نعم، لكنكَ لن تفعل.

- إنا فقط لا أررررر...

- تريد.

- أن أؤذيك، كما ترين. حقًّا، يمكن لهذا أن يكون خخخخخـــ...

حامت دوارات خافتة فوق رأس إسك، لوهلة رأتهم؛ أشكال رمادية رائعة من المكان البارد. شاهدتهم، في هدوء المكتبة عندما كان ثقل السحر يضعف الكون بشكل خاص، قرروا أن عليهم التصرف.

وارتفع من حولها صوت حفيف الكتب الصامت إلى صوت تصفح سريع للصفحات. تمكنتْ بعض الكتب الأقوى من الخروج من أرففها والتأرجح والضرب بجنون من نهاية أغلالها. سقط جريمويري ضخم من عشه في أعلى رف وسقط مثل دجاجة مذعورة، وتبعثرتْ صفحاته خلفه.

أسقطتْ رياح سحرية وشاحَ رأس إسك واندفع شعرها خلفها، رأتْ سايمون يحاول الوقوف بثبات أمام رف الكتب فيما راحت الكتب تنفجر من حوله.

كان الهواء كثيفًا وله مذاق القصدير، وكأنه شرب حد الثمالة.

صرخت: «إنهم يحاولون الدخول».

التفتَ وجه سايمون المعذب إليها، ضربه خوف مجنون بشدة في مستدق ظهره وطرحه أرضًا على أرضية مرتفعة قبل أن يرتدَّ الخوف عاليًا فوق الرفوف. تملصتْ إسك فيما يمر قطيع من قواميس المعاني على عجلات، وقطرتْ رفًّا خلفها، وأقبلتْ نحوهم على أيديهم وركبهم.

صرختْ في أذنه: «هذا ما يجعل الكتب مخيفة للغاية، ألا يمكنكَ رؤيتهم هناك؟».

هزَّ سايمون رأسه، فجَّر كتاب غلافه فيهما فأمطرهما بالصفحات.

يمكن للرعب سرقة العقل من كل الحواس، هناك صوت ضحكة مكتومة ذات مغزى في الحجرة المظلمة المغلقة، رؤية نصف دودة في شوكة السلطة خاصتك، الرائحة الغريبة في حجرة نوم المستأجر، الطعم الرخوي في القرنبيط بالجبن. واللمس لا يحصل على فرصته عادة.

لكنْ حدث شيء ما للأرض تحت يد إسك، نظرت إلى الأسفل، ووجهها يكسوه الرعب، لأن ألواح الأرضية المغبرَّة أصبحتْ رمليةً فجأةً وجافةً وباردةً جدًّا جدًّا.

كان هناك رمل فضي ناعم بين أصابعها.

- أمسكتْ بالعصا وهي تحمي عينيها من الرياح ولوَّحت بها للأجسام الشاهقة فوقها. كان من اللطيف الإبلاغ عن وميض حارق من نار بيضاء صافية طهر الهواء المدهن. لكنه أخفق في تحقيق...

الْتَوَتِ العصا كثعبان في يدها، وأمسك سايمون بشق في جانب رأسه.

تذبذبتْ الأشياء الرمادية واختفتْ.

عاد الواقع، وحاول التظاهر بأنه لم يغادر. استقرَّ الصمت مثل المخمل السميك، موجة فوق موجة. صمت ثقيل التردد. سقطتْ بعض الكتب في الهواء بشدة، وشعرتْ بالسخافة.

كانتِ الأرضية تحت أقدام إسك خشبية بلا شك. وقد ركلتها إسك بقوة لتتأكد.

كان هناك دم على الأرض، وسايمون ممدد بهدوء شديد في منتصفها، حدقتْ إسك إليه، ثم في الهواء الساكن بالأعلى ثم إلى العصا التي بدت متعجرفة.

كانت إسك واعيةً بالأصوات البعيدة والأقدام المتسارعة.

انزلقتْ يد مثل قفاز جلدي ناعم برقَّة داخل يدها، وقال صوت خلفها بهدوء شديد: «حسنًا».

استدارتْ ووجدتْ نفسها تحدق إلى أسفل إلى الإطار الداخلي الرقيق لوجه أمين المكتبة، وضع يده على شفتيه في إيماءة لا لبس فيها وشد يدها برفق.

همست: «لقد قتلتُه!».

هزَّ أمين المكتبة رأسَه، وسحبها بإلحاح وقال: «حسنًا».

وكي يوضح قال: «حححسننًا!».

سحبها كرهًا إلى ممر جانبي في متاهة الأرفف القديمة قبل وصول فريق السحرة الكبار بثوانٍ، الذين جلبتهم الضوضاء ليحيطوا بالزاوية.

- لقد كانتِ الكتب تتشاجر مرة أخرى...

- أوه، لا، لقد استغرق الأمر دهرًا لالتقاط كل التعاويذ ثانية، فكما تعلم قد فرُّوا ووجدوا مكانًا للاختباء... من هذا الذي على الأرض؟

كانت هناك وقفة.

- إنه فاقد الوعي، وقع عليه رف كما يبدو من مظهره.

- من هو؟

- هذا الفتى الجديد، أنت تعرفه الفتى الذي يقولون عنه إن له رأسًا مليئًا بالعقول؟

- لو كان هذا الرف أقرب قليلًا، لكنَّا عرفنا أكانوا محقين.

- أنتما الاثنان، اصحباه إلى المشفى، ومن الأفضل أن يجمع بقيتكم هذه الكتب. أين أمين المكتبة اللعين؟ عليه أن يفعل أكثر من ترك الكتلة الحرجة تتراكم.

نظرت إسك جانبًا إلى إنسان الغاب، الذي رقَّص حاجبيه لها. وسحب مجلدًا مغبرًّا من تعويذات البستنة من الأرفف المجاورة. وأخرج موزة بُنيةً ناعمةً من التجويف خلفه، وأكلها بتلذذ تام لشخص يعرف أن مهما كان حجم المشكلة، فهي تخص البشر قطعًا.

- نظرت إلى الاتجاه الآخر إلى العصا، وقد رقَّت شفتاها، كانت تعرف أن قبضتها لم تنزلق، بل اندفعتِ العصا نحو سايمون بنية قتله من صميم قلبها.

*

استلقى الفتى على فراش قاسٍ في غرفة ضيقة ومنشفة باردة مطوية على جبهته، شاهده تريتل وكوتانجل بعناية.

قالت كوتانجل: «كم لبث هكذا؟».

قال تريتل: «منذ ثلاثة أيام».

- ولم يتحسن قطُّ؟

- لا.

هبط كوتانجل بتثاقل على حافة السرير، وضغط قصبةَ أنفه بضجر، لم يبدُ سايمون صحيحًا جسديًّا قطُّ في ما مضى، لكنِ الآن كانت على وجهه نظرة غريق مفزعة.

- عقل ذكي ذلك الفتى، شرحه للمبادئ الأساسية للسحر والجوهر مذهل للغاية.

أومأ تريتل برأسه.

قال كوتانجل: «الطريقة التي يمتص بها المعرفة، لقد عملتُ ساحرًا طيلة حياتي، وبطريقة ما، لم أفهمِ السحر قطُّ إلا عندما شرحه لي. بشكل واضح جدًّا وجليٍّ للغاية».

قال تريتل بحزن: «الجميع يقولون ذلك، إن الأمر أشبه بتجريد الخداع من مظهره ورؤية ضوء الشمس أول مرة».

- هذا هو الأمر بالضبط، إنه مصدر للمعرفة واثق بما يكفي. لقد كنت محقًّا بإحضاره إلى هنا.

كانت هناك وقفة مدروسة.

قال تريتل: «إلا أن...».

سأل كوتانجل: «إلا أن ماذا؟».

- إلا أن ما فهمته؟ أعني أن هذا ما أزعجني، أيمكنكَ تفسيره؟

بدا كوتانجل قلقًا وقال: «ماذا تقصد؟ فسِّر».

قال تريتل وفي صوته لمحة إحباط: «ما يظل يتحدث عنه، حسنًا، العصا الحقيقية، لكنْ ما هي بالضبط؟».

نظر إليه كوتانجل فاغرًا فاه، وأخيرًا قال: «حسنًا، هذا سهل. السحر يملأ الكون، وكما ترى ففي كل مرة يتغير الكون. أعني أن في كل مرة استُدعِي السحر، تغير الكون في كل اتجاه مرة واحدة كما ترى...».

حرَّك يديه بارتياب، محاولًا إدراك شرارة فهم على وجه تريتل، وأكمل: «ويوضع في اتجاه آخر، أي جزء من المادة، مثل البرتقالة أو العالم أو، أو...».

اقترح تريتل: «التمساح؟».

- نعم تمساح أو أيًّا ما كان، فهو يتشكل أساسًا كالجزرة.

قال تريتل: «لا أتذكر هذا الجزء».

قال كوتانجل وقد بدأ بالتعرق: «أنا واثق من أن هذا ما قاله».

أصرَّ تريتل قائلًا: «لا، أنا أتذكر الجزء الذي بدا أنه يشير فيه إلى أن المرء لو ذهب بعيدًا بما يكفي في أي اتجاه فسيرى مؤخرة رأسه».

- أأنت واثق من أنه لم يكن يقصد رأس شخص آخر.

فكر تريتل في الأمر لوهلة: «لا، أنا على يقين تام من أنه قال مؤخرة رأس الشخص نفسه، وقال إن بإمكانه إثبات ذلك».

فكَّرا في ذلك في صمت.

وأخيرًا، تحدث كوتانجل ببطء وحرص شديدين وقال: «أنا أنظر إليه هكذا، قبل أن أسمعه يتكلم، كنتُ مثل أي شخص آخر. أتعرف ما أقصده؟ كنت مشوشًا ومتشككًا حول تفاصيل الحياة كافة. لكنِ الآن».

ثم تهلل وجهه وأكمل قائلًا: «بينما ما زلتُ مشوشًا ومتشككًا لكن على نطاق أعلى بكثير، أتفهم، وأخيرًا عرفتُ أنني متحير بشأن الحقائق الأساسية والهامة حقًّا للكون».

أومأ تريتل برأسه : «لم أنظر إلى الأمر على هذا النحو، لكنه محق بالتأكيد. لقد أزاح حدودَ الجهل إلى الخلف فعلًا، هناك الكثير جدًّا مما لا نعرفه عن الكون».

لقد ذاق كلاهما الوهجَ الدافئَ الغريبَ لكونهما أجهل بكثير من الناس العاديين، ممن يجهلون الأمور العادية.

ثم قال تريتل: «أتمنى أن يكون بخير فحسب، لقد تجاوز الحمى لكن يبدو أنه لا يريد أن يستقيظ فحسب».

جاءت خادمتان بسلطانية ماء ومناشفَ نظيفة. وكانت إحداهما تحمل عصا مكنسة في حالة مزرية. وعندما بدأتْ في تغيير الملاءات

المبللة بالعرق تحت الفتى، غادر الساحران وهما لا يزالان يناقشان الصور الذهنية الشاسعة لجهلهما الذي كشفه العبقري سايمون للعالم.

انتظرتْ جراني حتى ابتعدتْ أصوات آثار أقدامهما وخلعتْ غطاء شعرها.

قالت: «تبًّا، يا إسك اذهبي وأنصتي عند الباب».

أزالت المنشفة من على رأس سايمون وتحسستْ حرارته.

- من اللطيف جدًّا منكِ أن تأتي، وأنت شديدة الانشغال بعملك وكل تلك الأمور.

زمت جراني شفتيها وقالت: «امممممف».

ورفعت جفني سايمون إلى أعلى وجسَّت نبضه، وضعتْ أذنها على قفصه الصدري واستمعتْ لقلبه. جلست بلا حَراك بعضَ الوقت، تُقلِّب الأمر داخل دماغها. وقطبت جبينها.

قالت إسك بقلق: «أهو بخير؟».

نظرت جراني إلى الجدران الحجرية: «سحقًا لهذا المكان، لا مكان للمرضى».

- نعم، لكن أهو بخير؟

ذُهِلَتِ الجدة من أفكارها وقالت: «ماذا؟ نعم، من المحتمل أينما كان».

حدَّقت إسك إليها ثم إلى جسد سايمون.

قالت جراني ببساطة: «لا أحد بالمنزل».

- ماذا تقصدين؟

- انظر إلى الطفلة، ليظن المرء أني لم أعلمها أي شيء، أعني أن عقلها شارد، لقد فرَّ من رأسها.

نظرت إلى جسد سايمون بشيء على حدود الإعجاب: «مفاجأة كبيرة حقًّا، لم ألتقِ ساحرًا يمكنني استعارته».

والتفَّت إلى إسك التي استدار فمها راسمًا دائرة فارغة وقالت: «أتذكر عندما كنتُ فتاة، ذهبتِ العجوز ناني أنابيل للتجول وقد اشتبكتْ بشدة مع كونها أنثى ثعلب على ما أذكر، واستغرق منا الأمر أيامًا للعثور عليها. كما كان هناك أنتِ كذلك، لم أكنْ لأعثر عليك مطلقًا لولا وجود تلك العصا، ماذا فعلتِ بها يا بنت؟».

تمتمت إسك: «لقد ضربتْه، حاولت قتْله، رميتُها في النهر».

- ليس أمرًا لطيفًا تفعلينه معها بعدما أنقذتْ حياتك.

- أنقذتني بضرْبه؟

- ألم تدركي؟ إنه كان يستدعي تلك الأشياء.

- هذا ليس صحيحًا.

حدقت جراني إلى عيني إسك الجريئتين، وقفزت الفكرة بذهنها: لقد فقدتها، لقد كان كل ذلك العمل أسفل المرحاض. قد لا تتمكن من أن تكون ساحرًا، لكنها مشعوذة ربما.

- لماذا ليس صحيح يا ألمعية؟

قالت إسك وهي على وشك البكاء: «لم يكنْ ليفعل شيئًا كهذا! لقد سمعتُه يتحدث.. حسنًا، هو ليس شريرًا، إنه يفهم كيف تجري كل الأمور تقريبًا، إنه...».

قالت جراني بحزن: «أتوقع أنه ولد صالح، لم أقلْ قطُّ إنه ساحر سحر أسود، أقلت ذلك؟».

بكت إسك: «إنها أشياء مروِّعة، لم يكن يستدعيها، إنه يرغب في كل ما يخالفها وأنتِ عجوز شريرة...».

رنَّت اللطمة كالجرس، ترنحت إسك إلى الخلف وبقيت يد جراني مرفوعة ترتجف.

لقد ضربتْ إسك مرةً من قبل، تلك الضربة التي يتلقاها الطفل لتعرُّف العالم وتعطيه فكرة قاسية لما يمكن توقعه عن العالم كذلك، لكنها كانت الأخيرة. فبعد الحياة اثني عشر شهرًا تحت سقف واحد، كانت هناك أسباب كافية لذلك، عندما تُرِكَ الحليب يغلي أو تُرِكَتِ الماعز دون ماء بلامبالاة، فيما كان لكلمة قاسية أو صمت حاد قوة أكبر، ثم إنهما لا يتركان أي كدمات...

أمسكت إسك من كتفيها بقوة ونظرت إلى عينيها وقالت مسرعة: «أنصتي لي، ألم أقل لكِ إنك إن كنتِ ستعملين بالسحر فعليكِ أن تسيري في العالم كالسكين في الماء؟ ألم أقل لكِ ذلك؟».

هزت إسك رأسها مثل أرنب محاصر.

- وأنت ظننتِ أنها جراني العجوز فحسب، أليس كذلك؟ لكنَّ الحقيقة هي أنكِ إن استعنتِ بالسحر فأنت تجلبين الانتباه لنفسك. منهم، إنهم يراقبون العالم طول الوقت، العقول العادية مبهمة بالنسبة إليهم. نادرًا ما يعبثون بهم، لكنَّ عقلًا فيه سحر، يلمع كما رأيتِ إنهم كالمنارة بالنسبة إليهم. ليس الظلام هو ما يستدعيهم بل النور، النور هو الذي يخلق الظلال!

- لكنْ، لكنْ، لماذا هم مهتمون؟ ماذا يريدون؟

- الحياة والهيئة.

وأطلقتْ سراح إسك: «إنهم مثيرون للشفقة حقًّا، لا يملكون حياةً ولا هيئة خاصة بهم، لكنْ يمكنهم سرقتهما. لا يمكنهم البقاء في هذا العالم إلا كما يمكن للسمكة أن تحيا في النار. ولكنَّ ذلك لا يمنعهم من المحاولة، وهم أذكياء بما يكفي ليكرهونا لأننا أحياء».

ارتجفت إسك وتذكرت الملمس الرملي للرمل البارد.

- ما كينونتهم؟ لطالما اعتقدتُ أنهم نوع من... نوع من العفاريت؟

- لا، لا أحد يعرف حقًّا، إنهم ليسوا سوى أشياء من الأبعاد الحصينة خارج الكون، هذا كل شيء، مخلوقات ظلية.

تحول نظرها إلى جسد سايمون المنبطح.

- قالت وهي تنظر إلى إسك بدهاء: «ليست لديك أدنى فكرة عن مكان وجوده، أليس كذلك؟ لم يسافر مع النوارس، ألم يفعل؟».

هزت إسك رأسها.

- قالت جراني: «لا، لا أعتقد ذلك. لقد استحوذوا عليه، ألم يفعلوا؟».

لم يكنْ هذا سؤالًا إلا أن إسك أطرقتْ برأسها وعلى وجهها قناع من البؤس.

قالت جراني: «هذا ليس خطأكِ، لقد منحهم عقله فرصةً وعندما طُرِدُوا أخذوه معهم. إلا أن...

نقرتْ بأصابعها حافةَ السرير وقد بدا أنها توصَّلت إلى قرار.

سألت: «من أهم ساحر موجود بالجوار؟».

قالت إسك: «مم، إنه السيد كوتانجل، إنه كبير المستشارين، لقد كان أحد الاثنين اللذين كانا هنا، البدين أو ذلك الذي يشبه بقعة الخل».

أزاحت إسك من عقلها صورة سايمون وهو في الصحراء القارسة، ووجدتْ نفسها تقول: «إنه ساحر من المستوى الثامن، ساحر من الدرجة الـ 33 تحديدًا».

- أتقصدين أنه ذو موهبة؟ جعلكِ كل هذا التسكع حول السحرة تأخذينهم على محمل الجد يا فتاتي. كلهم يُسمُّون أنفسهم بأسماء على شاكلة السيد الأعلى والإمبراطور، وكل هذا جزء من

لعبة. حتى السحرة يفعلون ذلك، كان المرء ليعتقد أنهم يصبحون أكثر منطقية في النهاية، لكنْ لا، يتجولون قائلين إنهم بونكو ودورويس المدهشون، على أي حال، أين هو ذلك السيد بارم ذيله الأعلى؟

- سيكون في القاعة الكبرى يتناول العشاء، أيمكنه استعادة سايمون إذن؟

- هذا هو الجزء الأصعب، يمكنني القول إن بوسعنا جميعًا استعادة شيء ما بسهولة كافية كأن يمشي ويتحدث مثل أي شخص آخر، أما إذا كان هذا الشخص هو سايمون، فهذا أمر آخر تمامًا.

وقفت وقالت: «لنعثر على القاعة الكبرى إذن، لا وقت لنضيعه».

- امم، لا يسمح بدخول النساء إليها.

توقفتْ جراني في المدخل، ارتفعت كتفاها واستدارت ببطء شديد.

- ماذا قلتِ؟ أخدعتني تلكما الأذنان العجوزتان، ولا تقولي إنهما فعلتا لأنهما لم يفعلا.

- عفوًا، بحكم العادة.

قالت جراني ببرود: «أرى أنكِ تلقيتِ أفكارًا دون قدركِ. اذهبي وائْتي بشخص يمكنه مراقبة الفتى، ودعينا نرى ما العظيم جدًّا بتلك القاعة بحيث يجب ألا تطأها قدمي».

وهكذا بينما كان أعضاء هيئة تدريس الجامعة الخفية بأكملها يتناولون العشاء في القاعة الموقرة، رُكِلَتِ الأبواب بتأثير دراماتيكي مدلل نوعًا ما عندما رد أحدهم طبقًا أصاب جراني بصدع في قصبة ساقها. وبدلًا من الخطوات الجريئة التي انتوتْ أن تقتحم بها الأرضية

المربعة، أُجبِرتْ على القفز تارةً والعرج أخرى. لكنها أملت أن تقفز بكبرياء.

سارعت إسك وراءها، واعيةً لمئات الأعين التي تستدير نحوهما.

تلاشى هدير المحادثات وقعقعة أدوات المائدة، وسقط كرسيان. في آخر القاعة، تمكنتْ من رؤية السحر مقامًا على مائدتهم العالية، التي تتجاوز الأرض بعدة أقدام، وقد كانوا يحدقون.

هُرِعَ ساحر متوسط الرتبة -عرفته إسك بأنه محاضر مادة علم التنجيم التطبيقي- نحوهما وهو يلوح بكلتا يديه وصاح قائلًا: «لالالالا، إنه الباب الخاطئ، لا بدَّ أن تذهبا من هنا».

قالت جراني ببرود وهي تتخطاه: «لا تأبهْ بي».

- لا لا لا لا، هذا ضد العرف، لا بدَّ أن تخرجا حالًا. لا يسمح بوجود النساء هنا!

قالت جراني: «أنا لست امرأة، أنا مشعوذة».

والتفَّت إلى إسك قائلة: «أهو شخص مهم للغاية؟».

قالت إسك: «لا أعتقد ذلك».

التفتت جراني إلى المحاضر قائلة: «حسنًا، اذهب وائتِ بساحر مهم، بسرعة رجاءً».

ربَّتت إسك ظهرها، فيما خرج ساحران أذكى بهدوء من الباب خلفهما، والآن تقدم عدد من العتَّالين بشكل مهدِّد إلى الصالة وسط هتاف الطلاب وصيحاتهم. لم تحب إسك العتَّالين كثيرًا قطُّ، لقد عاشوا حياة خاصة في نزلهم، لكنها الآن شعرت بوخز مفاجئ من التعاطف تجاههم.

مدَّ اثنان أيديهما المشعرة وأمسكا بكتفي جراني، اختفى ذراعها خلف ظهرها، وكان ثمة اضطراب خاطف بالحركة انتهى بقفز الرجال مبتعدين، ممسكين بأجزاء من أجسادهم وهم يسبون.

قالت جراني: «سكين».

وسحبتْ إسك بيدها الخالية وتوجهت إلى المنضدة المرتفعة محملقة إلى أي شخص قد يبدو كأنه قد يعوق طريقها. الطلاب الأصغر سنًّا الذين يعرفون المرح حيث يرونه، هللوا وصاحوا وقرعوا أطباقهم على المنضدة الطويلة. استقرتِ المائدة المرتفعة على البلاط، مع صوت ارتطام واصطفَّ كبار السحرة مسرعين خلف كوتانجل وهو يحاول استحضار مخزون كرامته. لم تنجحْ جهوده حقًّا؛ فمن الصعب جدًّا أن يبدو أحدهم مبجلًا بمنديل مدسوس داخل ياقته.

رفع يديه للصمت، وانتظرتِ القاعة بترقب عندما اقتربت منه جراني وإسك. كانت جراني تتطلع باهتمام إلى اللوحات والتماثيل العتيقة للسحرة القدامى.

قالت جراني من زاوية فمها: «من هؤلاء التافهون؟».

همست إسك: «لقد كانوا زعماء السحرة».

قالت جراني: «يبدون مصابين بالإمساك. لم ألتقِ ساحرًا عاديًّا قطُّ».

قالت إسك: «لقد كانوا مصدر إزعاج للغبار وهذا كل ما أعرفه».

وقف كوتانجل وساقاه متباعدتين وراسختين في الأرض وقد أضفى عليه وضع ذراعيه على خصره ومعدته انطباعًا كأنه منحدر تزلج للمبتدئين، فيما اتخذ باقي جسده وضعًا شبيهًا بهنري الثامن عادةً، لكن مع حق الخِيار بالتشبُّه بهنري التاسع أو العاشر.

قال: «حسنًا؟ ما مغزى هذه الإهانة؟».

قالت جراني إلى إسك: «أهو شخص مهم؟».

- أنا يا سيدتي كبير المستشارين! ومدير هذه الجامعة! وأنت يا سيدتي تتعدين على ممتلكات الغير في مِنْطَقة بالغة الخطورة حقًّا! أحذرك من... توقفي عن النظر إليَّ هكذا!

ترنح كوتانجل إلى الوراء، ويداه مرفوعتين لدرء تحديقَ جراني، تبعثر السحرة من خلفه عائدين إلى مناضدهم في عجلة؛ لتفادي تحديقَ جراني، وقد تغيرت عيناها.

لم ترهم إسك بمثل هذا الشكل من قبل، كانوا فِضيين بامتياز مثل مرايا صغيرة مستديرة تعكس كل ما تراه. كان كوتانجل نقطةً صغيرةً متلاشيةً في أعماقهم، وفمه فاغرًا وذراعاه اللتان تشبهان عودي ثقاب تلوحان في يأس.

تراجع كبير المستشارين محتميًا بعمود، وقد جعلته الصدمة يتحسن. هزَّ رأسه بانفعال وضمَّ يده وأرسل دفقًا من النار البيضاء نحو المشعوذة.

رفعتْ جراني يدها دون أن تسقط تحديقها قزحي الألوان، وحرَّفت اللهب تجاه السقف. كان ثمة انفجار ووابل من شظايا القرميد.

اتسعت عيناها.

اختفى كوتانجل، ووقفتْ حيث كانت تظهر أفعى ضخمة ملفوفة على وشك الهجوم.

اختفتْ جراني، وحيثما كانت تقف كانت ثمة سلة خوص كبيرة.

أصبح الثعبان زاحفًا عملاقًا من ضباب الزمن.

أصبحتِ السلة هي الريح الثلجية لعمالقة الجليد، إذ غطت الوحش المكافح بالثلج.

أصبح الزاحف نمرًا بأسنان قاطعة كالسيف، جاثمًا حتى الربيع.

تحولتِ العاصفة إلى حفرة قطران فقاعية.

تمكن النمر من أن يصبح نسرًا أحدبَ.

أصبحت حفرة القار قلنسوةً عنقوديةً.

بدأتِ الصور بالوميض، إذ استبدل شكلًا بشكل.

رقصتْ ظلال الوميض حول القاعة، هبَّت رياح سحرية كثيفة ودهنية، واندلعت شرارات أوكتارين من اللحى والأصابع. وفي خضم كل هذا، أمكن لإسك التي تحدق خلال الأعين الراشحة، تحديد شكليْ جراني وكوتانجل وهما تماثيل لامعة بين الصور المتدفقة.

كما كانت تدرك شيئًا آخر، صوتًا عالي التردد لا يكاد يسمع.

لقد سمعتْه من قبل، في الصقيع القارس. ضجيج يئز، ضجيج قفير نحل، ضجيج عش نمل...

صرخت بصوت أعلى من الضجيج: «إنهم قادمون، إنهم قادمون الآن!».

خرجتْ من خلف المنضدة التي اتخذتها ملجأً من المبارزة السحرية وحاولت الوصول إلى جراني، رفعتْها عاصفة من السحر الخام عن الأرض ورمتْ بها على مقعد.

كان الأزيز أعلى الآن، حتى إن الهواء زمجر مثل جيفة في أسبوعها الثالث في أيام الصيف. حاولت إسك ثانية الوصول إلى جراني ورجعت عندما اندلعت نيران خضراء على طول ذراعها وطالت شعرها.

نظرت حولها بوحشية إلى السحرة الآخرين، لكنَّ أولئك الذين فروا من تأثير السحر كانوا منكمشين خلف الأثاث المقلوب فيما تستعر العاصفة السحرية فوق رؤوسهم.

ركضتْ إسك خلال القاعة وخرجتْ إلى الممر المظلم، تلوَّت الظلال حولها كلما أسرعتْ وهي تنتحب صاعدةً الدرج وعلى طول الممرات الصاخبة المؤدية إلى حجرة سايمون الضيقة.

لقد قالتْ جراني بأن شيئًا ما سيحاول دخول الجسد، شيئًا يمشي ويتحدث مثل سايمون لكنه شيء آخر...

كانت هناك مجموعة من الطلاب تحوم بقلق خارج الباب. ولووا وجوههم الشاحبة نحو إسك وهي تندفع تجاههم، وكانوا مهزوزين بما يكفي للتراجع باضطراب في وجه تقدمها الحازم.

قال أحدهم: «هناك شيء بالداخل».

- لا يمكننا فتح الباب!

نظروا إليها بترقب وقال أحدهم: «ألم تحصلي على مفتاح مرور بأي طريقة؟».

أمسكت إسك بمقبض الباب ولفَّته، تحرك بشكل طفيف لكنه استدار راجعًا بقوة كادت تزيل الجلد عن يدها. ارتفع صوت صيحات بالداخل إلى أقصى حد، كما كان هناك صوت ضوضاء أخرى كذلك؛ كرفرفة الجلد.

صرخت: «أنتم سحرة! مدربون تدريبًا جيدًا، اللعنة!».

قال أحدهم: «لم نجرِ التحريك الذهني بعد».

- كنتُ مريضًا عندما رمينا النيران...

توجهت إسك إلى الباب، ثم توقف بقدم واحدة على الهواء، تذكرتْ كلام جراني عن أن حتى المباني لديها عقول إذا كانت قديمة بما يكفي، والجامعة بالغة القدم.

تقدمتْ بحذر إلى أحد الجوانب، ومررتْ يدها على الحجارة القديمة، كان عليها فعل ذلك بعناية؛ كي لا تخيف الحجارة والآن بات بوسعها الإحساس بعقل الحجارة بطيئًا وبسيطًا، لكنه عقل كذلك. ينبض من حولها وشعرت بالشرارات الصغيرة في عمق الصخور.

شاهد ثلاثة طلاب إسك في دهشة وهي تقف كصخرة جامدة ويداها وجبينها مضغوطين على الحائط.

كانت هناك تقريبًا، بإمكانها الشعور بثقل نفسها وثقل جسدها، والذكريات البعيدة لفجر الزمن عندما كانت الصخور منصهرة وحرة. ولأول مرة في حياتها تعرف شعور أن تمتلك شرفات.

تحركت بلطف خلال عقل البناء، تصقل انطباعاتها وتبحث بما واتاها من جراءة عن هذا الممر وذاك الباب.

مدتْ إحدى ذراعيها بحذر بالغ، وراقب الطلاب بينما تفتح إصبعها ببطء شديد.

بدأت مفصلات الباب بالصرير.

كانت هناك لحظة توتر ثم قفزتِ المسامير من المفصلات وتناثرت في الحائط خلفها. بدأت الألواح الخشبية في الانحناء فيما كان الباب لا يزال يحاول فتح نفسه بقوة في مواجهة قوة، أيًّا كان ما يغلقه.

انتفخ الخشب.

انطلقتْ أشعة من الضوء الأزرق إلى الممر، تتحرك وتتراقص فيما تقلبت الأشكال الغامضة في الألق الباهر داخل الحجرة. كان الضوء ضبابيًّا ومثل ذاك الذي يستخدم في التمثيل ذلك النوع الذي جعل ستيفن سبيلبيرغ يصل إلى محاميه لحقوق الملكية الفكرية.

قفز شعر إسك من رأسها حتى بدتْ مثل الهندباء المتنقلة. طقطقت ثعابين نارية صغيرة من السحر خلال جلدها وهي تتقدم المدخل.

شاهد الطلاب بالخارج بفزع اختفاءها في الضوء.

لقد اختفتْ في انفجار صامت.

وأخيرًا واتتهم الشجاعة الكافية للنظر داخل الحجرة، لم يروْا سوى جسد سايمون النائم. وإسك صامتة وباردة على الأرض وتتنفس ببطء شديد. وقد كانت الأرض مغطاة بطبقة رقيقة من الرمال الفضية.

طافت إسك خلال ضباب العالم، تلاحظ بشعور فضولي لا شخصي الطريقة الدقيقة التي مرتْ بها خلال المادة الصلبة.

كان هناك آخرون معها، وكان بإمكانها سماع ضجيجهم.

ارتفع الغضب مثل الإعصار، استدارتْ وانطلقتْ خلال الضجيج، محاربة القوى المغوية التي استمرتْ في إخبارها كم من اللطيف أن ترخي قبضتها على عقلها وتغرق في بحر دافئ من العدم. أن يكون المرء غاضبًا، هذا هو الشيء، كانت تعرف أن من المهم جدًّا أن تبقى غاضبة.

ابتعد عالم القرص ورقد أسفلها كما فعل يومَ أن كانت نسرًا، لكنْ هذه المرة كان البحر الدائري خلفها -كان دائريًا بلا ريب، كما لو كانت الأفكار قد نفدت من الآلهة- وخلفه وضعتْ أذرعَ القارة وسلسلةً طويلة من رامتوبس تسير على طول الطريق حتى المركز. كما كانت هناك قارات أخرى لم تسمعْ بها قطُّ. وسلاسل من جزر صغيرة.

وعندما تغير موضع رؤيتها، ظهر اتجاه الحافة في الأفق، كان الوقت ليلًا؛ لما كانت الشميسة التي تدور حول القرص أسفلَ العالم، تضيء الشلال الطويل الذي طوَّق الحافة.

كما تضيء العظيم آتوين غيلم العالم، كثيرًا ما تساءلتْ إسك عن كون الغيلم أسطورة، فقد بدا الأمر صعبًا للغاية لمجرد تحريك العالم. ولكنه كان هناك، بحجم القرص الذي يحمله تقريبًا متجمدًا بغبار النجوم ومثقوب بحفر النيازك.

مرَّ رأسه أمامها، ونظرتْ مباشرة داخل عينه الكبيرة بما يكفي لتطفو عليها جميع أساطيل العالم. لقد سمعتِ القول بأنكَ إن نظرتَ إلى الاتجاه الذي يحدق إليه العظيم آتوين بما يكفي من بعد، فستبصر نهاية الكون. ربما كان ذلك مجرد تحديد من منقاره، لكنَّ العظيم آتوين بدا مفعمًا بالأمل على نحو غامض، بل ومتفائلًا. ربما لم تكن نهاية كل شيء بمثل هذا السوء.

مثل الحلم، مدت يدها لاستعارة العقل الأكبر في الكون.

أوقفتْ نفسها في الوقت المناسب، مثل طفل في لعبة تزحلق؛ يتوقع انزلاقًا لطيفًا وفجأة ينتبه إلى الجبال الشاهقة المغطاة بالثلوج الممتدة في الحقول الجليدية إلى ما لا نهاية. لم يستعرْ أي أحد قطُّ هذا العقل، سيكون ذلك شبيهًا بشرب ماء البحر كله. كانت الأفكار التي مرت بها كبيرة وبطيئة كالكتل الجليدية.

وخلف القرص كانت النجوم، وكان ثمة شيء خاطئ بها. كانوا يدورون مثل رقاقات الثلج. وبين الحين والآخر، كانوا يستقرون ويبدون ثابتين كما لو كانوا كذلك دائمًا، وفجأة تسيطر عليهم فكرة الرقص.

قررت إسك أن النجوم الحقيقية لا تفعل ذلك، ومن ثَمَّ فهي لا تنظر إلى النجوم الحقيقية، ومن ثَمَّ فهي ليست في المكان الصحيح تحديدًا.

فيما ذكَّرتها صرخة قريبة منها أنها قد تموت قطعًا إذا فقدتْ أثر تلك الضوضاء. استدارتْ ولاحقتِ الأصوات خلال العاصفة الثلجية النجمية.

قفزتِ النجوم واستقرتْ وقفزتْ واستقرتْ...

وبينما اندفعتْ إسك عاليًا في طيرانها، حاولتِ التركيز على الأمور اليومية، لأنها لو سمحتْ لعقلها بالتفكير في ما كانت تتبعه بالضبط، فقد عرفتْ أنها ستعود وهي لا تعرف طريق العودة. حاولتْ تذكر ثمانية عشر نوعًا من الأعشاب التي عالجت آلام الأذن، وهو ما أبقاها مشغولة وهلةً لأنها لم تستطعْ تذكر الأربعة الأخيرة.

طار نجم متجاوزًا، وارتعد بعنف على مسافة نحو عشرين مترًا.

عندما نفدتْ منها الأعشاب، بدأتْ في أمراض الماعز التي بدا أنها قد اتخذت وقتًا طويلًا، لأن الماعز يمكنه التقاط الكثير من الأشياء التي يلتقطها البقر إضافة إلى الكثير من الأشياء التي قد تلتقطها الخرفان إضافة إلى مجموعة كاملة من الأمراض التي تصيبها هي بتفرد. عندما انتهتْ من سرد الضرع الخشبي وذوي الأذن وقهقهة الأوكتارين، حاولتْ تذكر الرمز المعقد من النقاط والخطوط الذي استخدموه للحفر على الأشجار حول باد آس حتى يتمكن القرويون التائهون من إيجاد طريقهم إلى المنزل في الليالي الثلجية.

كانت بعيدة مثل نقطة نقطة نقطة شرطة نقطة شرطة (بالتبادل على بعد ميل من القرية) عندما تلاشى الكون من حولها، مع صوت فرقعة خافتة. سقطتْ إلى الأمام، ارتطمت بشيء قاسٍ ورملي وتوقفت.

كان ثمة رمل بارد وناعم وجاف، يمكنكَ معرفة أنكَ لو حفرتَ فيه لعدة أقدام، سيظل بذات البرودة والجفاف.

استلقتْ إسك ووجهها مدسوس فيه لحظةً، تستحضر الشجاعة للنظر إلى أعلى. كان بإمكانها فقط أن ترى على بعد أقدام منها، طرف

ثوب أحدهم، بل ثوب شيء ما، صححتْ لنفسها قد يكون جناحًا وجناحًا جلديًّا على وجه الخصوص.

تبعتها عيناها حتى وجدتْ وجهًا أعلى من منزل، واضحًا في السماء المرصعة بالنجوم. حاول مالكه بلا شك أن يبدو رهيبًا لكنه بذل جهدًا بالغًا. كان المظهر الأساسي لدجاجة ميتة منذ شهرين تقريبًا، لكنَّ التأثير الكريه قد أفسدته أنياب خنزير بري وقرون استشعار وآذان ذئب وشوكة أحادي القرن. كان للشيء كله مظهر ذاتي التجميع، وكأن صاحبه سمع بعلم التشريح، لكنه لم يستطع استيعاب الفكرة تمامًا.

كان يحدق إلى شيء ما، لكنْ ليس في وجهها، بل شيء خلفها هو ما شغل كل انتباهه، أدارت إسك رأسها ببطء بالغ.

كان سايمون يجلس القرفصاء وسط دائرة من هذه الأشياء، كان هناك المئات منهم، وما زالوا ثابتين وصامتين مثل التماثيل، يراقبونه بصبر الزواحف.

كان هناك شيء صغير وزاوٍ في يديه المضمومتين، ويصدر منها وميض أزرق غامض جعل وجهه يبدو غريبًا.

- كانت الأشكال الأخرى ملقاة على الأرض جانبه، وكل منها في وهجها الناعم الصغير. كانت نوعًا من الأشكال المنتظمة التي نبذتها جراني بظرف باعتبارها هندسةً مثل المكعبات والمعينات متعددةَ الجوانب والمخاريط وحتى كرة أرضية. كان كل منهم شفافًا وبداخله...

اقتربتْ إسك، لم ينتبهْ لوجودها أحد، داخل كرة بلورية ملقاة جانبًا على رمال طافية فوق كرة زرقاء مخضرة، متقاطعة مع أنماط سحب بيضاء صغيرة، وما بدا مثل قارات صغيرة إن كان أحدهم أحمقَ بما يكفي للحياة داخل كرة، ربما كان جزءًا من شكل باستثناء شيء في

بريقه أخبر إسك أنه حقيقي تمامًا، وربما كبير جدًّا وليس -بكل معنى الكلمة- داخل الكرة تمامًا.

وضعتْها برفقٍ بالغٍ ومشتْ جانبًا إلى مكعب من عشرة جوانب يطفو فيه عالم أكثر تعارفًا، ربما كان على شكل قرص لكنْ بدلًا من انخفاض الحافة كان ثمة حائط من الجليد وبدلًا من المركز كانت ثمة شجرة عملاقة، كبيرة جدًّا لدرجة أن جذورها توحدت في سلاسل جبلية.

كان المنشور الآخر بجانبه يحمل قرصًا آخرَ دوارًا، محاطًا بنجوم صغيرة. لكنْ لم تكن هناك حوائط جليدية حول ذاك القرص، بل مجرد خيط ذهبي أحمر تبيَّن من الفحص الدقيق أنه ثعبان، ثعبان كبير بما يكفي لتطويق العالم ولأسباب معروفة له فقط، كان يلدغ ذيله.

قلَّبتْ إسك المنشور مرارًا وتَكْرارًا بفضول، ملاحظة مدى بقاء القرص الصغير داخله مستقيمًا بحزم.

ضحك سايمون بهدوء، استبدلتْ إسك قرص الثعبان وأنعمت النظر فوق كتفه.

كان يحمل هرمًا زجاجيًّا صغيرًا، كانت فيه نجوم وفي بعض الأحيان، كان يهتزُّ قليلًا بحيث دارت النجوم مثل ثلج في مهب الريح، ثم استقرت عائدةً إلى أماكنها. ثم قهقه.

ووراء النجوم...

كان عالم القرص، ولم يكنِ العظيم آتوين بأكبر من صحن فنجان صغير يكدح تحت عالم يشبه عمل صائغ مُهوَّس.

تهزهز، دُوَّامة. تهزهز، دُوَّامة، تهزهز. كانت هناك فعلًا تصدعات في الزجاج.

نظرت إسك إلى عينيْ سايمون الفارغتين، ثم إلى الوجوه الجائعة إلى الأشياء الأقرب، ثم مدَّت يدها وسحبت الهرم من يده واستدارت وركضت.

لم تتحركِ الأشياء حيث أسرعت إسك تجاههم، وانحنتْ مرتين تقريبًا، وهي تقبض على الهرم بإحكام على صدرها، لكنْ فجأة لم تعد قدماها تركضان على الرمال، بل رُفِعَتا فوق الهواء الفاتر، واستدار شيء له وجه يشبه الأرنب الغارق ببطء نحوها ومدَّ مخلبًا.

- قالت إسك لنفسها إنه ليس سوى حلم؛ ما تسميه جراني تشابهًا، لا يمكنكِ أن تكوني مؤذية حقًّا، بل كل هذا خيال. ما من ضرر يمكن أن يُلحِقه بكِ أبدًا، هذا كله داخل عقلك.

أتساءل أكان يعرف ذلك؟

أخرجها المخلب من الهواء وانقسم وجه الأرنب كقشرة موزة، لم يكن هناك فم، بل حفرة مظلمة، كما لو كان الشيء نفسه منفحتًا على بعد أسوأ، مكان سيكون الرمل المتجمد وضوء القمر غير المُقمِر مثل ظهيرة ممتعة على شاطئ بحر مقارنة به.

حملت إسك هرمَ القرص وضربتْ بيدها الخالية المخلبَ المحيطَ بها. لم يكنْ لها أي تأثير، نسجَ الظلام خيوطه حولها، بوابة إلى النسيان التام.

ضربتْه بأقسى ما تستطيع.

والذي لم يكنْ قاسيًا للغاية بحكم الظروف، لكنْ حيث ضربت قدماها الأرض كان ثمة انفجار من الشرر الأبيض وفرقعة، والتي كان من الممكن أن تكون ضربةً أكثر إرضاءً لو لم يمتصِ الهواء الكثيف هنا الصوت بعيدًا.

صرخ الشيء بصوت مثل التحام المنشار بأعماق شجيرة مطمئنة، ومسمار طويل مختبئ ومنسي. أصدر الآخرون من حوله أزيزًا متعاطفًا.

ركلتْ إسك مجددًا، زعق الشيء وألقى بها على الرمال، كانتْ ذكية بما فيه الكفاية لتتدحرج مع احتضانها الوقائي للعالم الصغير، لأنه حتى في الحلم، قد يكون كسر الكعب مؤلمًا للغاية.

تمايل الشيء بتردُّد فوقها، ضاقت عينا إسك، وضعت العالم بالأسفل بحذر شديد وضربتِ الشيء بقوة بالغةٍ في المِنْطَقة التي يفترض أن تكون فيها ساقه، لو كانت له سيقان تحت ردائه، والتقطتِ العالم مرةً أخرى بحركة رشيقة واحدة.

عوى المخلوق وانثنى مزدوجًا ثم هوى ببطء مثل عَلاقة ملابس، عندما ضرب الأرض انهار إلى كتلة من الأطراف المفككة، تدحرج الرأس بعيدًا وتأرجح إلى طريق مسدود.

فكرتْ إسك قائلةً أهذا كل شيء؟ فحتى المشي يفعلونه بصعوبة! حالما تضربهم يتساقطون!

كانت الأشياء الأقرب تطلق صيحات حادة متتالية وتحاول التراجع، وكانت إسك تسير بعزم نحوهم، لكنْ لأن أجسادهم بدت معقودة معًا تقريبًا بالتفكير الحكيم ولم يكونوا يجيدونه للغاية. اصطدمتْ بواحد له وجه يشبه أسرة صغيرة من الحبار، وقد انكمش إلى كومة من العظام المرتعشة وفتات من فرو ونهايات غريبة من المجسات، مثل وجبة يونانية. كان شيئًا آخرَ أنجحَ قليلًا وبدأ بالمشي متثاقلًا مبتعدًا على غير هدى، قبل أن تمسك إسك بصدع في إحدى قصباته الخمس.

رفرف بيأس عندما قُطِعَ وأسقط اثنين آخرين.

وحينها، تمكن الآخرون من الابتعاد عن طريقها ووقفوا يراقبون من مسافة بعيدة.

اتخذتْ إسك خطوات تجاه أقربهم، حاول الابتعاد وسقط.

ربما كانوا قبيحين، وربما كانوا أشرارًا، لكنْ من وجهة نظر الشعر المسترسل، فالأشياء تتمتع بكامل الجمال والتناسق لمقعد سطح السفينة.

حدقت إسك إليهم، ثم نظرت إلى القرص في هرمه الزجاجي، لا يبدو أن كل هذه الإثارة قد أزعجته قليلًا.

تمكنتْ من الخروج، إن كان هناك خارج فعلًا، وكان من الممكن القول على القرص إنه داخل، لكنْ كيف يفترض بالمرء أن يعود؟

ضحك أحدهم، لقد كانت ضحكة مثل بيتشيرازيتشيكوف، لقد كانت كلمة تصدر عن اختناق لسان المزمار قلَّما تُستخدَم في عالم القرص إلا من بعض اللغويين البارعين مرتفعي الأجور، وطبعًا قبيلة الكوتريني الصغيرة التي اخترعت الكلمة. ليس لها مرادف مباشر، رغم أن كلمة كومهوليا «سكورينت» (تعني الشعور بأن المستخدم السابق للمرحاض قد استخدم كل ورق التواليت) تبدأ بالاقتراب من المعنى في عمق الشعور العام. وأقرب ترجمة لها كما يلي:

الصوت الصغير البغيض لسيف غير مستلٍّ بشكل صحيح خلف واحد، عندما ظنَّ ذلك الواحد أنه قد تخلص من كل أعدائه، رغم أن متحدثي الأوكتاريني يقولون إن ذلك لا ينقل إحساس المعنى الأصلي بالعرق البارد الذي يجمد القلب والأمعاء.

كان ذلك النوع من الضحك.

استدارت إسك ببطء، اندفع سايمون نحوها خلال الرمال، ويداه مضمومتين أمامه، وعيناه مغمضتين. وقال: «اعتقدتُ حقًّا أن الأمر سيكون بمثل هذه السهولة؟».

أو قال شيئًا كهذا، لم يكن الصوت يبدو كصوت سايمون، بل كعشرات الأصوات التي تتكلم في الوقت نفسه.

- سايمون؟

قال الشيء الذي احتل هيئة سايمون: «لم يعدْ ذا فائدة لنا، لقد أرانا الطريق، يا فتاة. والآن أعطينا ممتلكاتنا».

تراجعتْ إسك وقالت: «لا أعتقد أنها لكم، أيًّا كان من أنتم».

فتح الوجه الذي يقف أمامها عينيه، لم يكن داخلهما شيء سوى الظلام، لا لونَ لهما، مجرد ثقوب في فراغ آخر.

- يمكننا القول بأننا سنكون رحماء لو أعطيتِه لنا، يمكننا القول بأننا سنتركِكِ تغادرين بهيئتكِ الخاصة. لكنْ لن يكون قول ذلك مُجديًا، أليس كذلك؟

- لن أصدقك.

- حسنًا إذن.

ابتسم الشيء بهيئة سايمون وقال: «أنت تؤجلين أمرًا لا مفرَّ منه فحسب».

- يناسبني ذلك.

- يمكننا أخذه على أي حال.

- خذْه إذن، لكنني لا أظن أنك قادر على ذلك، لا يمكنك أخذ أي شيء ما لم يعطَ لك، أيمكنك؟

حلقوا حولها.

قال هيئة سايمون: «ستعطيه لنا».

كانت بعض الأشياء الأخرى تقترب منها الآن، تتمدَّد باسطة ذراعيها تقطع الصحراء بحركات متشنجة مروعة.

- ستتعبين، يمكننا الانتظار ونحن بارعون فيه.

تظاهر بأنه سيخطو إلى اليسار، لكنَّ إسك تأرجحت لتفاديها.

- هذا لا يهم، أنا أحلم بهذا فحسب، ولا يمكن أن يصاب المرء بأذى في الحلم.

توقف الشيء ونظر إليها بعينيه الفارغتين.

- ألديكِ كلمة في عالمك، أعتقد أنها تسمى «نفساني جسماني»؟

صرخت إسك قائلة: «لم أسمعْ بها قطُّ».

- إنها تعني أن من الممكن أن تصابي بأذى في أحلامك، والأمر الممتع للغاية أنك إن متِّ في الحلم، فستبقين هنا. وسيكون هذا في غاية اللطاااااافة.

نظرت إسك إلى الجبال بعيدًا، التي تتحرك في الأفق البارد مثل فطائر الطين الذائب. لم تكن هناك أشجار ولا حتى صخور، مجرد رمال ونجوم باردة و...

شعرتْ بحركة بدلًا من سماعها، واستدارتْ والهرم محمول بين يديها مثل هراوة، ضربتْ هيئة سايمون ضربةً مرضيةً بقفزة متوسطة، لكنْ حالما ارتطم بالأرض، انقلب إلى الأمام بطريقة ما وقفز قائمًا بسهولة بغيضة. لكنه سمع شهيقها ورأى الألم القصير بعينها. توقف.

- أوه، إن هذا يؤلمكِ، أليس كذلك؟ لا تحبين رؤية شخص آخر يعاني، أليس كذلك؟ ليس هذا الشخص كما يبدو.

استدار وأشار، تمايل شيئان طويلَا القامة نحوه وأمسكاه بقوة من ذراعيه.

تغيرتْ عيناه، تلاشت الظلمة ثم أطلت عينا سايمون من وجهه، حدق إلى الأشياء على جانبيه وقاوم مدةً وجيزةً، لكنَّ أحدهما كانت له عدة أزواج من المخالب لفَّها حول معصمه وأمسك الآخر ذراعيه بأكبر مخلب لسرطان بحر بالعالم.

ثم رأى إسك، ثم وقعتْ عيناه على الهرم الزجاجي الصغير.

همس: «اهربي! خذيه من هنا! لا تدعيهم يأخذوه!».

كشَّر فيما يحكم المخلب قبضته على ذراعه.

قالت إسك: «أهذه خَدْعَة؟ من أنت حقًّا؟».

قال بأسى: «ألا تعرفينني حقًّا؟ ماذا تفعلين في حلمي؟».

قالت إسك: «لو كان هذا حلمًا، أريد أن أستيقظ رجاءً».

- اسمعي، عليكِ الهرب، أتفهمين؟ لا تقفي هناك وفمكِ فاغر.

قال صوت بارد داخل دماغ إسك: «أعطِينا إياه».

نظرتْ إسك إلى أسفل إلى الهرم الزجاجي بعالمه اللامبالي الصغير وحدقت إلى سايمون، وكان على وجهه تعبير حيرة ملتاع.

- لكن ما هذا؟

- انظري إليه جيدًا!

أنعمتْ إسك النظر خلال الزجاج، إذا غمضتْ عينها نصف إغماض فسترى القرص المحبَّب كما لو كان مصنوعًا من ملايين النقط الدقيقة. وإذا أمعنت في النظر إلى النقط...

- إنها مجرد أرقام! العالم كله، كل شيء مكون من أرقام...

قال سايمون: «إنه ليس العالم، بل فكرة العالم، لقد صنعتُها لهم، لا يمكنهم الوصول إلينا كما ترين، لكنَّ الأفكار تتجسد في أشكال هنا، الأفكار حقيقية!».

- أعطينا إياه.

- لكنَّ الأفكار لا تؤذي أحدًا!

قال سايمون بمرارة: «لقد حوَّلت الأشياء إلى أرقام لفهمها، لكنهم يريدون السيطرة. لقد اختبأوا في أرقامي كما...».

صرخ.

- أعطينا إياه وإلا سنمزقه إرْبًا.

نظرتْ إسك إلى أقرب وجه كابوسي وقالت: «كيف أعرف أن بإمكاني الوثوق بك؟».

- لا يمكنكِ الوثوق بنا، لكنْ ليس لديكِ خِيار.

نظرت إسك إلى حلقة الوجوه التي لا يمكن حتى لمحب الموتى أن يحبها، وجوه جُمِعَتْ معًا من مدفن نفايات الأسماك، ووجوه التُقِطَتْ بعشوائية من أشياء مستترة في ثقوب قاع المحيط والكهوف المسكونة، ووجوه لم تكن بشرية بما يكفي للفرح أو النظر شزرًا، لكنها تحمل كل تهديد تحمله موجة مريبة على هيئة رقم 7 قرب مستحمٍّ غافل.

لا يمكنها الوثوق بهم. لكنْ ليس لديها خِيار.

كان ثمة شيء آخر يحدث في مكان بعيد كبعد سُمك الظل.

عاد الطلاب السحرة إلى القاعة الكبرى، حيث كان كوتانجل وجراني ويذرواكس ما زالا محبوسين في مناظرة سحرية لمصارعة الأذرع

الهندية. كان البلاط تحت جراني نصف ذائب ومتشقق، والمنضدة التي خلف كوتانجل رسَّخت جذورها وحملتْ محصولًا وفيرًا من الجوز فعلًا.

حصل أحد الطلاب على العديد من جوائز الشجاعة بجرأته على سحب عباءة كوتانجل...

وصاروا الآن مزدحمين في الغرفة الضيقة، ينظرون إلى الجسدين.

استدعى كوتانجل أطباءَ الجسد وأطباءَ العقل وامتلأتِ الغرفة بالسحر عندما بدأوا بالعمل.

ربتتْ جراني كتفه وقالت: «اسمح لي بكلمة في أذنك أيها الشاب».

تنهد كوتانجل قائلًا: «شاب بالكاد يا سيدتي، شاب بالكاد».

شعر بالإرهاق؛ لقد مرتْ عقود على مبارزته بالسحر، رغم أن ذلك كان شائعًا بين الطلاب بما يكفي. راوده شعور كريه بأن جراني ستفوز في النهاية، كان قتالها مثل سحق ذبابة بأنفك، لم يستطع التفكير في ما سيواجهه.

قادته جراني إلى ممر بالخارج عند الزاوية بمقعد النافذة، جلستْ وعصا مقشتها مستندة إلى الحائط. هطل المطر بغزارة على الأسطح بالخارج، وأشارتْ بعض تعرجات البرق إلى عاصفة من أبعاد رامتوبس تقترب من المدينة.

- لقد كان عرضًا مذهلًا حقًّا، كدتَ تفوز مرة أو مرتين هناك.

قال كوتانجل ووجهه يتهلل: «أوه، أتعتقدين ذلك حقًّا؟».

أومأت جراني.

ربَّت كوتانجل أجزاءً مختلفةً من ردائه حتى وجد كيسًا قطرانيًّا من التبغ ولفافة من الورق. ارتعشتْ يداه وهو يتحسس بضع قطع من النبات الدخاني المستعمل منزلي الصنع. مرَّر الشيء البائس على

لسانه، وبالكاد بلله. ثم تذكر لمحة من اللياقة في مؤخرة عقله، فقال: «امم، أتمانعين أن أدخن؟».

هزت جراني كتفيها، حكَّ كوتانجل عود ثقاب بالحائط وحاول يائسًا توجيه اللهب والسجائر إلى الاتجاه نفسه تقريبًا. أخذت جراني عود الثقاب بلطف من يده المرتعشة وأشعلته له.

استنشق كوتانجل التبغ وكان يعاني سعالًا جويًّا ثم هدأ ثانية، وكانت النهاية المتوهجة للورقة هي الضوء الوحيد في الممر المعتم.

قالت جراني أخيرًا: «لقد ذهبا للتجول».

- أعرف.

- لن يكون ساحراك قادرين على إعادة أنفسهما.

- أعرف ذلك أيضًا.

- وربما يجلبان شيئًا ما كذلك

- تمنيت ألا تقولي ذلك.

كانت هناك وقفة حيث فكَّر كلاهما في ما قد يعود، سكان الأجساد الحية الذين يتصرفون مثل السكان الأصليين تقريبًا.

قال كلاهما في توافق تام: «ربما كان هذا خطأي...».

وتوقفا من الدهشة.

قال كوتانجل: «أنتِ أولًا سيدتي، تفضلي».

سألت جراني: «أهذه السجائر مفيدة حقًّا للأعصاب؟».

فتح كوتانجل فمه ليشير بلطف إلى أن التبغ عادةً محجوزةً للسحرة الرجال، لكنه آثر ألا يقول ذلك. ومدَّ كيس التبغ نحو جراني.

أخبرته بولادة إسك، ومجيء الساحر الشيخ والعصا وصولات إسك في السحر. بحلول الوقت الذي أنهت فيه كلامها، كانت قد نجحت في لفِّ أسطوانة ضيقة رفيعة أشعلت فيها لهبًا أزرق صغير ودمعتْ عيناها.

لهثتْ وهي تقول: «لم أعرفْ أن الأعصاب المهتزَّة لن تتحسن».

لم يكنْ كوتانجل يستمع.

- هذا مذهل للغاية، تقولين إن الطفلة لا تعاني شيئًا أبدًا؟

- هذا على حد علمي، بدتِ العصا في صفها إن كنتَ تعرف ما أعنيه.

- وأين العصا الآن؟

- قالتْ إنها قذفتها في النهر...

حدق الساحر الشيخ والمشعوذة العجوز إلى بعضهما، ووجهاهما مضاءين بشعلة البرق من الخارج.

هزَّ كوتانجل رأسَه وقال: «فيضان النهر، إنها فرصة مليون إلى واحد».

ابتسمتْ جراني بشراسة، كانتْ تلك الابتسامة التي هربتْ منها الذئاب، قبضتْ جراني على عصا مقشتها لغرض في نفسها: «فرصة المليون إلى واحد، تظهر تسع مرات من أصل عشر».

*

كانت هناك عواصف مسرحية صارخة، كلها برق مستطير وضربات رعد رنانة. وهناك عواصف استوائية وشديدة الحرارة والرطوبة وتنحدر إلى رياح ساخنة وكرات نارية، لكنَّ هذه كانت عاصفة في سهول البحر الدائري، وكان طموحها الرئيسي أن تضرب اليابسة بأكبر قدر ممكن من الأمطار، لقد كانتْ ذلك النوع من العواصف التي تُوحي بأن السماء كلها

قد ابتلعت مُدرًّا للبول. عَلِقَ البرق والرعد في الخلفية، وهذا ما وفَّر جوقة فيما كان النجم بطل العرض، فقد رقص رقصًا نقريًّا خلال المِنْطَقة.

امتدتْ أرضية الجامعة حتى النهر. في النهار كان هناك نمط رسمي أنيق من الممرات والأسيجة، لكنْ في منتصف ليلة برية مبتلة، بدت الأسوجة كأنها قد تحركت وانصرفت الممرات إلى مكان ما لتحتفظ بجفافها. سطع ضوء ضعيف متغير باستمرار بين الأوراق المتساقطة، فيما وجد معظم المطر طريقه على أي حال.

- أيمكنك استخدام إحدى كرات النار السحرية؟

- لديكِ قلب يا سيدتي.

- أأنت متأكد من أنها ستأتي بتلك الطريقة؟

- هناك شيء مثل الرصيف هنا بالأسفل في مكان ما، ما لم أكن قد تُهت.

كان ثمة صوت لجسم ثقيل يتخبط في شجيرة بشكل رطب ثم تندفع دفقة.

- لقد وجدت النهار على أي حال.

حدَّقت جراني خلال الظلام المبتل، كان بإمكانها سماع صوت هدير وتمييز بعض القمم البيضاء لمياه الفيضان، وكانت هناك قَطْعًا الرائحة المميزة لنهر عنخ-موربورك التي تشير إلى أن العديد من الجيوش قد استخدمته باعتباره مبولةً أولًا ثم مقبرةً بعدها.

رشَّ كوتانجل المياه نحوها ببؤس وقال: «هذه حماقة، ولا أقصد الإهانة يا سيدتي».

- لكنها ستخرج من البحر في هذا الفيضان، وأنا سأموت من البرد.

- لا يمكنكِ أن تبتلي أكثر مما أنت عليه الآن، على أي حال فأنت تمشين في الاتجاه الخاطئ للمطر.

- اعذرني.

- تذهبين محنية تمامًا، تحاربينها، هذه ليست الطريقة. حسنًا عليكِ التنقل بين القطرات.

وفعلًا قد بدتْ جراني مبتلةً فحسب.

- سأضع ذلك في اعتباري، تعالي يا سيدتي، أنا هنا لقصف اللهب والزجاج وكل ما هو ساخن وشرير.

تنهدت جراني قائلة: «لا أعرف، فقد توقعتُ رؤيتها تخرج من الوحل بطريقة ما أو شيئًا من هذا القبيل. وليس كل هذا الماء فحسب.

ربَّت كوتانجل كتفَها برفق: «ربما يكون هناك شيء آخر يمكننا فعله...».

قاطعتْه سحابة من البرق ودوي رعد آخر.

فابتدأ من جديد بقوله: «أقول ربما كان هناك شيء ما...».

تساءلتْ جراني: «ما هذا الذي رأيته؟».

قال كوتانجل مرتبكًا: «ماذا كان ماذا؟».

- أنزْ لي قليلًا.

تنهدَ الساحر بلطف ومدَّ يده، انطلقتْ صاعقة من النار الذهبية من المياه الرغوية ثم طواها النسيان.

قالت جراني بنبرة انتصار: «هناك!».

قال كوتانجل: «ليس سوى قارب، يستخدمه الأولاد في الصيف...».

خاض الماء خلف إصبع جراني المصممة بأقصى ما أمكنه من سرعة: «لا يمكن للمرء التفكير في إخراجها في مثل هذه الليلة، إنه جنون!».

انزلقتْ جراني على طول الألواح الخشبية المبللة لمحط السفن التي كان الماء تحتها فعلًا.

اعترض كوتانجل قائلًا: «أنتِ لا تعرفين شيئًا عن القوارب!».

ردَّت جراني بهدوء: «عليَّ التعلم بسرعة إذن».

- لكنني لم أركب قاربًا مذ كنت صبيًّا.

- لم أكنْ أطلب منكَ أن تأتي في الواقع، هل يمضي الجزء الحاد في المقدمة؟

تذمَّر كوتانجل قائلًا: «كل هذا جدير بالإكبار، لكنْ ربما كان علينا الانتظار إلى الصباح؟».

- أضاء وميض من البرق وجهَ جراني.

نزل كوتانجل عن رأيه وقال: «ربما لا».

سار ببطء على محط السفن وجذب قاربَ تجديف صغيرًا إليه، كان الدخول إليه مسألة حظ، لكنه تمكن من فعلها أخيرًا. متحسسًا الرسوم في الظلام.

تأرجح القارب تجاه الفيضان وانجرف بعيدًا وهو يدور ببطء.

تشبثتْ جراني بالمقعد وهي تتأرجح في المياه المتمردة وتنظر إلى كوتانجل بشغف في جنح الظلام.

وقالت: «حسنًا؟».

قال كوتانجل: «حسنًا ماذا؟».

- لقد قلتَ إنكَ تعرف كل شيء عن القوارب.

- لا، بل قلتُ إنكِ لا تعرفين.

- أوه.

تمسكا حيث كان القارب يتخبط بشدة، ويُصلِح وضعه بأعجوبة، وحمل إلى الخلف تجاه مجرى النهر.

بدأتْ جراني قائلة: «عندما قلتَ إنك لم تركبْ قاربًا مذ كنت طفلًا...».

- كنتُ في الثانية من عمري على ما أعتقد.

دخل القارب في دُوَّامة فدار وانطلق خلال التيار.

- لقد خِلتُكَ الفتى الذي يمضي يومه دخولًا وخروجًا من القوارب.

قال كوتانجل: «لقد وُلدتُ في الجبال، أُصاب بدوار البحر على العشب المبتل لو كان عليكِ معرفة ذلك».

ارتطم القارب بشدة بجذع شجرة مغمور بالماء، حطمتِ المويجات مقدمة القارب.

أضاف ببؤس: «أعرف تعويذة لمواجهة الغرق».

- أنا سعيدة بذلك.

- ما عليكِ إلا أن تقوليها وأنتِ واقفة على اليابسة.

أمرته جراني: «اخلع نعليكَ».

- ماذا؟

- اخلعْ نعليكَ يا رجل!

تقلقل كوتانجل في جلسته وقال: «ماذا يدور ببالك؟».

- لا بد أن يكون الماء خارج القارب وهذا ما أعرفه جيدًا.

ثم أشارت إلى المد المظلم المتدفق إلى جوف القارب وأضافت: «املأ حذاءك بالماء واقلبْه على الجانب!».

أومأ كوتانجل، لقد شعر أنها قد حملتْه في الساعتين الماضيتين دون أن يلامس الجوانب فعلًا، وللحظة احتضن شعورًا غريبًا بالمواساة وأن حياته خارج تصرفه تمامًا، ومهما حدث لا يمكن لأحد أن يلومه. بدا ملء حذائه بالماء بلا هدف في بحر غمرته الفيضانات في منتصف الليل مع من لا يستطع وصفها إلا بكونها امرأة، أمرًا منطقيًّا مثل أي شيء قد يقع في مثل هذه الظروف.

امرأة حسنة الهيئة، قالها صوت مُهمَل في آخر رأسه. كان ثمة شيء بالطريقة التي استخدمت بها عصا مقشتها المهلهلة في التجديف بالقارب في غمار الماء المتلاطم، قد أربك الأجزاء المنسية طويلًا في العقل الباطن لكوتانجل.

لا يعني ذلك أنه متأكد من مسألة حسن الهيئة قطعًا، مع المطر والرياح وعادة جراني في ارتداء خزانة ملابسها كاملة دفعة واحدة. تنحنح كوتانجل وقرَّر أنها حسنة الهيئة مجازًا.

- امم، انظري، كل ذلك جدير بالتصديق لكنْ بالنظر إلى الحقائق؛ أعني معدل الانجراف وما إلى ذلك، أتفهمين؟ قد تكون على بعد أميال من المحيط الآن، ربما لا تعود إلى الشاطئ ثانية أبدًا. بل ربما تتجاوز شلالَ الحافة حتى.

التفَّت جراني التي كانت تحدق إلى المياه وتساءلت: «ألا يمكنكَ التفكير بشيء آخر مفيد يمكننا فعله على الإطلاق؟».

لوى كوتانجل شفته بضعَ لحظات ثم قال: «لا».

- أسمعتَ قطُّ بعودة أحدهم؟

- لا.

- ألا يستحق الأمر المحاولة إذن؟

قال كوتانجل: «لم أحب المحيط قطُّ، يجب أن تكون ممهدةً، فهناك أشياء مروِّعة فيها، بالأسفل في الأجزاء العميقة. وحوش البحر المروِّعة أو هكذا يقولون عنها».

- حافظ على التوازن يا رجل وإلا فسنعرف أكانوا على حق.

التفَّت العاصفة إلى الأمام والخلف في سماء المِنْطَقة، ضاعت هنا في سهول البحر المنبسطة، فقد كانت تنتمي إلى مرتفعات رامتوبس، حيث عرفوا كيف يقدرون عاصفة قوية. تذمرتْ حولهم باحثة عن تلة معتدلة الارتفاع؛ لإلقاء البرق عليها.

هدأ المطر وتحول إلى طقطقة لطيفة قادرة تمامًا على الاستمرار لأيام، وتدرج ضباب البحر لمساعدته.

قال كوتانجل: «لو كان معنا بعض المجاديف لجدفنا، لو عرفنا إلى أين نحن ذاهبون».

لم تجب جراني.

دفع بالحذاء الممتلئ بالماء على الجانب، وخطر له أن الجديلة الذهبية على ردائه قد لا تكون نفسها ثانية أبدًا. سيكون من اللطيف التفكير في ما قد يهم يومًا ما.

غامر بقوله: «لا أفترض أنكِ تعرفين اتجاه المركز، بالمصادفة؟ كلامي من باب الدردشة فقط».

قالت جراني دون أن تدير رأسها: «ابحث عن جانب الشجر المطحلب».

- أوه.

وأومأ برأسه.

حدق إلى المياه الزيتية بوجوم، وتساءل أين هي المياه الزيتية على وجه التحديد، فإذا حكمنا بناءً على الرائحة المالحة فقد كانت في الخليج الآن.

ما أرعبه حقًّا حول البحر هو أن الفاصل الوحيد بينه وبين الأشياء المروِّعة التي تعيش بالقاع، هو الماء فقط. طبعًا كان يعلم أن الشيء الوحيد الذي يفصله عمَّا يمكن أن نسميه النمور آكلة البشر في غابات كلاتش هو المسافة فحسب، لكنْ شتان الفرق بين الأمرين. النمور لا ترتفع من الأعماق الباردة، أفواه مليئة بأسنان الإبرة...

ارتجف.

سألت جراني: «ألا تشعر به، يمكنك تذوقه في الهواء، السحر! إنه يتسرب من شيء ما».

- في الواقع إنه غير قابل للذوبان في الماء.

مد شفتيه مرة أو اثنتين، كانت ثمة رائحة صفيحية للضباب عليه الاعتراف بذلك، وشحم خافت في الهواء.

قالت جراني بصرامة: «أنت ساحر، ألا يمكنكَ استدعاءها أو شيئًا من هذا القبيل؟».

- إنه سؤال لم يُطرح قطُّ، فالسحرة لا يرمون عِصيَّهم أبدًا.

سارعت جراني بالقول: «إنها في مكان ما هنا، ساعدني في البحث عنها يا رجل».

تأوَّه كوتانجل، لقد كانت ليلة ليلاء، وقبل أن يضطلع بالمزيد من السحر فهو يحتاج بشدة إلى النوم اثنتي عشرة ساعة، وعدة وجبات

جيدة ووقت بعد ظهيرة أمام نار كبيرة. لقد كان يتقدم في العمر، لكنه أغمض عينيه وركز.

كان هناك سحر بالجوار، حسنًا. هناك بعض الأماكن التي يتراكم فيها السحر بشكل طبيعي، إنه يتراكم حول رواسب الأوكتارين المعدني الماورائي، وفي خشب أشجار معيَّنة في البحيرات المعزولة، يتجمد في جميع أرجاء العالم، ويمكن لأولئك المَهَرَة في مثل هذه الأمور التقاطه وتخزينه، كان هناك مخزن للسحر في المِنْطَقة.

- إنه قوي، قوي للغاية.

رفع يديه إلى صدغيه.

- الجو يصبح قارسًا.

تحول المطر المستمر إلى ثلج.

كان ثمة تغيير مفاجئ في العالم، توقف القارب لم يوقفْه تصادم، بل كأنما قد قرر البحر التحول إلى شيء صلب، نظرتْ جراني إلى الجانب.

أصبح البحر صلبًا، كان صوت الموج يأتي من مسافة بعيدة جدًّا ويبتعد أكثر طَوال الوقت.

كانت تستند إلى حافة القارب وتنقر الماء.

- جليد.

كان القارب يقف بلا حَراك في الجليد، وصوت صريره ينذر بالشؤم.

أومأ كوتانجل برأسه ببطء: «يبدو ذلك منطقيًّا، فإذا كانوا... حيث نعتقد أنهم، فالجو عندهم صقيع قارس، بارد مثل الليل بين النجوم كما يقال. ومن ثم تشعر العصا بذلك كذلك».

- صحيح.

خرجتْ من القارب: «كل ما علينا فعله، هو إيجاد منتصف الجليد وحيثما كان ستكون العصا، أليس كذلك؟».

- كنت أعرف أنك بصدد قول ذلك، هل يمكنني على الأقل انتعال حذائي؟

تجوَّلا على الأمواج المتجمدة، مع توقف كوتانجل من حين إلى آخر لمحاولة التعرف الدقيق على مكان العصا، كانت أرديته تتجمد عليه، وأسنانه تصطك.

قال لجراني التي تصدَّع ثوبها تقريبًا وهي تمشي: «ألا تشعرين بالبرد؟».

أقرَّت بقولها: «أشعر بالبرد لكنني لا أرتجف فقط».

قال كوتانجل وهو ينفخ في إصبعه: «كنا معتادين شتاءات كهذا عندما كنت صبيًّا، إنها بالكاد تثلج في عنخ-موربورك».

قالت جراني وهي تنظر إلى الأمام خلال الضباب المتجمد: «حقًّا».

- ثمة ثلوج على قمم الجبال على مدار العام، على ما أذكر، لكنْ لا تصبح درجات الحرارة كما كانت عندما كنت صبيًّا. حتى الآن على الأقل.

قالها وهو يدمغ قدميه في الجليد، فأصدر الثلج صريرًا مهددًا مذكرًا إياه بأنه ما يحول بينه وبين قاع البحر، دمغ قدمه مجددًا بأقصى ما يمكنه من لطف.

سألت جراني: «أي جبال تلك؟».

- أوه، في رامتوبس، أعلى تجاه المركز، في الواقع، مكان يدعى براس نيك.

تحركتْ شفتا جراني وقالت بهدوء: «كوتانجل كوتانجل، أتجمعكَ أي صلة بالشيخ أكتور كوتانجل؟ الذي اعتاد العيش في منزل كبير قديم أسفل جبل ليبينج وعنده الكثير من الأبناء».

- أبي، كيف تعرفين ذلك بحق القرص؟

قالت جراني وهي تقاوم الابتسام: «لقد نشأتُ هناك، في القرية المجاورة، باد آس، أتذكر والدتكَ، كانت سيدة لطيفة تربي الدجاج الأبيض والبُنِّي، اعتدتُ الذَّهَاب إليها لشراء البيض لوالدتي، قبل أن أستدعَى إلى الشعوذة طبعًا».

- لا أتذكركِ، لقد مرَّ وقت طويل طبعًا. كان هناك دائمًا الكثير من الأطفال حول بيتنا.

تنهَّد وأكمل: «أظن أن من المحتمل أنني شددتُ شعرك ذات مرة، فقد كنتُ معتادًا فعلَ مثل هذه الأمور».

- ربما، أتذكر ولدًا صغيرًا بدينًا، بل وبغيضًا.

- ربما كان هذا أنا، يبدو أنني أتذكر فتاة متسلطة بعض الشيء، لكن كان هذا منذ أمد بعيد، أمد بعيد.

- لم يكنْ عندي شعر أبيض في هذه الأيام.

- كان لكل شيء لون مختلف في تلك الأيام.

- هذا حقيقي.

- لم تكن تمطر كثيرًا صيفًا.

- كان غروب الشمس أشد احمرارًا.

- كان هناك الكثير من كبار السن، كان العالم مليئًا بهم.

- نعم، أعلم ذلك، والآن فالعالم مليء بالشباب، مضحك حقًّا، أعني أن المرء كان يتوقع أن تكون الحال العكس.

- كان لديهم نوع أفضل من الهواء حتى، كان التنفس سهلًا.

داس الثلجَ الدوارَ، معتبرًا في الطرق المحيرة للزمن والطبيعة.

قالت جراني: «أعدتَ إلى الديار ثانية قطُّ؟».

هز كوتانجل كتفيه: «عندما مات أبي، إنه أمر غريب، لم أقلْ ذلك لأي شخص على الإطلاق، لكنْ، حسنًا، كان هناك إخوتي، لأنني الابن الثامن طبعًا، وكان عندهم أبناء وأحفاد حتى، ولم يكن أحدهم يكاد يعرف كيف يكتب اسمه. كان بإمكاني شراء القرية بأسرها، وقد عاملوني كملك، لكنْ... أعني، لقد ذهبتُ إلى أماكن ورأيتُ أمورًا قد تذهل عقولهم، واجهتُ مخلوقاتٍ أشدَّ وحشية من كوابيسهم، عرفتُ أسرارًا عرفها عدد قليل جدًّا من...».

- لقد شعرتَ أنكَ مُهمَل، لا يوجد شيء غريب في هذا، يحدث لنا جميعًا. إنه خِيارنا.

- لا ينبغي للسحرة العودة إلى الديار أبدًا.

وافقتْه جراني قائلة: «لا أعتقد أن بإمكانهم العودة إلى الديار، لا يمكنك عبور النهر نفسه مرتيْن دائمًا ما أقول ذلك».

فكَّر كوتانجل في قولها هنيهةً وقال: «أعتقد أنكِ مخطئة في هذه المسألة، لقد عبرتُ النهر نفسه آلاف المرات».

- آه، لكنه لم يكنِ النهر نفسه؟

- ألم يكن هو؟

- لا.

هزَّ كوتانجل كتفيه قائلًا: «بدا كأنه النهر اللعين نفسه».

- لا داعي إلى التحدث بمثل هذه النبرة، لا أعرف لماذا عليَّ الاستماع لمثل هذا الكلام من ساحر لا يمكنه الرد حتى على الخطابات!

سكت كوتانجل لحظةً إلا من اصطكاك أسنانه: «أوه حسنًا، فهمتُ أنهم منك إذن، أليس كذلك؟».

- صحيح، لقد وقعتُ أدناهم، من المفترض أن يكون ذلك دليلًا أليس كذلك؟

قال كوتانجل بتجهم: «حسنًا، حسنًا، لقد اعتقدتُ أنها كانت مزحةً وهذا كل الأمر».

- مزحة؟

- نحن لا نتلقى الكثير من الطلبات من النساء، لا نتلقى أيًّا منها في الواقع.

- تساءلتْ لمَ لمْ أتلقَّ ردًّا؟

- لقد رميتُهم، إذا كان عليكِ معرفة ذلك.

- يمكن أن يكون لديك على الأقل... ها هي!

- أين؟ أين؟ أوه هناك.

تفرَّق الضباب ورأوها الآن بوضوح. نافورةً من رقاقات الثلوج، وعمودًا مزخرفًا من الهواء المتجمد. وتحتها...

لم تكنِ العصا محبوسةً في الجليد، بل كانت ترقد في سلام في بركة ماء تغلي.

أحد الجوانب الاستثنائية في الكون السحري هو وجود الأضداد، لقد سبق ولوحظ أن الظلام ليس نقيض النور، بل الظلام هو ببساطة غياب النور. وبالطريقة نفسها فالصفر المطلق هو مجرد غياب للحرارة، لو أردتَ معرفة ما تعنيه البرودة الحقيقية، فالبرودة الشديدة التي لا يمكن للماء فيها التجمد حتى، لكنه ضد الغليان. لا تنظر إلى أبعد من هذه البركة.

نظرا في صمت بضعَ ثوانٍ، ونسيا نقاشهما، قال كوتانجل ببطء: «لو وضعتِ يدكِ في هذا، فستنتزع أصابعكِ مثل الجزر».

قالت جراني: «أتعتقد أن بإمكانكَ رفعها بالسحر؟».

بدأ كوتانجل في تربيت جيوبه، وأخيرًا أخرج حقيبته الملفوفة. وبإصبع خبيرة، مزق بقايا أعقاب السجائر في ورقة جديدة ولعقها بشكل ما، دون أن يرفع عينيه عن العصا.

- لا، لكنني سأجرب على أي حال.

نظر بشوق إلى السيجارة ثم حشرها خلف أذنه. مدَّ يده وفلطح أصابعه وتحركت شفتاه بلا صوت، وهو يغمغم ببعض كلمات القوة.

دارتِ العصا في بركتها، ثم نهضت بلطف بعيدًا عن الجليد، حيث أصبحتْ على الفور مركزَ شرنقة في الهواء المتجمد. تأوَّه كوتانجل بجهد، فالرفع المباشر أصعب ما في السحر العملي، بسبب الخطر الدائم للمبادئ المعروفة للفعل ورد الفعل، وهو ما يعني أن محاولات الساحر لرفع شيء ثقيل بالقوة العقلية وحدها تواجهه احتمالية أن ينتهي الأمر به وعقله في حذائه.

- أيمكنك الوقوف باستقامة؟

برهافة بالغة استدارتِ العصا ببطء في الهواء حتى علقتْ أمام جراني فوق الجليد ببضع بوصات. كان الصقيع يتلألأ على نقوشها، فيما بدا لكوتانجل كأنها -من خلال الضباب الأحمر للصداع النصفي الذي يرفرف أمام عينيه- تراقبه بامتعاض.

عدلتْ جراني قبعتها وقوَّمت وضعها.

قالت جراني: «حسنًا».

تمايل كوتانجل، شطرته النبرة مثل منشار الألماس، كان يتذكر بضبابية تعرُّضه للتوبيخ من والدته عندما كان صغيرًا. حسنًا، لقد كان هذا هو الصوت، لم يحدث سوى أنه نقي وصافٍ وصُنِفرت حوافه بورق صنفرة، نبرة أمر من شأنها إسماع الموتى وربما تدفع الجثة لسير نصف المسافة إلى مقبرتها قبل أن تتذكر أنها ميتة.

وقفت جراني في وجه العصا المحلِّقة، وقد كاد يذوب ثلجها بسبب الغضب الصافي في نظرتها.

- أهذه هي فكرتك عن السلوك القويم، أليس كذلك؟ الاستلقاء في البحر فيما يموت الناس؟ أوه أحسنتِ!

كانت جراني تمشي الهوينى فيما يشبه الدائرة.

وما أذهل كوتانجل أن العصا قد استدارت لتتبعها.

قالت جراني بعصبية: «حسنًا، رميت بعيدًا، وماذا في ذلك؟ إنها بالكاد أكبر من طفلة والأطفال يرموننا عاجلًا أو آجلًا. أهذه خدمة مخلصة؟ ألا تخجلي، تستلقين هناك وتغضبين بدلًا من أن تكوني ذات نفع على الأقل؟».

انحنتْ إلى الأمام، وأنفها المعقوف على بعد بوصات من العصا. كان كوتانجل متأكدًا تقريبًا من أن العصا تحاول الميل إلى الخلف والابتعاد في طريقها.

همست: «أعليَّ إخبارِكِ ماذا يحدث للعصا الشريرة؟ لو ضاعت إسك في العالم، أتعرفين ما سأفعله بكِ؟ لقد نجوتِ من النار مرة، لأنه أمكنكِ تجاوز أذاها. في المرة القادمة لن تكون نارًا».

غرق صوتها في الهمس.

- أولًا، سيكون هناك مسحج التسنيم ثم ورق الصنفرة والمثقاب وسكين البرْي.

قال كوتانجل وعيناه تدمعان: «أقول، اهدئي».

- وما يتبقى منكِ، فسأدقه في الغابة للفطريات وقمل الخشب والخنافس. قد يستغرق الأمر سنوات.

تألقتِ المنحوتات، وتحرك معظمها إلى الخلف بعيدًا عن نظر جراني.

- الآن، سأخبركِ بما سأفعله، سألتقطكِ وسنعود جميعًا إلى الجامعة، أليس كذلك؟ وإلا فهذا وقت المنشار الفظ.

شمرتْ أكمامها ومدَّتْ يدها: «يا ساحر، أريدكَ أن تطلق سراحها».

أومأ كوتانجل برأسه ببؤس شديد.

- عندما أقول الآن، فأنا أعني الآن، الآن.

فتح كوتانجل عينيه ثانية.

كانت جراني واقفةً وذراعها اليسرى ممددة بطولها أمامها ويدها قابضة على العصا بإحكام.

كان الجليد ينفجر من حولها في نوبات من بخار.

أنهت جراني حديثها قائلة: «حسنًا، وإذا تكرَّر هذا ثانية، سيتعيَّن عليَّ أن أغضب بشدة، هل أوضحتُ مقصدي؟».

خفض كوتانجل يديه وهُرِعَ نحوها.

- أأُصِبتِ بأذى؟

هزت رأسها قائلة: «إنه مثل كتلة جليدية مدلاة».

- هيا، لا وقت لدينا للوقوف والسمر.

- كيف سنعود؟

- أوه، أظهر بعض الجَلَد يا رجل، حبًّا للآلهة. سنطير.

لوَّحت جراني بعصا المكنسة، نظر كبير المستشارين إليها بريبة.

- على هذه؟

- قطعًا، ألا يطير السحرة بعصيهم؟

- إنه أمر غير لائق إلى حد ما.

- إن كان بوسعي التعامل مع ذلك، فهو بإمكانك كذلك.

- نعم، لكنْ، أهي آمنة؟

نظرت إليه جراني نظرة مدمرة.

- أتقصد بالمعنى المطلق؟ أم مقارنة بالبقاء على طرف جليدي ذائب؟

- إنها أول مرة تقلني فيها عصا مقشة.

- حقًّا؟

- اعتقدتُ أن على المرء الصعود عليها فحسب، ثم تطير لم أكنْ أعرف أن عليكِ كل هذا الجري إلى أعلى وإلى أسفل والصراخ بهم.

- إنها موهبة.

- كما اعتقدتُ أنهم أسرع، ولأكون صريحًا يطيرون أعلى من ذلك.

- ما الذي تعنيه بأعلى؟

وهي تحاول تعويض وزن الساحر في السرج الخلفي وهم راجعون إلى أعلى النهر. وكعادة ركاب السرج الخلفي منذ فجر التاريخ، أصرَّ على الميل في الاتجاه الخاطئ.

قال كوتانجل وهو يتملص من فرع متساقط يأخذ قبعته بعيدًا: «حسنًا، أقصد فوق الأشجار إلى حد ما».

- لا بأس بعصا المقشة هذه، لن تعالج فِقدان بعض الحجارة، أم تفضل النزول والمشي؟

- بصرف النظر عن حقيقة أن قدميَّ تلمسان الأرض نصف الوقت على أي حال، لا أريد أن أحرجك، لكنْ لو طلب مني أحدهم أن أسرد كل أخطار الطيران، كما تعرفين فلن يأتي ببالي أبدًا أن يجلد نبات سرخسي طويل ساق شخص حتى الموت.

قالت جراني وهي تنظر إلى الأمام: «أتدخن؟ ثمة شيء يحترق؟».

- إنه لتهدئة أعصابي فقط سيدتي، مع كل هذا الغوص المتهور في الهواء يا سيدتي.

- حسنًا، أطفئها لحظة وتماسك.

تحركتْ عصا المقشة إلى أعلى وزادتْ سرعتها إلى سرعة ركض العجائز.

- سيد ساحر.

- أهلًا؟

- عندما قلت تماسك...

- نعم؟

- لم أقصد في تلك المِنْطَقة.

telegram @
yasmeenbook

كانت هناك وقفة.

- أوه، نعم، فهمتُ، أنا في غاية الأسف.

- كل شيء على ما يرام.

- ذاكرتي ليست كما كانت... أؤكد لك.. لا أقصد الإساءة.

- لا عليك.

طارا في صمت هنيهةً.

قالت جراني بإمعان: «ومع ذلك، فأنا أفضل عامة أن تحرك يديك».

تدفقتِ الأمطار خلال ممرات الجامعة الخفية وصبَّت في المزاريب حيث تطفو أعشاش الغربان المهجورة منذ الصيف مثل قوارب سيئة البناء للغاية. كان الماء يتدفق خلال الأنابيب القديمة المقشرة. ووجد طريقه تحت البلاط وقال مرحبًا للعناكب تحت الإفريز. قفز من الجملونات وشكل بحيرات سرية عالية بين القمم.

عاشت أيكولوجيا متكاملة في أسطح المباني اللانهائية للجامعة الخفية، وهذا ما جعل بيت الغرائب بمنزلة ورشة أدوات على تقسيم سكك حديدية مقارنة بها. نشدتِ الطيور في غابات صغيرة نمتْ من حبوب التفاح وبذور الأعشاب. عامت ضفادع صغيرة في المزاريب

العلوية وشُغِلَتْ مستعمرة من النمل باختراع حضارة معقدة ومثيرة للاهتمام.

الشيء الوحيد الذي لم تستطعِ المياه القرقرة خارجه من تماثيل الجارجوليز المزخرفة حول الأسطح؛ والسبب في ذلك أن الجارجوليز قد تجوَّلوا واحتموا في السندرات عند أول بادرة مطر. لقد اعتبروا أن مجرد كون المرء قبيحًا لا يعني أن يكون غبيًّا كذلك.

أمطرتْ جداول، أمطرتْ أنهارٌ وأمطرت بحارٌ، لكنها أمطرتْ أساسًا فوق سطح القاعة الكبرى، حيث خلَّفت المبارزة بين جراني وكوتانجل ثَقْبًا بالغَ الاتساع، وأحس تريتل أنها تمطر عليه شخصيًّا بطريقة ما.

وقف على منضدة ينظم فريقًا من الطلاب يزيلون اللوحات وبُسُط الحائط المزخرفة قبل أن تُنقَع من شدة المطر. كان لا بدَّ من منضدة، لأن الأرض كانت على بُعد بوصات من الماء فعلًا.

يا للأسف لم تكن مياهَ أمطار، بل مياه ذات شخصية حقيقية، ذلك النوع من الشخصية المميزة التي يحصل عليها الماء عقب رحلة طويلة في الريف الطيني. كان لها القوام السميك لمياه عنخ الأصلية؛ أغلظ من أن يُشرَب وأميع من أن تُحرَث به الأرض.

كان النهر قد فجَّر ضفافه وهناك مليون مجرى مائي صغير يتدفق إلى الوراء، تنشقُّ خلال الأقبية وتنشعُ تحت البلاط. كان هناك دوي عارض بعيد، حيث انقطع بعض السحر المنسي في زنزانة غارقة واستسلم لقوتها، لم يكن تريتل مشغوفًا على الإطلاق ببعض الفقاعات والهسهسات البغيضة التي تتسرب إلى السطح.

فكَّر ثانية كم سيكون من الرائع أن يكون هذا النوع من السحرة الذين يعيشون في كهف صغير في مكان ما ويجمعون الأعشاب ويفكرون في

أفكار هامة ويعرفون ما يقوله البوم. لكنْ من المحتمل أن يكون الكهف رطبًا والأعشاب سامة ولا يمكن لتريتل التأكد أبدًا مما قيل أو فعل ماهية الأفكار المهمة حقًّا.

نزل بشكل أخرق وجدَّف خلال دُوَّامات المياه المظلمة. حسنًا، لقد بذل قُصَارى جهده. وحاول تنظيم السحرة الكبار لإصلاح السقف بالسحر، لكنْ قد حدث جدال عام بشأن التعويذات التي يمكن استخدامها وإجماع على أن هذا عمل الحرفيين على أي حال.

- هؤلاء هم السحرة تابعوك، فكر بكآبة وهو يخوض بالمياه بين الأقواس المتساقطة، دائمًا ما يحقق المطلق قبل أن يلاحظ المحدد، وخاصة في شؤون الأعمال المنزلية. لم نواجهْ هذه المشكلة قطُّ قبل مجيء تلك المرأة.

خاض في الوحل بصعود درجات السلم، المضاء بوميض مثير للإعجاب بشكل خاص. كان لديه يقين قاسي القلب بأن لا أحد يمكنه لومه على ذلك، ورغم ذلك فسيفعل الجميع. أمسك بطرف ردائه وعصره بأسى. ثم مدَّ يده إلى كيس التبغ الخاص به.

كان كيسًا جميلًا أخضر مضادًّا للماء، وهذا يعني أن كل الأمطار التي سقطتْ فيه لا يمكنها الخروج منه ثانيةً، كان لا يوصف.

وجدَ أخيرًا قصاصاته الورقية وقد دُمِجَتْ في كتلة واحدة مثل مذكرة الجنية الأسطورية الموجودة في الجيب الخلفي للبنطال بعد غسله وعصره وتجفيفه وكيِّه.

قال بشعور قوي: «سحقًا».

- لقد قلت! تريتل!

التفت تريتل حوله، كان آخر من يغادر القاعة، حيث بدأت حتى بعض المقاعد في الطفو في ذلك الحين. كانت دوامات ورقع الفقاعات تُميِّز البقع التي يرشح منها السحر من الأقبية، لكنْ لم يكن هناك أحد لرؤيتها.

إلا إذا تحدث أحد التماثيل طبعًا، فقد كانت ثقيلة للغاية لتحريكها، وتذكر تريتل إخباره للطلاب بأن الغسيل الشامل لربما يفيدهم.

نظر إلى وجوههم الصارمة وندم على ذلك. كانت تماثيل السحرة الأموات بالغي القوة أكثر نبضًا بالحياة أحيانًا من التماثيل التي يحق لها ذلك. ربما كان عليه إبقاء صوته منخفضًا.

غامر وهو مدرك تمامًا للنظرات الصخرية وقال: «نعم».

- هنا بالأعلى أيها الأحمق!

نظر إلى أعلى، انحدرتْ عصا المقشة بقوة خلال المطر في سلسلة من الانقضاضات والهزات. على ارتفاع خمس أقدام من الماء، فقدت ذراعها الجوية القليلة المتبقية وانقلبتْ بصخب في دُوَّامة.

- لا تقف هناك أيها الأحمق!

حدق تريتل إلى الظلام بعصبية، وقال: «عليَّ الوقوف في مكان ما».

هاجمه كوتانجل بقوله: «أعني ساعدنا».

قالها وهو يرتفع على الموجات مثل كوكب الزهرة السمين والغاضب، وأضاف: «السيدة أولًا، طبعًا».

التفَّ إلى جراني التي كانت تصطاد في الماء.

- لقد فقدتُ قبعتي.

تنهَّد كوتانجل: «أهذا شأن هام في وقت كهذا؟».

- على المشعوذة ارتداء قبعة، وإلا فمن سيعرف؟

أمسكتْ بشيء مظلم ومبلل، قهقهتْ بانتصار وأخرجتْها من الماء وضربتِ القبعة على رأسها. لقد فقدتْ تيبسها، وتخبطتْ بشكل غير عادي فوق عين واحدة.

- قالت بنبرة صوت تشي بأن على الكون بأسره أن ينتبه: «حسنًا».

كان هناك وميض برَّاق آخر من البرق، وهذا ما يدلُّ على أن حتى آلهة الجو لديهم إحساس متطور بالمسرح.

قال كوتانجل: «إنها تناسبك إلى حد ما».

قال تريتل: «عفوًا لكنْ أليست هذه هي المـــ...».

قال كوتانجل وهو يأخذ بيد جراني لمساعدتها في صعود الدرج: «لا تأبه بذلك أبدًا».

أنعش العصا.

- لكنْ من المخالف للعرف السماح للمـــ...

توقف وحدق فيما وصلت جراني إلى الحائط الرطب المجاور للباب ولمسته، طرق كوتانجل على صدره: «أرني مكان كتابة ذلك».

قاطعته جراني: «إنها في المكتبة».

قال تريتل: «لقد كان المكان الجاف الوحيد، لكن...».

قالت جراني: «هذا المكان خائف من العواصف الرعدية، يمكنه التعافي بالاستراحة».

كرَّر تريتل بيأس: «لكنَّ العرف...».

كانت جراني تسير فعلًا في الممر وكوتانجل يتقافز خلفها، استدار قائلًا: «لقد سمعتَ السيدة».

شاهدهم تريتل وهما يغادران وفمه متدلٍّ معلق.

عندما اختفى صوت خطواتهما في البعد، وقف صامتًا لحظةً، وهو يفكر في الحياة وفي ما كان من المحتمل أنه أخطأ.

ومع ذلك، فلن يُتَّهم بالعصيان. بحرص شديد ودون أن يعرف السبب على وجه التحديد، مدَّ يده وربَّت الجدار بودٍّ وقال: «هناك، هناك».

والغريب بما يكفي، أنه شعر بتحسن بعد ذلك.

خطر ببال كوتانجل أنه ينبغي له قيادة الطريق في مقره الخاص، لكنَّ جراني كانت في عجلة من أمرها وليس ندًّا لها مدمن نيكوتين في مشارف نهايته، ولم يستطع مجاراتها إلا بقفزات السلطعون البحري.

قال وهو يخوض البِرك: «من هذا الطريق».

- أعرف، أخبرني البناء.
- نعم، كنتُ أريد السؤال عن ذلك، لأنه كما ترين لم يقل لي شيئًا قطُّ، وقد عشتُ هنا سنواتٍ.
- هل استمعتَ إليه قطُّ؟

اعترف كوتانجل: «ليس استماعًا بالضبط، لا ليس على هذا النحو».

كانت جراني تتخطى شلالات حيث كان مكان درجات درج المطبخ (لن تعود مغسلة السيدة ويتلو كما كانت): «حسنًا، أعتقد أنها هنا وعلى طول هذا الممر، أليس كذلك؟».

اجتاح ثلاثة من السحرة المشدوهين الذين تفاجأوا بها وفُزِعُوا للغاية من قبعتها.

لهث كوتانجل خلفها وأمسك بذراعها عند أبواب المكتبة.

قال بيأس: «انظري، لا أقصد الإساءة يا آنسة، امم سيدة...».

- أعتقد أن التفرقة ستبدأ الآن، ماذا عن تشاركنا عصا المقشة والأشياء كافة؟

توسَّل قائلًا: «أيمكنني الدخول أولًا؟ إنها مكتبتي».

استدارت جراني وعلى وجهها قناع المفاجأة ثم ابتسمت.

- طبعًا، أنا آسفة.

قال كوتانجل معتذرًا: «نظرًا إلى الأمور، كما ترين».

دفع الباب ففُتِحَ.

كانت المكتبة مكانًا مليئًا بالسحرة الذين يهتمون بكتبهم كما يهتم النمل ببيضه، ويحملونها كما يفعل النمل في الأوقات الصعبة. كان الماء يدخل حتى إلى هنا، ويظهر في أماكن غريبة لأن للمكتبة تأثيرات جاذبية عجيبة. نُظِّفَتِ الرفوف السفلى وتتابع السحرة والطلاب في تكويم الكتب في كل منضدة ورف جاف. كان الهواء معبقًا بأصوات حفيف الصفحات الغاضبة التي كادت تطغى على الحَنَق البعيد للعاصفة.

كان من الواضح أن هذا قد أزعج أمين المكتبة الذي أسرع من ساحر إلى ساحر، وهو يسحب أرديتهم على نحو غير مجدٍ وهو يصيح: «حسسسننننناااا».

اكتشف كوتانجل وأسرع تجاهه، لم تكنْ جراني قد رأتْ إنسانَ غاب من قبل، لكنها لم تكن لتعترف بذلك، وظلتْ هادئة تمامًا في وجه الرجل البَطين ذي الذراعين بالغتي الطول ومقاس جلد 12 ومقاس جسد 8.

- حسسنًا.

ثم أوضح: «حسسسننننناً».

قال كوتانجل باختصار: «أتوقع ذلك».

وأمسك بأول ساحر متداعٍ تحت وطأة عشرات من الجريموري. حدق الرجل إلى وجهه كأنما رأى شبحًا ونظر إلى جراني جانبًا وأوقع الكتب على الأرض، جفل أمين المكتبة.

- شهق الساحر قائلًا: «كبير المستشارين؟ أأنت حي؟ أعني -أننا قد سمعنا أن روحك أبعدت ب-».

نظر إلى جراني مجددًا وأكمل: «أعني أننا اعتقدنا.. أخبرنا تريتل بأن...».

قال أمين المكتبة وهو يهش بعض الصفحات ليرجعها بين الأغلفة: «حسسننًا».

تساءلتْ جراني: «أين الشاب سايمون والفتاة؟ ماذا فعلتم بهما؟».

قال الساحر متراجعًا: «لقد وضعناهما هنا، امم...».

قال كوتانجل: «أرنا، وكفَّ عن التأتأة، أتعتقد أنك لم ترَ امرأة قطُّ؟».

بلع الساحر ريقه بصعوبة وأومأ بنشاط وقال: «بكل تأكيد. و... أعني... اتبعني رجاءً- اامم...».

سأل كوتانجل: «لم تكن ستقول أي شيء عن العرف، أليس كذلك؟».

- امم، لا يا كبير المستشارين.

- جيد.

تبعوه بدأب وهو يندفع بين السحرة الكادحين، توقف معظمهم عن العمل وجراني تخطو في طريقها.

قال كوتانجل من زاوية فمه: «إنه أمر محرج، عليَّ أن أعلنكِ ساحرًا فخريًّا».

حدقتْ جراني أمامها مباشرة وبالكاد تحركت شفتاها وهي تهمس: «افعل وسأعلنكَ مشعوذة فخرية».

أبقى كوتانجل فمه مغلقًا.

كان إسك وسايمون مستلقيين على منضدة في إحدى غرف القراءة الجانبية، ونصف دستة من السحرة تراقبهم. وقد تراجعوا بعصبية عندما اقترب الثلاثي وأمين المكتبة يتأرجح خلفهم.

قال كوتانجل: «لقد كنتُ أفكر أن من الأفضل بالتأكيد إعطاء العصا لسايمون؟ إنه ساحر وهو...».

قالت جراني: «على جثتي، فأصدقاؤك كذلك يستمدون قوتهم من خلاله، أتود منحهم المزيد؟».

تنهد كوتانجل؛ فقد أُعجِب بالعصا باعتبارها أحد أفضل ما رآه، وقال: «جيد جدًّا، أنت على حق طبعًا».

انحنى ووضع العصا على هيئة إسك النائمة. رجع إلى الخلف بطريقة مسرحية.

لم يحدث أي شيء.

سعل أحد السحرة بحالة عصبية.

لم يستمر شيء بالحدوث.

بدا أن المنحوتات على العصا كانت تبتسم.

قال كوتانجل: «إنها لا تعمل، أليس كذلك؟».

- حححسسسننناً.

قالت جراني: «امنحها وقتًا».

أعطوها وقتًا. وبالخارج، تحركت عاصفة حول السماء في محاولة لرفع الأغطية عن المنازل.

جلست جراني على كومة من الكتب وفركتْ عينيها.

ضلتْ يدا كوتانجل الطريق إلى كيس التبغ. ساعد زميل الساحر المصاب بالسعال العصبي في الخروج من الغرفة.

قال أمين المكتبة: «حسنًا».

قالت جراني: «أعلم».

فيما كانت لفافة كوتانجل منزلية الصنع في أصابعه المرتعشة تطلق وابلًا من التبغ.

- ماذا؟

- إنها لم تنتهِ بعد!

- ماذا؟

قالت جراني وهي تقف: «لا يمكنها استخدام العصا طبعًا».

بدأ كوتانجل بالكلام قائلًا: «لكنكِ قلت إنها كنست بها الأرض، وإنها حمتها و...».

قالت جراني: «لا لا لا، هذا يعني أن العصا استخدمتْ نفسها أو استخدمتْ إسك، لكنَّ إسك لم تكن قادرة قطُّ على استخدام العصا، أتفهم؟».

حدق كوتانجل إلى الجسدين الهادئين وقال: «لا بدَّ أنها قادرة على استخدامها، إنها عصا ساحر ممتاز».

قالت جراني: «أوه، أتعني أنها ساحر ممتاز، أليس كذلك؟».

تردَّد كوتانجل في قوله: «حسنًا، قطعًا لا، لا يمكنكِ مطالبتنا بالاعتراف بها ساحرًا، أين السابقة؟».

قالت جراني بحدة: «الـ ماذا؟».

- لم يحدث هذا قطُّ سابقًا.

- لم تحدثِ الكثير من الأمور قطُّ سابقًا، لقد وُلِدْنا مرة واحدة.

نظر إليها كوتانجل نظرة توسُّل صامت. وقال: «لكنَّ هذا مخالف للـ..»

كان ينوي أن يقول «العرف»، لكنَّ الكلمة تمتمت بصمت.

قالت جراني بانتصار: «أين قيل ذلك؟ أين ذُكِرَ أن النساء لا يمكن أن يصرن ساحرات؟».

تسارعتِ الأفكار التالية في ذهن كوتانجل:

...لم يرد ذلك في أي مكان، بل ورد في كل مكان.

...لكنْ يبدو أن الشاب سايمون قد قال إن كل مكان يشبه كثيرًا اللامكان بحيث لا يمكنك معرفة الفارق حقًّا.

...أأرغب في أن أتذكر بأنني أول رئيس جامعة يسمح للنساء بارتيادها؟ مع ذلك... سأُذكر بذلك بالتأكيد.

...إنها حقًّا امرأة مثيرة للإعجاب عندما تقف بمثل هذه الطريقة.

...للعصا أفكارها الخاصة.

...هناك شيء من الإحساس بها.

...سيضحكون مني.

...قد لا تنجح.

...وقد تنجح.

لم تستطع الوثوق بهم، لكنْ لم يكن لديها خِيار آخر.

حدقت إسك إلى الوجوه الفظيعة التي تطل عليها والأجساد الطويلة الضامرة المتخفية برحمة.

ارتعشت يداها.

في عالم الظل، الأفكار حقيقية. بدا أن التفكير ينتقل إلى ذراعيها.

لقد كان تفكيرًا مبتهجًا ومليئًا بالفوران. ضحكتْ وفصلتْ يديها عن بعضهما، وكانت العصا تتألق في يدها مثل الكهرباء المتصلبة.

بدأت الأشياء في الارتجاف بتوتر، وبدأ شيء أو اثنان في الترنح بعيدًا. سقط سايمون إلى الأمام أطلق سراحه القابضان عليه على عجل. وسقط على يديه وركبتيه على الرمال.

صرخ: «استخدميها، هذه ما نحتاج إليه إنهم مرتعبون!».

ابتسمتْ إسك له وواصلتْ تفحص العصا، للمرة الأولى أمكنها رؤية شكل المنحوتات حقيقة.

اختطف سايمون هرم العالم وركض نحوها.

قال: «هيا! إنهم يكرهونها!».

قالت إسك: «معذرة؟».

قال سايمون بتعجل: «استعيني بالعصا، ومديها إليهم. هاي، لقد عضَّتني!».

قالت إسك: «أعتذر، عمَّ كنا نتحدث؟».

رفعتْ نظرها وتدبرتْ في شكل الأشياء كأنها تراها لأول مرة، وأضافت: «أوه، هؤلاء، إنهم موجودون داخل رؤوسنا فحسب. إن لم نؤمن بوجودهم، فلن يكونوا موجودين على الإطلاق».

نظر سايمون حوله إليهم.

قال: «لا أستطيع أن أقول إنني أصدقكِ بصدق».

قالت إسك: «أعتقد أن علينا العودة إلى الديار، سيقلق الناس».

حركت يديها معًا واختفتِ العصا، رغم أن يديها توهجتْ لحظةً كأنَّهما كانتا ملتفَّتيْن حول شمعة.

نبحت الأشياء وسقط عدد قليل منهم.

قالت إسك لسايمون وهي تمسك بذراعه: «الشيء الهام في السحر هو أن تعرف متى لا تستخدمه».

حدق إلى الهيئات المتفتتة من حوله وابتسم بحماقة وقال: «ألم تستخدميها؟».

قالت إسك وهم يسيرون تجاه الأشياء: «أوه بلى، جرِّبها بنفسك».

مدتْ يديها وأخرجتِ العصا من الهواء وقدَّمتها له، ذهب لأخذها ثم أرجع يديه: «أوه لا، لا أعتقد أنها تحبني كثيرًا».

- أعتقد أن لا بأس لو أعطيتك إياها، لا يمكنها أن تجادلني في ذلك حقًّا.

- إلى أين تذهب؟

- إنها تصبح فكرة بحد ذاتها، على ما أعتقد.

مدَّ يده مجددًا وأغلق أصابعه حول الخشب اللامع. ورفعها في وضع الساحر الانتقامي التقليدي: «حسنًا، سأريهم!».

- لا، خطأ.

- ماذا تقصدين بقولكِ خطأ؟ باتت لديَّ القوة!

- إنهم نوع من انعكاسنا، ولا يمكنك التغلب على انعكاساتك؛ فسيماثلونك بالقوة دائمًا، وهذا سبب اقترابهم منكَ عندما تشرع باستخدام السحر. وهم لا يتعبون، فهم يتغذون على السحر. ولذا لا يمكنك الانتصار عليهم بالسحر. لا، إن الشيء... حسنًا، لو لم تستخدم السحر لأنك لا تستطيع، فلا فائدة ترجى أبدًا. لكنَّ عدم استخدام السحر رغم استطاعتك، هو ما يزعجهم حقًّا؛ إنهم يكرهون الفكرة، فلو توقف الناس عن استخدام السحر، فسيموتون هم.

سقطتِ الأشياء المواجهة لهم فوق بعضها وهم يتراجعون في عجلة من أمرهم.

نظر سايمون إلى العصا ثم إلى إسك ثم إلى الأشياء ثم إلى العصا مجددًا.

قال بارتياب: «يحتاج هذا إلى الكثير من التفكير بشأنه، أودُّ حقًّا، حل تلك المعضلة».

- أتوقع أنها ستفعلها على أكمل وجه.

- لأنكِ تقولين إن القوة الحقيقية تتجلى عندما تمر بالسحر وتخرج من الجهة المقبلة.

- هذا ينجح، رغم ذلك أليس كذلك؟

كانا وحدهما في السهل البارد حينها، وكانت الأشياء هيئات ملتصقة بعيدة.

قال سايمون: «أتساءل عما كانوا يعنونه بالسحر الأسود؟».

- لا أعلم لربما كان...

قال سايمون مجددًا: «أودُّ حقًّا حل تلك المعضلة».

وهو يقلب العصا مرارًا وتَكْرارًا فوق رأسه، وأكمل: «يمكننا إجراء بعض التجارب كما تعلمين بشأن تعمُّد عدم استخدام السحر. يمكننا بحذر ألا نرسم ثُمانيًّا على الأرض، ويمكننا تعمُّد عدم جلب كل هذه الأشياء؛ يجعلني مجرد التفكير في ذلك أتصبب عرقًا!».

قالت إسك وهي تنظر إلى أسفل إلى الهرم: «أودُّ التفكير في كيفية العودة إلى الديار».

- حسنًا، من المفترض أن هذه فكرتي عن العالم، عليَّ إيجاد طريق، كيف تفعلين ذلك باليدين؟

حرك يديه معًا، وانزلقتِ العصا بينهما، توهج الضوء خلال أصابعه لحظةً، ثم اختفى. ابتسم ابتسامة عريضة وقال: «حسنًا، والآن كل ما علينا فعله هو البحث عن الجامعة...».

أشعل كوتانجل لفافته الثالثة من عقب الثانية.

كانت هذه السيجارة الأخيرة مدينة بالكثير للقوى الإبداعية للطاقة العصبية، وبدت كأنها جمل مقطوع الساقين.

كان قد شاهد العصا فعلًا تنتقل بلطف من إسك وتحط على سايمون.

والآن طافت في الهواء مجددًا.

احتشد السحرة الآخرون في الغرفة، وجلس أمين المكتبة تحت المنضدة.

قال كوتانجل: «لو أن لدينا أي فكرة عما يحدث، إنه التشويق الذي لا أستطيع تحمله».

ردَّت جراني بسرعة قائلة: «فكِّر بإيجابية يا رجل، وأطفئ سيجارتك اللعينة هذه، لا يمكنني تخيل أن يود أي شخص العودة إلى غرفة رائحتها كرائحة المستوقد».

وكرجل واحد، أدارت مجموعة السحرة المتجمعة وجوههم تجاه كوتانجل بترقب.

أخرج الفوضى المحترقة من فمه وبوهج لم يهتم أي من السحرة المجتمعين بملاقاته، داسها بقدميه: «ربما حان وقت إطفائها على أي حال، وهذا ينطبق على بقيتكم كذلك، فالمكان هنا أسوأ من منفضة سجائر وأحيانًا...».

ثم رأى العصا، كانت...

الطريقة الوحيدة التي يمكن لكوتانجل وصف التأثير الذي حدث هو أنه قد بدا أنها تتحرك بسرعة شديدة فيما ما زالت ثابتة في المكان نفسه تمامًا.

اشتعلت تيارات من الغاز بعيدًا عنها ثم اختفت، وهذا إن كانت غازًا. توهجتْ كأنها نجم مُذنَّب صممه مصمم تأثيرات خاصة غير كفؤ. قفزت شرارات ملونة ثم اختفت في مكان ما.

كان لونها يتغير كذلك، بدءًا من الأحمر الباهت ثم يتسلق خلال الطيف حتى يصبح بنفسجيًّا مؤلمًا. ولمعتْ ثعابين من نار بيضاء على طوله.

(فكر في أن لا بدَّ أن تكون هناك كلمة للكلمات التي تبدو مثل الأشياء كما لو كانت ستحدث ضجيجًا. فكلمة «تلألأ» تشير إلى وميض زيتي، ولو كانت هناك كلمة تبدو مناسبة تمامًا للطريقة التي يبدو عليها الشرر وهو يزحف خلال الورق المحترق أو الطريقة التي تتسلل بها أضواء المدن خلال عالم اكتظتْ فيه الحضارة البشرية بأسرها في ليلة واحدة، فلن يكون هناك كلمة أفضل من «زحف»).

كان يعلم ما سيحدث تاليًا.

همس: «انتبه، ستذهب إلى...».

في صمت تام، ذلك النوع من الصمت الذي يمتص الأصوات ويخنقها في الواقع، أومضتِ العصا بأوكتارين صافٍ، على طولها.

اللون الثامن، الناتج عن تساقط الضوء على حقل سحري قوي، توهج خلال الأجساد ورفوف الكتب والجدران. غامت الألوان الأخرى وتداخلتْ معًا كما لو كان الضوء كوبًا من شراب الجين انسكب على لوحة الألوان المائية للعالم. توهجت الغيوم فوق الجامعة وتشابكت في أشكال جذابة وفجائية وتدفقت لأعلى.

رأى مراقبٌ من فوق القرص بقعةً صغيرةً من اليابسة قرب البحر الدائري تومض مثل الجوهرة عدةَ ثوانٍ ثم تفني وتتلاشى.

كسر صمتَ الغرفة قعقعةٌ خشبيةٌ إذ سقطت العصا من الهواء ووثبت على المنضدة.

قال أحدهم بصوت ضعيف جدًّا: «حسنًا».

تذكر كوتانجل أخيرًا كيفية استخدام يديه، فرفعهما إلى حيث أمل أن تكون عيناه، حيث استحال كل شيء إلى ظلام: «هل... هنا أي شخص آخر هناك؟».

قال صوت آخر: «الآلهة، كم أنا سعيد بسماعك تقول ذلك».

وفجأة ضج الهدوء بالثرثرة.

- هل ما زلنا حيث كنا؟

- لا أعرف، أين كنا؟

- هنا على ما أعتقد.

- هل يمكنك الوصول؟

قال صوت جراني ويذرواكس الذي لا لبس فيه: «ليس إلا إذا كنت متأكدة تمامًا مما سألمسه يا رجلي الصالح».

قال كوتانجل: «ليمد الجميع يد العون».

واختنق بصرخة إذ التفَّت يدٌ مثل قفاز جلدي دافئ حول كعبه، كان هناك «حسسنًا» صغيرة مرضية، تمكنت من بث الراحة والطمأنينة والفرح الكامل عند لمس يد إنسان زميل أو في هذه الحالة، شبيه بالإنسان. كان هناك صوت خدش ثم توهُّج مبارك من نار حمراء حيث أشعل ساحر في آخر الغرفة سيجارة.

- من فعل هذا؟

- عفوًا يا كبير المستشارين إنه حكم العادة.

- دخِّن كما تريد أيها الرجل.

- شكرًا لك، يا كبير المستشارين.

قال صوت آخر: «أعتقد أن بإمكاني رؤية حد الباب الآن».

- جراني؟

- نعم، يمكنني بالتأكيد رؤية...

- إسك؟

- أنا هنا يا جراني.

- أيمكنني أيضًا التدخين سيدي؟

- هل الفتى معكِ؟

- نعم.

- حسسسنًا.

- أنا هنا.

- ماذا يحدث؟

- ليتوقف الجميع عن الكلام!

عادت الأضواء العادية للمكتبة، ضوء بطيء وصديق للعين.

جلست إسك وأزاحت العصا، فتدحرجت تحت المنضدة.

شعرت بأن ثمة شيئًا ينزلق أمام عينها وتوصلت إليه.

قالت جراني وهي تندفع إلى الأمام: «لحظة فحسب»

أمسكتْ بكتفي الفتاة وحدقتْ إلى عينيها، قبلتها وقالت: «مرحبًا بعودتك».

وصلت إسك إلى ما ينزلق أمام عينها وربَّتت شيئًا قاسيًا على رأسها، أنزلته لتفحصه، إنها قبعة حادة أصغر قليلًا من قبعة جراني، لكنَّ لونها أزرق زاهٍ ومرسوم عليها زوجان من النجوم الفضية. قالت: «قبعة ساحر؟».

تقدَّم كوتانجل خطوة إلى الأمام، وقال: «آه، نعم».

تنحنح وأكمل: «كما ترى، قد اعتقدنا -على ما يبدو- على أي حال، فقد نظرنا في الأمر...».

قالت جراني ببساطة: «أنتِ ساحرة، لقد غير كبير المستشارين العرف، وهذا احتفال بسيط للغاية حقًّا».

قال كوتانجل: «العصا هنا في مكان ما، لقد رأيتُها تسقط. أوه».

وقف حاملًا العصا بيده، وأراها لجراني: «اعتقدتُ أن بها منحوتات، لكنَّ هذه تبدو عصا عادية».

وكانت هذه هي الحقيقة، فقد بدت العصا كقطعة قوية ومهددة لإشعال النار بها.

قلبت إسك القبعة بين يديها، بطريقة من يفتح عبوة مغلفة بألوان زاهية ضرب بها المثل ليجد بداخلها أملاح استحمام.

قالت في حيرة من أمرها: «إنها لطيفة للغاية».

قالت جراني: «أهذا كل ما يمكنك قوله؟»

- إنها حادة كذلك.

بطريقة ما لم يفرق شعور أن تكون ساحرًا عن شعور ألا تكون ساحرًا.

مال سايمون نحوها : «تذكري، يجب أن تكوني ساحرة، ثم تبدئين بالنظر إلى الاتجاه الآخر. كما قلت».

التقتْ أعينهما وابتسما.

حدقتْ جراني إلى كوتانجل الذي هزَّ كتفيه، وقال: «قُصَّ عليَّ، ماذا حدث لتلعثمك يا فتى؟».

قال سايمون بطلاقة: «يبدو أنه اختفى سيدي، لا بدَّ أنني تركته ورائي في مكان ما».

كان النهر لا يزال بُنيًّا ومنتفخًا، لكنه عاد يشبه النهر مرة أخرى على الأقل.

كان الجو حارًّا بشكل غير طبيعي لآواخر الخريف وكان البخار يتصاعد من آلاف البسط والألحفة المتروكة لتجف في كل أرجاء الجزء السفلي من عنخ-موربورك. كانت الشوارع مليئة بالطمي -الذي يشير إلى التحسن بشكل عام- وقد قذفتْ مجموعة مذهلة من كلاب عنخ-موربورك الميتة في النهر.

ارتفع البخار كذلك من بلاط الشرفة الشخصية لكبير المستشارين، ومن إبريق الشاي على المنضدة.

استلقتْ جراني على مقعد قديم من الخيزران وتركتِ الدفء غير الموسمي يزحف حول كعبيها، راقبتْ بإهمال فريقًا من نمل المدينة الذي عاشوْا تحت بلاط الجامعة منذ أمد بعيد، لدرجة أن المستويات الرفيعة من السحر قد غيرت جيناتهم بشكل دائم، إذ كانوا ينزلون مكعب سكر رطب من السكرية على عربة متحركة صغيرة. وكانت ثمة مجموعة أخرى تقيم جسرًا من أعواد الثقاب على حافة المنضدة.

ربما كانت جراني مهتمة أو غير مهتمة بمعرفة أن إحدى تلك النملات هو درام بيليت الذي قرر أخيرًا منح الحياة فرصة ثانية.

قالت: «إنهم يقولون إنك لو رأيت نملة في ليلة مراقبة الخنزير فسيكون الجو لطيفًا للغاية في الشتاء».

قال كوتانجل: «من يقول ذلك؟».

- الأشخاص المخطئون بشكل عام، أدوِّن ملاحظة في روزنامتي أنظر، أنا أتحقق. معظم ما يصدقه الناس خاطئ.

- مثل «سماء حمراء في الليل، تعني نهارًا مشرقًا في الغد ولا يمكنك تعليم كلب كهل حيلًا جديدة.

- لا أعتقد أن هذا هو الغرض من الكلاب الكهلة.

وصل مكعب السكر إلى جسر الرافعة الآن، وكانت نملتان تثبتانه على بكرة ورافعة لا يريان بالعين المجردة.

- لا يمكنني فهم نصف الأمور التي يقولها سايمون، رغم أن بعض الطلاب متحمسون لها للغاية.

- أفهم كل ما تقوله إسك تمام الفهم، لكنني لا أصدقه فحسب، باستثناء احتياج السحرة إلى قلب.

- لقد قالت إن المشعوذات بحاجة إلى رأس كذلك، أترغبين في الكعك؟ رطبة بعض الشيء، أخشى ذلك.

قالت جراني ويداها تحومان حول الطبق: «لقد قالت لي إن السحر يمنح الناس ما يريدونه، ويمكن لعدم استخدامه أن يمنح الناس ما يحتاجون إليه».

- هكذا قال لي سايمون، لا أفهم ذلك، السحر للاستخدام وليس للتخزين. استمري دللي نفسك.

شمتْ جراني وأخذتِ الكعكة وفردتْ عليها المربى وبعد وهلة فردتِ الكريمة كذلك: «سحر وراء سحر».

تحطمتْ كتلة السكر على البلاط وأحاطها على الفور مجموعة أخرى من النمل على استعداد لشد وثاقها بطابور طويل من النمل الأحمر المستبعد من حديقة المطبخ.

اعتدل كوتانجل بصعوبة في جلسته على مقعده الذي أصدر صريرًا.

- إزمرلدا، كنت أود سؤالك عن...

- لا.

- في الواقع، كنت سأقول إننا نفكر بأن علينا السماح لعدد قليل من الفتيات بدخول الجامعة، على أساس تجريبي، حالما ننهي أعمال السباكة.

- الأمر متروك لك قطعًا.

- وبدا لي لما كنَّا متجهين إلى إنشاء مؤسسة تعليمية مختلطة، فقد بدا لي أن هذا...

- حسنًا؟

- إذا كنتِ ترين طريقك واضحًا لتصبحي، أي إذا كنتِ ستقبلين المنصب.

تراجع في جلسته، مرتْ قطعة السكر تحت كرسيه على بكرات أعواد الثقاب وصرير مراقب العبيد يوشك أن يصل إلى حافة السمع.

- مم، ليس لديَّ مانع، لطالما أردتُ مقعدًا من تلك المقاعد الخوص الكبيرة كما تعرف، مع ما يشبه المظلة على قمته. إن لم يكن ذلك سيسبب الكثير من المتاعب.

- ليس هذا ما قصدته. رغم أنني على يقين من إمكانية ترتيب ذلك، لكن ما قصدته أتأتين وتحاضرين الطلاب؟ من حين لحين؟

- في ماذا؟

بحث كوتانجل عن موضوع ثم قال: «الأعشاب، نحن لسنا جيدين بالأعشاب هنا، وعلم التحكم بالدماغ، لقد أخبرتني إسك بالكثير عن علم التحكم بالدماغ، ويبدو رائعًا».

اختفى مكعب السكر في صدع بجدار قريب مع رعشة أخيرة، أومأ كوتانجل تجاه ما يحدث.

- إنهم مكلفون جدًّا في استخدام السكر، لكنْ ليس لدينا قلب لفعل أي شيء تجاههم.

اكفهرت جراني ثم أومأت خلال الضباب فوق المدينة إلى بريق الثلج البعيد في رامتوبس: «إنه مشوار طويل، لا يمكنني الاستمرار في الذَّهَاب إلى الخلف وإلى الأمام في أيام حياتي».

- يمكننا أن نشتري لك عصا مقشة جديدة، واحدة لا ترتج عند الانطلاق، وأنت يمكنك الحصول على شقة هنا وكل الملابس القديمة التي يتسنى لك حملها.

أضاف ذلك مستخدمًا سلاحًا سريًّا استثمره بحكمة من محادثاته مع السيدة ويتلو.

قالت جراني: «مهف، حرير؟».

- أسود وأحمر؟

طافت صورة جراني وهي ترتدي الأسود والأحمر بمخيلته، وعض كعكته بشدة: «وربما يمكننا إحضار بعض الطلاب إلى كوخك صيفًا؛ للمزيد من الدراسات الخارجية»

- ما الدراسات الخارجية؟

- أعني أن هناك الكثير مما يمكنه تعلمه منك، أنا على يقين من ذلك.

وضعتْ جراني ذلك في اعتبارها، طبعًا يحتاج المرحاض إلى فحص جيد قبل أن يصبح الجو دافئًا جدًّا، وسقيفة الماعز جاهزة للتنظيف بحلول الربيع. كما كان الحفر فوق حشية الأعشاب أمرًا روتينيًّا كذلك. وسقف غرفة النوم وصمة عار، وبعض البلاط بحاجة إلى الإصلاح.

قالت بإمعان: «أشياء عملية؟».

- بالتأكيد.

قالت جراني وهي تعي جيدًا أن لا ينبغي للمرء التمادي في موعده الأول: «مهف، حسنًا سأفكر في الأمر».

قال كوتانجل وعيناه تلمعان: «ربما تكترثين للعشاء معي هذا المساء وتسمحين لي بمعرفة ردك؟».

- ماذا سنأكل؟

- لحم بارد وبطاطس.

كانت السيدة ويتلو تؤدي عملها جيدًا.

مضت إسك وسايمون في تطوير نوع جديد من السحر لم يفهمه أحد بالتحديد، لكنْ رغم ذلك فقد اعتبره الجميع جديرًا بالاهتمام ومريحًا إلى حد ما.

وربما الأهم من ذلك، أن النمل استخدم كل ما أمكنه سرقته من مكعبات السكر في تشييد هرم سكر صغير في أحد الجدران الجوفاء حيث دفنوا جثة محنطة لملكة ميتة في احتفال مهيب. وعلى جدار غرفة مخفية صغيرة نقشوا بهيروغليفية حشرية السر الحقيقي لطول العمر.

لقد فهموا الأمر بشكل صحيح للغاية، وربما فهموا تداعياته الهامة على الكون، إذا لم ينجرفوا تمامًا في المرة القادمة التي ستغرق فيها الجامعة.

النهاية

telegram @
yasmeenbook

مكتبة ياسمين

عالم القرص
DISCWORLD

طقوس متساوية

من قال إن النساء لا يمكن أن يكُنّ ساحرات؟

هذه حكاية عن السحر: أين يذهب؟ وربما الأهم هو مِن أين ينبعث ولماذا؟

رغم أنها لا تدعي الإجابة عن كل هذه الأسئلة أو أيٍّ منها.

في طقوس متساوية، يحاول ساحر على شفا الموت تمرير قواه إلى الابن الثامن للابن الثامن في لحظة مولده بالضبط. والحقيقة هي أن ذلك الابن وُلد بنتًا في الواقع وهو ما سيُكتشف بعد فوات الأوان.. بهُنيهة.

"تجاوز براتشيت حدود الفنتازيا المضحكة وينبغي الاعتراف به على أنه أحد أهم الكتاب الساخرين المعاصرين باللغة الإنجليزية".

- Publishers Weekly

"لهروب مرح من هموم الحياة في مكان عميق، لن يكون أمامك أفضل من روايات عالم القرص ".

- Washington Post

غلاف: محمود هشام

9 789779 92444 1

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb